محمد عبد المنعم خفاجي

فصول في النقد

أربعة كتب في كتاب

الطبعة الأولى — ١٩٥٣
بالقاهرة

المطبعة المنيرية بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة الأولى

هذه بحوث فى الأدب والنقد ، كنت قد كتبتها فصولا ، ونشرت بعضها فى مناسبات مختلفة . وهى تنشر فى هذا الكتاب مجموعة لأول مرة .

وإنى لنى غنى عن أن أتحدث عنها ، أو أنوه بقيمتها الأدبية والعلمية والنقدية ، فالقارىء هو وحده الحكم المنصف ، والناقد الذى يزيف الضعيف ، ويرفع من قيمة الجيد المختار .

وهذه البحوث أقسام : القسم الأول فصول متعددة بين الأدب والشعر والنقد ، والثانى فصول نقدية حول ابن المعتز والمؤلفين فيه ، والثالث فصول فى النقد البلاغى .

وقد أضفت إلى ذلك بحوثا ودراسات اخرى تعد فى غاية الأهمية للباحث الأدبى وللناقد معا ، ومنها دراسة لابن سنان وكتابه المشهور « سر الفصاحة » .

وإنى لأرجو ان تنال هذه البحوث مزيدا من عناية القارىء وعطفه وتقديره ، والله الموفق إلى السداد ، والهادى إلى أقوم سبيل ...

المؤلف

الكتاب الأول

بين الأدب والشعر والنقد

لكى تكون أديبا

إذا كنت ممن يهتز للبلاغة الأدبية ، ويرتاح للأسلوب الجيد ، ويسحره البيان الرائع ، فاعلم أن لديك موهبة أدبية كامنة تحب أن تظهر ، وفطرة تخفى فى جوانحك وأعماق نفسك تريد أن تتحرك ، وأنت حينئذ عندك استعداد لكى تكون أديبا ، وفيك رغبة قوية فى عمل أدبى مثمر ، ولديك ذوق تحب أن يكتمل ويقوى على تحمل تبعات الحكم الأدبى . فإن أردت أن تسير فى الطريق وأن لا تقف دون غايتك ومرماك فعليك إذا أن تنهض بعبء الحياة الأدبية التى ترمقها وتنشد أن تحياها . غذ نفسك بشتى الثقافات الأدبية القديمة والحديثة : قراءة وفهماً وحفظا وذوقا ، ونم ثقافتك العقلية بالاطلاع على مختلف العلوم والفنون وتابع الفكر الإنسانى فى خطواته المتوثبة السريعة الرائدة ، واحرص على أن تكون ملما بكل مايجد فى الحياة من جديد ، وعلى قراءة سير أعلام الأدب والشعر ومذاهبهم الأدبية وأثرهم فى نهضة الأدب وازدهاره .. فإن واتاك الحظ ، فالممت بلغة من اللغات ، فاحرص على الوقوف على ثقافتها وآدابها والاحاطة بتراثها الفكرى والأدبى ، وإلا فاقرأ ما يترجم من آدابها وعلومها وفلسفاتها إلى لغة بلادك وحاول أن يكون له أثره فى عقلك ومشاعرك ، وأن تلقح به فكرك ومعارفك وثقافتك ، فاذا بلغت هذه الغاية فقد قاربت أن تصل إلى أمنيتك وأن تظفر ببغيتك ، وطلبتك ، وعندئذ قف أمام نفسك تحاسبها ، واعترض الطريق أمام ذوقك تناقشه الحساب ، وسائل ملكاتك الأدبية : كيف ارتاحت لهذا الأثر الأدبى ، ولم تهتز إعجابا بروائع البلاغات وجيد الفصاحات ؟ فإن رأيت نفسك قادرة على الوقوف فى الميدان ، فاعتقد أن لك حظا فى الادب ، وأنك على وشك أن يوحى إليك برسالتك الأدبية ، وإلا استفت أستاذك ، واسترشد برأى مرشدك ، ليوجهك نحو الهدف ، وليبين لك ما خفى عليك من أسرار الصناعة الأدبية . ومهما كان فهذب عواطفك ورب مشاعرك على دقة الإحساس ونبل التأثر ، وسمو الادراك ..

ونم خيالك بالاستغراق فى مشاهد الكون ، ومجالى الوجود ، ومظاهر الحياة والطبيعة ، ودع روحك تحس دبيب النملة ، وتسمع حديث الزهرة ، وتنظر إلى الأشياء صغيرها وكبيرها نظرة عميقة نافذة فيها صوفية وتبتل وحياة ، ثم حرك فكرك ، واتركه يتأمل فى كل شىء ويبحث عن أسرار كل غامض ، ويستجلى خفايا كل بعيد غائب عن حواسنا ومداركنا . ثم حدد رسالتك الأدبية فى الحياة ، وابدأ فى أداء هذه الرسالة بقوة وعزم وثقة ، فقد أصبحت من غير شك أديبا .. فإن كنت تعشق أدب المقالة أو القصة أو الرواية أو التمثيلية فسير شدك ذوقك إلى ما يعصمك من الخطأ ، ويجنبك العثار ، ويبلغ بك إلى الغاية .. وإن كنت هيأت نفسك لتكون شاعرا فقد أتاح لك القدر الحظ الأوفى من ملكات الشعر ، ومواهبه ولن يستعصى عليك جيد الشعر ، والمران هو السبيل إلى الاجادة والقوة والتوفيق . إن من الناس من يرثون ملكات الأدب عن أصولهم العربية ، وهؤلاء يستطيعون أن ينبغوا فى الادب بسرعة إذا حاولوا السير والعمل والقراءة الادبية المستمرة .. ومنهم من تغرس فى نفسه حب الادب وتذوقه عوامل النشأة والتربية وطبيعة الثقافة الادبية التى يتلقاها فى المنزل أو المجتمع أو المدرسة .. ومنهم من ينبغ فى الادب كبيرا لانه أضاع وقتا كبيرا من عمره دون أن يجد ويسير فى الدرب .. والذى يساعد على النجاح فى الميدان الادبى كثيرا وبسرعة هو تعهد الاستاذ للأديب الناشىء وتوجيهه له ورعايته إياه .. وأحب أن لا يسعى الاديب أول أمره إلى الظهور فى الميدان الادبى قبل أن تنضج ملكاته وأن لا يتخذ من الصحف والمجلات أستاذا له فى صناعة الادب ، فان ذلك لا يفيده شيئا ولا يكسبه ثمرة ، وإن أكسبه ثقافة عامة مناسبة .

والجماعات الادبية التى يشترك فيها الشاب الناشىء فى مدرسته بإشراف أساتذته هى خير طريق وأيسره وأقربه لانماء المواهب الأدبية وتقويتها .

وليس بعسير على الشباب أن يفهم أن فى الميـــدان الأدبى أدباء ومتأدبين وتجاراً يحترفون صناعة الأدب ، وأن كل فرقة من هذه الفرق تصطنع الدعاية لنفسها ، وإغراء الشباب بالتعصب لها ، وأنا أمقت تعصب الشاب لرأى أدبى فكثيراً ما يكون هذا الرأى خطأ والدعاية المستمرة فى بيئتنا تقلب الخطأ صوابا وتضلل عقول الشباب إلى حد كبير ، هذا فضلا عن أن التعصب دائما يلازم الجهل ويسير فى تياره .. إنما يجب على الشباب أن يسعوا إلى معرفة الحقائق ، ويسلكوا إلى معرفتها كل طريق ، وأن يؤمنوا دائمـا بالحق والخير والجمال ، وأن تكون وجهتهم مثل الحياة الإنسانية الكريمة ، وأمثل ما فى الكون من آداب وفضائل وأخلاق

الشاعر أحمد زكى أبو شادى

مفكر ثائر . وشاعر ناثر ، وناقد جرىء ، وداعية من أكبر دعاة التجديد فى الشعر العربى المعاصر . ذلكم هو الدكتور أحمد زكى أبو شادى العبقرى الفذ والشخصية الموهوبة والحر الأبى ، الذى أعلن الثورة على التقليد والجمود والعبودية الفكرية فى كل مكان ، وصرخ فى وجه أمراء الشعر — كشوقى وحافظ وسواهما — أن اتركوا التقليد ، وسيروا إلى الأمام ، وأنقذوا الشعر من قيوده الثقيلة المعوقة له عن متابعة الحياة ، والسير فى مواكبها ، وتغذية العواطف ، والسمو بالمشاعر والانطلاق وراء المثل العليا ، والسير مع الذوق والطبع والعقل .

يرى أبو شادى أن كل شعر فنى جميل أصيل ، مهما كانت بحوره وقوافيه مادامت موسيقاه ملائمة لموضوعه ، حبيب إلى نفسه وذوقه . ولم يسأم أبو شادى طول حياته من الدعوة إلى الأصالة والفطرة الشعرية والعاطفة الصادقة وإلى الابتعاد عن الافتعال والتكلف والتصنع ، وإلى الوحدة التعبيرية ، وإطلاق النفس على سجيتها ، والتناول الفنى السليم للفكرة والموضوع والمعانى . وكلما طابق الشعر هذه المبادىء ، فهو فى رأيه شعر مقبول جميل كيفما كان قائله ، والعصر الذى يعيش فيه ، ومن ثم لم يمل أبو شادى من الدعوة فى شعره ونثره إلى الحكم على العمل الفنى والقصيدة الشعرية قبل الحكم على الشاعر نفسه ، ولذلك كان أبو شادى أبعد الناس تعصبا لمذهب أو مدرسة أو عصر أو جماعة دون غيرها ، متى كانت للأخرى مؤهلات فنية جديرة بالتقدير ، كما نرى فى طرائف الشعر الجاهلى

ولد أبو شادى عام ١٨٩٢ ميلادية ، وكان والده من أقطاب الحركة الوطنية فى مصر ، ومات شهيدا فى سبيل مبادئه ، وقد أحب طفله الصغير لما لمس فيه من الذكاء والنبوغ المبكر ، فعنى بتربيته عناية فائقة . ودخل أبو شادى المدارس الابتدائية فكان من أوائل الناجحين فيها وتلقى تعليمه الثانوى فى مدرسة التوفيقية المشهورة بشبرا . وظهر نبوغه فى الآداب واللغات بصورة واضحة ، مما جعله موضع إعجاب أساتذته وأقرانه . . ودخل مدرسة الطب فدرس فيها عاما ، وعاصر النهضة الأدبية التى كانت قائمة فى القاهرة ، وسمع آراء الأدباء المعاصرين له فى النقد والأدب والحياة وقرأ قصائد الشعر التى كانت تنشرها الصحف والمجلات لشوقى وحافظ ومطران

وسواهم ، وكان يحب الشعر ويتذوقه وينقده ويقبل على قراءته ونقده ونظمه وهو صغير ، وكان والده ووالدته وخاله شعراء . ثم سافر إلى انجلترا للدراسة ، فزاد إطلاعه على الآداب الانجليزية خاصة والغربية عامة ، وعاد إلى مصر يحمل بين جوانحه قلبا مملوءا بحب التجديد والدعوة إليه . وتنقل أبو شادى فى وظائف الحكومة بين الأقاليم والاسكندرية والقاهرة (١) وعنى بدراسة تربية النحل فى مصر والتأليف فى هذا الموضوع ، كما شغل به عمليا ، وظل كذلك حتى كان أستاذا بكلية الطب بجامعة الاسكندرية فوكيلا لها .

هذا هو أبو شادى الرجل . أما أبو شادى الأديب فشأنه عجيب ؛ فقد أخذ يهاجم فى عنف وقوة زعماء المدارس الأدبية فى مصر وينعى عليهم جمودهم وتقليدهم كما أخذ ينظم الشعر مجددا فيه ، مطلقا له من قيوده القديمة ، يفتح أمامه آفاق الحياة والتفكير والتأمل ، ونشر عدة دواوين شعرية له أحدثت ضجة أدبية كبيرة فى وسط جماعات المشعوذين والمقلدين والجامدين ، والعاكفين على القديم الموروث والحابسين أنفسهم فى قفص الأوهام والعبودية والأغلال الفنية المرهقة المؤذية لكل شعور حى ، وإحساس عميق ، وفكر حر سليم . ومن هذه الدواوين : الشفق الباكى ، والينبوع ، وديوان الشعلة ، وديوان أشعة وظلال . وقد نشره عام ١٩٣١ فى ١٤٤ صفحة من القطع الكبير وطبع بمطبعة الشباب بمصر وكان يقيم حينئذ فى ضاحية المطرية ، وديوان أطياف الربيع وقد نشره عام ١٩٣٣ ، وديوان « الكائن الثانى » وهو مجموعة من شعره ، وسوى ذلك من دواوينه الكثيرة

كما أخذ ينظم الشعر القصصى الطريف وهو لون جديد فى الشعر العربى المعاصر كان أبو شادى سباقا إلى النظم فيه ليخرج الشعر من سجن التقليد ، وليسير به مع الآداب الاوربية جنبا إلى جنب فى طريق الحرية الفنية الاصيلة ، ومن هذه القصص الشعرية الجميلة التى نظمها ونشرها أبو شادى : قصة مها وقصة عبده بك التى نظمها الدكتور من بحر واحد وجعل كل بيتين من قافية ، ومفخرة رشيد وهى قصيدة وطنية شائقة ، وكان أول من نظم الاوبرات فى اللغة العربية مثل الآلهة وهى أوبرا

(١) كان أبو شادى موظفا فى الاسكندرية قبل عام ١٩٢٨ ، ولما نقل فى هذا العام إلى القاهرة أقامت له الجمعية الطبية المصرية وجماعة أنصار الادب الجديد بالثغر حفلات تكريم فى أواخر ديسمبر عام ١٩٢٨ .

رمزية ذات ثلاثة فصول ، واخناتون ، والزباء ، وبنت الصحراء ، وسواها وله من الاقاصيص الشعرية الوصفية : نكبة نافارين ومعشوقة ابن طولون وسواها من القصص الشعرية الجديدة في الشعر العربي الحديث .. وطالما كان أبو شادي يردد قوله :

وهل كان شعري غير إيمان مهجتي وعشقي وإحساسي ولحني المردد

كما أخذ يكون مدرسة أدبية جديدة يتزعمها ، رسالتها الثورة على القديم . والدعوة إلى الحرية الفكرية والادبية والفنية ، وإلى تمثيل الشعر لخلجات النفوس ونبضات الافئدة ، وتأملات الفكر ، وهزات العواطف والمشاعر والوجدانات المختلفة . وأنشأ أبو شادي مجلة أبولو الشعرية المشهورة في القاهرة لسانا لدعوته ومذهبه ومدرسته ، فكانت أول مجلة تقف نفسها على خدمة الشعر العربي المعاصر والنهوض به ، والتجديد في دراسته وإحياء روح الشعر الاصيل ، وتهذيبه مما علق به من أوهام التقليد والصنعة والابتذال ، وخدمة فن الشعر الذي كان وما يزال أهم فنون العربية ، وخدمة رجاله ، وتحرير الشباب والشعراء والادباء من سيطرة الحكام والاحزاب السياسية والمناسبات الطارئة والحاجات الوقتية الملحة ومن الاحتكار الادبي الممقوت . ولقد كان لدراسات أبي شادي في مجلة أبولو ولبحوثه المنوعة في النقد الادبي ، أثر جليل .. كان يمتحن نفسه فيها أشد امتحان ولا يبالي بشيء مهما تعرض لنقد أو تهجم ، ومهما أغضب الناس من حوله ، لانه كان لا يخسر أبدا احترام نفسه لنفسه ورأيه ، وكان ينشد قول استاذه وصديقه مطران

وما خفت في آن عتابا ، وإن قسا به الناس ، لكني أخاف عتابي

هذا كله بجانب خدمته للتأليف العلمي في الاقتصاد الزراعي ، والنحالة والدجانة والصناعات الزراعية ، فضلا عن طب المعمل والبكتريولوجيا ، فوق خدمته للتحرر الفكري والاجتماعي والديني ، بمحاضراته ورسائله المشهورة : « مذهبي » و « عقيدة الألوهية » ، و « رسالة محمد » ، و « لماذا أنا مؤمن ؟ » و « المال في الاسلام » ، و « عظمة الاسلام » . وخدمته القيمة لأدب المقال بتآليفه النثرية المنوعة ، ولأدب الترجمة بترجماته الخصبة لأمثال « العاصفة » ، و « رباعيات حافظ الشيرازي » ، و « رباعيات الخيام » وعمريات فتزجرالد وأناشيد الشيرازي .

لم تستمر مجلة « أبولو » غير ثلاثة عوام ، لأن الجو الادبي في مصر إبان ذلك العهد كان مثقلا بالقيود والاغلال والجمود ، ولم يكن يهضم أمثال هذه الدعوة الجريئة ، دعوة التجديد بكل ما تشتمل هذه الكلمة عليه من معان ، فنقل أبو

شادى إلى الاسكندرية ، وأقام بها ، ولكنه لم يوقف نشاطه الادبى ، فاخذ يخرج مجلة « أدبى » ومجلة « مملكة النحل » ، وساعد على إخراج مجلة « الامام » ، وأسهم فى حياة الاسكندرية الادبية ، وأخرج فى الاسكندرية ديوانه المشهور « عودة الراعى » عام ١٩٤٢ . وتفرغ لاعماله العلمية والدراسية التى كان يحتم عليه منصبه القيام بها حيث كان يعمل أستاذا للبكتريولوجيا بكلية الطب بجامعة الاسكندرية ومديرا للمعمل البكتريولوجى بالمستشفى الحكومى . وله كتاب ضخم فى تربية النحل ومحاضرة فى الموضوع نفسه عنوانها « إنهاض تربية النحل فى مصر » ومن الانتاج الأدبى الاصيل الذى أخرجه الدكتور قبل هذه الفترة دراسته عن المتنبى وعنوانها : « الطبيعة فى شعر المتنبى » . وفى الاسكندرية توفيت زوجته عام ١٩٤٦ ، فحزن عليها حزنا عميقا ورثاها بقصيدته [١] العميقة الخالدة :

ماذا تفيــدك لوعتى وبكائى هــذا فناؤك مؤذن بفنائى

وبدأ يزيد شعوره بالاضطهاد الفكرى والادبى فى مصر ، وبأنه غريب فى وطنه وبيئته ، فهاجر من مصر إلى نيويورك فى ١٤ إبريل عام ١٩٤٦ ، ورحبت به الجماعات الادبية فى أمريكا أيما ترحيب ، وأخذ يحرر فى الصحف والمجلات العربية فى نيويورك ، ومن بينها جرائد الهدى والاصلاح والسائح ونهضة العرب ، كما أخذ يحاضر من صوت أمريكا مرتين فى الأسبوع ، وأسس « رابطة منيرفا » الشعرية الأدبية على غرار جمعية ابوللو ، كما اختير عضوا لمجلس الرابطة الدولية لحقوق الإنسان ، وعضوا بمجلس البرلمان العالمى للديانات واحترمته الحكومة الأمريكية والجامعات والمعاهد والمؤسسات الثقافية وجمعيات الشعر والأدب فى العالم الجديد ، ودعى ليحاضر عن الأدب العربى عامة والأدب المصرى الحديث ، خاصة ، وانتخب أستاذا للأدب العربى بمعهد آسيا بنيويورك .

وقد عمل أول هجرته إلى نيويورك مستشارا للحكومة السعودية فى الأمم المتحدة فمستشارا للوفد الأريترى فى ثلاث دورات متوالية منذ بدء أعمال هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك . وقد نشر أبو شادى فى ديسمبر عام ١٩٤٩ ديوانه الشعرى الجديد « من السماء » فى مائة وستين صفحة ، وطبع بمطبعة جريدة الهدى اليومية بنيويورك ، ويجمع شعر أبى شادى من عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٤٩ ، وقد نشرت

---

(١) ص ٨٩ — ٩٤ ديوان من السماء لابى شادى .

فى المقتطف فى عدد مايو ١٩٥١ دراسة نقدية تحليلية وافية لهذا الديوان ، وفى الديوان مرثية أبى شادى الرائعة لزعيم المجددين خليل مطران الشاعر (١) ، وقد أهدى أبو شادى نسخ الديوان كلها لحكومة فلسطين لحساب اللاجئين العرب . وفى أثناء إقامة الدكتور أبى شادى فى نيويورك اكمل ديوانه « الانسان الجديد » وألف عشرات الكتب التى لا تزال مخطوطة لم تطبع بعد ، ومن بينها كتابه الرائع : « من نافذة التاريخ » وهو أحاديث مختلفة عن الفكر الإنسانى ، وقد نشر فى القاهرة جزآن منه ، وتألفت فى القاهرة جماعة من الادباء لنشر تراث أبى شادى الادبى والفنى والفكرى ، وكتبت الصحف والمجلات المصرية مقالات ينعى كاتبوها فيها على مصر عقوقها لأبى شادى الأديب العبقرى المصرى ، وأخذ الادباء والشعراء من الشباب يشعرون شعورا صادقا بفضل أبى شادى على النهضة الادبية والشعرية الحديثة .

ولا يزال هذا الاديب الكبير ، والشاعر المجدد ، والمفكر الحر مقيما فى نيويورك ، يغالب المرض والمرض يغالبه . ومع ذلك فهو لا ينقطع عن الكتابة والتأليف والمحاضرة والإذاعة من « صوت أمريكا » . والاتصال بتلاميذه وإخوانه فى البلاد العربية والعالم .

ولا ننسى أخيرا أن نقول إنه قد ألف عن أبى شادى ودراسة شعره بحوث وكتب كثيرة منها :

١ — رائد الشعر الحديث بقلم محمد عبد المنعم خفاجى ـ وهو تحت الطبع

٢ — نظرات نقدية فى شعر أبى شادى ، للاستاذ حسن صالح الجداوى . وهو بالعربية .

٣ — ابو شادى الشاعر ـ بحث كتبه الدكتور إسماعيل أدهم ، ودرس فيه شخصية أبى شادى الادبية دراسة واسعة .

٤ — وقد نشر كتاب ثالث فى القاهرة عنه قبل عام ١٩٣٤ بعنوان : « أبو شادى فى الميزان » ـ للاستاذ محمد عبد الغفور . .

٥ — كما نشر بحث قيم للشاعر أحمد محرم عنوانه « أبو شادى ، شعره فى ديوان الشعلة » ، فى ٦٤ صفحة . .

---

(١) ص ١٣٠ — ١٣٦ من السماء — ديوان أبى شادى الجديد .

وهناك دراسات أخرى متعدده فى العربية بأقلام مشهورى الادباء والنقاد والشعراء

ونحن ندعو الادباء من جديد إلى دراسة هذه الشخصية القوية دراسة عميقة ملؤها الإيمان بحرية النقد والفكر ، وهدفها الحقيقة وحدها بعيدة عن العصبية والجهل والجمود .

إن القلم ليشعر بالعجز عن الكتابة فى أبى شادى وشاعريته ودعوته التجديدية التقدمية وتراثه الفكرى والأدبى ، لأن أبا شادى أكبر من أن يحيط بجوانب عبقريته إنسان ، وأعظم من أن يصور حقيقة أثره على النهضة الأدبية بيان ...

مصر محرومة من مواهب أبنائها

وطننا العزيز والحمدلله حرب دائمة على العبقريات من أبنائه ، لا يألفهم ولا يألفونه ، يعيشون فيه غرباء أو شبه غرباء ، ينكرهم المجتمع وينكرونه ، ذنبهم أنهم سبقوا فكرياً إخوانهم فى الوطن ، وأشباههم فى البيئة والحياة . وليس الشعب وحده هو المسئول عن هذا ، وإنما يشاركه فى ذلك حكوماتنا حفظها الله ، التى لا توجد وظيفة فيها إلا للمقربين منها ، ولا تؤثر إنساناً بخير إلا إذا كان محظوظاً عند رجل من رجالاتها . . وتهزل مصالحنا المختلفة ، فتنتفع برجال القانون فى خدمة الزراعة ، وتعين فى وظائف الهندسة رجال القانون ، والمتخصص فى الهندسة أو التجارة يعمل فى الأعمال الكتابية ، والمدرس الذى تخصص فى مادة يدرس غيرها . . وهكذا دواليك إلى ماشاء الله من أمثال هذه المفارقات . . وعلماؤنا الكبار ، وأدباؤنا الموهوبون ، وكتابنا الممتازون ، ورجال الفكر والإصلاح فينا . . كل أولئك لايجدون الميدان الذى يعملون فيه فى خدمة الدولة وإدارة شئونها . . . بل إن كثيراً من الشخصيات المصرية الكبيرة تفر من الحياة فى مصر ، لما تلقى هنا من حرب وخصومة ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك مثلا الأديب المصرى الكبير ، والشاعر الموهوب الممتاز ، وعميد المدرسة الحديثة فى الشعر العربى بعد مطران ، وهو الدكتور أحمد زكى أبو شادى الذى يقيم الآن فى نيويورك ، حيث هاجر اليها منذ خمس سنوات فراراً من هذه الأرض الطيبة التى وقفت حياتها على قتل المواهب والنبوغ فيها .

والدكتور أبو شادى مع ذلك لم ينس وطنه فى أرض الغربة ، فهو إذا تحدث من صوت أمريكا لا يتحدث إلا عن مصر وعلمائها وأدبائها وكتابها وتاريخها القـــديم والحديث . . وإذا حاضر فإنما يحاضر عن مصر وما أسدته للانسانية من خدمات ، وإذا كتب إلى الصحف والمجلات الأدبية فى العالم الغربى وفى أمريكا ، فإنما يكتب فى شئون مصر ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ؛ وإذا ألف فكتبه كلها إنما هى وقف على ذكرياته عن مصر ومجـــدها وتراثها الفكرى والأدبى والعلمى . . . . ومع ذلك كله فان مصر لم تذكره بكلمة شكر أو تقدير ، ولم تفكر فى أن ترد الدين الثقيل لصاحبه الذى كان خير سفير لمصر فى أمريكا .

رائد الشعر المصرى المعاصر

الدكتور أحمد زكى أبو شادى الشخصية اللامعة فى الأدب المصرى الحديث، وعميد الشعر المصرى المعاصر ، وشيخ الشعراء المثاليين ، الذين اضافوا إلى نغمات الشعر العربى ألحانا جديدة قوية مملوءة بشتى النزعات الفكرية والانسانية ، ومختلف التأملات الصوفية ، والأفكار الحرة الجريئة ، وقرين طه حسين والعقاد وأحمد أمين وتوفيق الحكيم ، وسواهم من أعلام نهضتنا الفكرية والأدبية . .

هذا الرجل العبقرى الحر ، والإنسان الكامل . . هو الآن بعيد عن وطنه مهاجر فى بلاد بعيدة ، يقيم فى نيويورك إقامة المنفى المشرد ، الذى نسيه وطنه ، وجحدت مواهبه بلاده ، وعاش فى مصر غريبا عن الناس ، بينهم وبينه عزلة فكرية شاسعة ، لا يألفهم ولا يألفونه ، يقدرون الخمول ، ويتناسون الجد والكفاح والشرف والعبقرية فى شخصه . هذا الشاعر الغنائى العظيم ، اضطر اضطرارا شديدا إلى أن يفارق وطنه ، لأن الحياة فيه لم تكن تطاق ؛ فاستقال من وظيفته فى كلية الطب بجامعة الاسكندرية ، وعقد أمتعته ، وسافر إلى نيويورك ، يطلب الحرية والتقدير والتشجيع والمثالية التى فقدها فى وطنه . . أبو شادى صاحب الإنتاج الأدبى الرفيع ، وصاحب المجلات الأدبية العالية ، التى أحدثت ثورة فى تاريخ الأدب المعاصر ، والتى منها « أبوللو » ، ومخرج عشرات الدواوين الشعرية التى يكفى ديوان واحد منها لمنح صاحبه الخلود الأدبى . . هذا الرجل الجليل يقضى حياته

مغتربا عن مصر . وإن كان يكرس كل جهده ووقته لخدمة وطنه وإذاعة مفاخر بلاده : بكتبه التي يؤلفها ، وبدواوينه التي ينشرها ، والتي كان من آخرها ديوانه الخالد الانسانى النزعات : « من السماء » ، وبمحاضراته فى الجمعيات الثقافية وفى صوت أمريكا ، وبمقالاته فى الصحف والمجلات العربية والأمريكية هناك . كما أنه أنشأ مكتبا أدبيا مصريا فى نيويورك للتنويه بآثار الأدب المصرى الحديث والقديم على السواء .

فهل عجزت مصر كلها حكومة وشعبا عن أن تقول لهذا الشاعر المصرى العظيم: يجب أن تعود من الآن إلى بلادك لترد إليك بعض ما أسديته إليها فى الداخل والخارج ، وفى ميدان الفكر والأدب والشعر ، من جليل الخدمات .

قصائد ثلاث

قرأت هذه القصائد الثلاث التي أنشدها الاساتذة الغزالى وطاهر والعوضى فى مهرجان أدباء العروبة بالفيوم فوجدت فيها من قبس الفن ، وروح الشاعرية واختلاف المواهب الفنية فى الشعر ، ومن طريقة كل شاعر فى التصوير ، وأسلوبه فى الأداء ، مايستحق النقد والدراسة .

شعراؤنا الثلاثة متشابهون فى الثقافة ، متقاربون فى النزعات ، ربطتهم صلات الصداقة والادب والدراسة فى مدرسة واحدة ، والحياة فى ميدان واحد ، أو كالواحد ، بروابط قوية متينة ، ولكنهم مع ذلك يختلفون فى نزعاتهم الفنية اختلافاً كبيراً .

فالغزالى صاحب فن فى شعره ، وطاهر شاعر يعلن بشعره الثورة على الحياة ، والعوضى شاعر صناع يحفل شعره بالصنعة الهادئة الجميلة ، وهذه النزعات الفنية المتفاوتة تكاد تلمسها فى هذه القصائد الثلاث كما تقرؤها فى ملامح وجوههم وألوان حياتهم .

طوى « الغزالى » الصحارى فى سفره لرياض الفيوم الساحرة بعد ما هزه

الشوق لزيارتها ، وصور ذلك كله فى مطلع قصيدته :

من لسار إليك يطوى الصحارى هزه الشوق أن يزور فزارا

ثم يصور عواطفه وإجهاده وقلقه وسهده قبل سفره وتطلعة إلى الفيوم لتزيل عنه أثر كل هذا العناء فى تصوير جميل أخاذ فاتن :

عابرا كالطيوف ولهان كالأنسام هيمان كالأمانى الحيارى
مجهدا عل فى ظلالك مأوى قلقا عل فى رباك قرارا

وبم كان هذا الأجهاد والقلق والشقاء ؟ لقد فارق الشاعر محبوبه و «رفيق صباه » فعاش عيشة اليائس الشقى المحروم من أجمل ما فى الحياة :

يا جنان الفيوم نازح أيك بان عن عشه إليك وطارا
قد خلا العش من رفيق صباه فتى تألف القطاة الهزارا
نسلت ريشه الليالى طوالا أترى تصبح الليالى قصارا ؟

ويستمر الشاعر يصور آلامه وآماله وعواطفه فى حبه ، متمنيا أن يكون له فى رياض الفيوم سلوى ، شاكيا إلى عذارى الرياض مايلقاه من أترابهن العذارى

أتراه هنا سيمسى قريرا فى رياض الفيوم طابت جوارا
ياعذارى الرياض من كل شاد أنا أشكو إلى العذارى العذارى
أنا أشدو لها جراحى شعرا فعساها تضمد الأشعارا

ثم تذكره بحيرة قارون فى دجى الليل بمحبوبه ، فيشدو ويصدح مؤكدا وفاءه لعهد الأحباب :

يا أحبائى والديار تناءت كيف أنسى أحبتى والديارا
لست أنسى ملاعب والضفاف الخضر تجرى من تحتهن نضارا
لست أنسى بها مواثيق عشنا نتحدى بصدقها الأقدارا
لست أنسى ولا إخالك تنسين فحتى متى نطيق انتظارا

أما « طاهر » فقد شاهد قافلة الشعر تسير إلى الفيوم وفيها الأدباء والشعراء والوزير الضخم فعنى بتصوير هذا الموكب وجماله أكثر من أى شىء ، إنه لموكب رائع للبيان كما يقول :

موكب للبيان فيه اللواء يفزع الدهر وخده والحداء

ضارب في صحرائها يسبق الركب ... جلال من هديه ورواء
مثلما يسبق الشعاع إذا ما ... أعلن الصبح للوجود ذكاء

والشاعر لاينسى نفسه في هذا الموكب ، وكيف ينسى وهو الذى « فى محرابه يعبد الفن وتستهوى ضوءه الأضواء » ؟

لو تحس البيداء من سار فيها ... لتغنت من شجوها البيداء
شاعر في محرابه يعبد الفن ... وتستهوى ضوءه الأضواء
ذو بيان لو عاقرته الندامى ... لتناهت عن شربها الندماء
وهتوف يكاد يشرق فى ألحـــانه الخير ... والمنى والرجاء

ثم يعلى شأن الفن فى الحياة ويثور على العلم الذى أصبح المعول الهدام فى صرح الحضارة :

ومن الشعر ما يعلمك الحق ... إذا موه الوجود الرياء
ربما استغنت الحياة عن العلم ... على رغم ما أتى العلمـــاء
وعلى الفن وحده عاش أجدا ... دك دهرا وهم به سعـــداء

ثم يعود إلى قافلة الشعر وموكب الشعراء ومن فيه من « الأبدال والأدباء » و « الوزير الضخم » ، حتى يحط رحاله فى رياض الفيوم :

وإذا نحن فى رياض من الشعر ... لهـا رونق وفيها صفـاء

ثم يشيد برحم الفن وصلات الأدب التى جمعت بين أدباء الجامعة وبين أدباء الفيوم :

صلة وثق البيان عراها ... ونماها فـكلنا أقرباء
جمع الشعر بيننا فى صعيد ... ومن الشعر منسب وإخاء

أما « العوضى » فقد وصف ذكرياته فى الليالى البعيدة مع أحبابه ، وأثرهذه الذكريات فى قلبه ، ثم وصف روضات الفيوم وجمالها و « الاخوان الكرام » الذين استقبلوه هو وصحبه فيها ، وصلات الأدب والعروبة التى تجمع بين الأدباء والشعراء ، يقول :

حدا الركب حاديه فأين مكانيا ... أبين من الأشواق ما كان خافيا
على شفتى من خمرة الحب نشوة ... تلهب ترنيمى بها وغنائيا

لنا ذكريات فى الليالى بعيدة ألا من يعيد اليوم تلك اللياليا

ثم يستمر فى شدوه الهادىء وتصويره المصنوع ، فيصف الفيوم وفتنتها :

سقى الله فى الفيوم روضات فتنة ونضر فيها أربعا ومغانيا

فراديس منضور بها الطل والجنى تألق أنوارا وتسحر شاديا

وإخوانه الكرام فيها الذين سقوه صافى الود :

فجئنا الأخوان كرام وصحبة سقونا من الود المطهر صافيا

ويشيد بصلة العروبة التى جمعت بين الجميع ، وبذلك ينتهى من قصيدته .

هذه هى الأغراض العامة لكل شاعر فى قصيدته ، وهى تجمع بين العواطف الوجدانية والوصف الفنى ، وكنا نود أن تكون قصائد هؤلاء الشعراء أوسع نطاقا من هذا الأفق المحدود الضيق ، ماضرهم لو كانت قصائدهم فى القرية والحياة فيها أو فى النيل وأثره فى وحدة الوادى ، أو فى العلم وآثاره على الحضارة فى عصر الذرة ، أو فى شتى الأغراض القومية أو الانسانية العليا ! ولكنهم آثروا تلك السبيل الفنية وحدها فلم يشعروا إلافيها وفيما يتصل بها من العواطف الوجدانية ، وإن كان « طاهر » قد خرج قليلا عن هذا المجال فأشاد بالفن وأعلن الثورة على العلم والعلماء ، وهو رأى لا يقره عليه إلا نفسه :

إن من أطلقوا العقول علينا لست أدرى: أأحسنوا أم أساءوا

ربما استغنت الحياة عن العلم على رغم ما أبى العلماء

أما من حيث الأسلوب : فالغزالى يشعر ويبالغ فى التصوير ، مما تجد أثر ذلك فى كثير من أبياته ، كما يقول عن نفسه :

عابرا كالطيوف ولهان كالأنـ ـسام هيمان كالأمانى الحيارى

وقوله يعبر عن نفسه أيضاً :

يعبر الليل فى خداع الأمانى وتمنى آصاله الأسحارا

وقوله :

لست أنسى بها مواثيق عشنا نتحدى بصدقها الأقدارا

وسوى ذلك من قصيدته التى تحتوى على بعض الـ « ميون » كما يقول النقاد ،

ولكنه على رغم ذلك يخطئ سبيل الفن أحيانا . فبيته :

يا عذارى الرياض من كل شاد أنا أشكو إلى العذارى العذارى

يقصد فيه العذارى حقاً ، فوصفهن بالسحر والفتنة ورقة العاطفة أولى من وصفهن بالشدو ، بل وصفهن بالشدو يكاد يكون لا معنى لتخصصهن به من بين سائر الأوصاف . ولو قال « من كل أحوى » ، مثلا لكان أولى ، و«تضميد الأشعار» في بيته :

أنا أشدو لها جراحى شعرا فعساها تضمد الأشعارا

لا معنى له ، فما ألفنا في القول بأن الأشعار تمثلت جراحا ، بل هي استعارة نافرة عن سمع العربي وذوقه . والبيت :

والتي قد تخذتها بجدافى خصل أرسلت على نثارا

ليس له معنى فوق ما فيه من « تشعيث » قافيته ، وهذه الهنات لا تغض من القصيدة ومكانتها الادبية .

أما « طاهر » فمستوى الشاعرية في أسلوبه ، ولكنه في ثورته الفنية التي يستمدها من روحه الثائرة ، يبعد أحيانا عن الاجادة ، كما تراه في قوله :

الطريق الطريق : قافلة الشعر وركب الوزير والوزراء

وفي قوله يتحدث عن حلمهم برياض الفيوم :

طرق الشعر بابها ؛ فاذا شعر يقول : ادخلوا وطاب الثواء

وذلك سبيله في فنه ، يثور حتى على سبل الفن الواضحة المألوفة .

و « العوضى » أظهر استواء في شاعريته لان أسلوبه أسلوب مصنوع تأتى الشاعر في صوغه كما أراد ، وهو فيه هادىء واضح ، من حيث كان « طاهر » مفكرا ثائرا ، والغزالى فنانا شاعرا :

وفي قصيدة «طاهر» روح الحارث ومعلقته :

آذنتنـــا ببينها أسمـــاء رب ثاو يمل منه الثواء

بل هو يستعير بعض أبياتها :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

كما يستعير بعض ألفاظها وقوافيها ، ولكنه مع ذلك ذو شخصية قوية مستقلة في قصيدته

والغزالى يشترك فى بعض معانيه مع بعض الشعراء ، فبيته :

نسلت ريشه الليالى طوالا   أترى تصبح الليالى قصارا ؟

شبيه بقول ابن أبى ربيعة فى المعنى والوزن والقافية من قصيدة طويلة :

والليالى إذا نأيت طوال   وأراها إذا دنوت قصارا

ولكن قوله « نسلت ريشة الليالى » زيادة ليس لها نظير فى بيت عمر :

أما العوضى فتكاد قصيدته تشبه قصيدة جرير — فى الفن والروح :

ألا أيها الوادى الذى ضم سيله   إلينا نوى ظمياء حييت واديا

إذا ما أراد الحى أن يتفرقوا   وحنت جمال الحى حنت جماليا

وإن كانت تختلف عنها فى كثير من الاوصاف .

من السماء[1]

النزعات الانسانية العالية ، والمواهب الفنية الشاعرة ، والشاعرية القوية الاصيلة ، والفكر الحر الثائر الجرىء ، والالحان الجميلة الساحرة ، والتجديد الحى فى مذاهب الشعر وفنه .

كل أولئك سمة ظاهرة أخاذة متكاملة ، جمعت فى هذا الديوان الجديد ، القليل النظير فى آثارنا الفنية خلال الربع الثانى من القرن العشرين ؛ الذى أصدره شاعرنا الدكتور أبو شادى فى نيويورك ، وسجل فيه آثاره وقصائده فى الفترة الحافلة من حياته المديدة ؛ وهى الفترة التى تبدأ من عام ١٩٤٢ حيث الشاعر مقيم فى وطنه مصر فى التاسعة والاربعين من عمره ، وتنتهى بنهاية عام ١٩٤٩ حيث هو مهاجر فى أمريكا مقيم فى نيويورك العاصمة الكبرى يسير فى عامه السابع والخمسين لاداء رسالته التى حملها وجاهد فى سبيلها جهاد القديسين والخالدين . والتى يستمد عناصرها من الفن والفكر والانسانية جمعاء وتتجمع لتبشر بحياة حرة فى عالم حر يغمره الفرح والتفاؤل والخير . وتمشى فيه السعادة والعدالة والمساواة بين الناس كافة ، لا تخص غنيا ، ولا تحرم فقيرا .

---

(١) ديوان جديد للدكتور أحمد زكى أبو شادى — صفحاته ١٦٠ صفحة من الحجم الكبير — الطبعة الأولى ديسمبر ١٩٤٩ — بمطبعة جريدة الهدى اليومية بنيويورك .

أبو شادي رائد من رواد التفكير الحر ، والتجديد في الشعر والأدب ، في عصرنا الراهن ، وهو في رأيي عميد المدرسة الشعرية الحديثة التي خلفت مدرسة شوقي وحافظ ومطران ، وشعراء طبقته : عبدالرحمن شكري ، والعقاد ، والمازني ، وإيليا أبو ماضي .

وفي شعر أبي شادي جمال ظاهر ، وبساطة واضحة ، وتتجمع في شعره مظاهر الكلاسيكية القوية ، والرومانتيكية العميقة ، والواقعية السائدة ، وهو في أسلوبه متحرر ، وفي تفكيره ثائر ، وفي نقده يخضع الأدب لأحدث المناهج النقدية . يجيد في وصف الجمال والنسيب والطبيعة وفي التأملات النفسية والنقد الاجتماعي ، إجادة تامة .

الجمال الواضح في طبع هذا الديوان وإخراجه ، أول مايلفت نظر القارىء ، فاذا قلبت بعد ذلك صفحات الديوان راعك الشاعر بأفق تفكيره الواسع وبصوفيته في ترانيمه العذبة الجميلة ، وإيمانه العميق بالانسانية ومبادئها ، وثورته الهائجة على الظلم والظلام في كل مكان ، وكفاحه في سبيل فنه ووطنه وفي سبيل الحياة والوجود ، وأخذت بهذا الوفاء النادر الذي انطبعت عليه نفسه وصيغت منه شخصيته ذات الحيوية العجيبة .

وكل ما في الديوان لأبي شادي : من خطرات وتأملات ، ومن صوفية وإنسانية ، ومن صور أخاذة للفن والحب والجمال ، ينم عن تجارب شعرية عميقة وإحساس فني متأصل ، وذوق شاعر موهوب ، وشخصية أدبية مستقلة لا أثر للتقليد فيها من أي جانب من جوانبها العديدة .. ومن ثم كان هذا الديوان بحق إلهام الشاعر ووحيه .

والتفاؤل والمرح والايمان الدفين ، وعبادة الجمال في شتى صوره . كلها خصائص تنبع من قلب الشاعر ، وتفيض على صوره الشعرية في ديوانه ، يقول محدثاً عن نفسه :

ترى ألم الأحرار سر وجودهم ... ومن ذلك الحر الذي ما تألما ؟
طغى كل يوم مأتم بعد مأتم ... ونفسي تأبى أن ترى الكون مأتما

وليس أصدق من قول الشاعر نفسه عن نفسه :

وما زلت تغزوني المآسي كأننا ... سحاب وتهواني شرابا ومطعماً

بلا كلفة تحيا على بر مهجتى فآثرت أن أفنى وأن أتبسما

وهو يتعجب لهذا التفاؤل الذى لا حد له ، والذى يلازمه بالرغم من هذه السن الكبيرة :

علام اعتناقى للتفاؤل حينما فؤادى ووجدانى به قد تهدما

ولكن ما طبع عليه الشاعر من قوة الاحتمال هو الذى أغراه بالتفاؤل ... فهو لم ييأس بعد من الأرض التى يحبها ويكافح فى سبيلها ، مما يصوره خطابه لها فى قصيدته « من السماء » :

قلت : يا أم لم أبدل هيامى أنت أمى وموئلى وغرامى

فاذا قرأت له قصيدته « الصعود » التى ختم بها الديوان ، والتى يقول منها :

أسفا أعود إلى السماء كما أتيت بنبع فنى
لم ألق فى دنيا الأنام سوى المهازل والتجنى
ووهبتهم أسنى الكنوز فكافأوها بالتدنى

فلا تثق بأن الشاعر قد فارق تفاؤله ، ويئس من الحياة فى الأرض ... فانه قد اتخذها أما له ، وهو أبر بها ، وأحنى عليها ، وإنما يأسف ويحزن لأن أهل الأرض يعوقون ركب الانسانية السائر ، لئلا تبلغ شاطىء السلام والحق والخير .

ومن تفاؤل الشاعر ينبع المرح فى كل جارحة من جوارحه مما يبدو فى تأملاته الحالمة ، حين يلق الطبيعة الرؤوم ، أو حين يستبد به الحب ، أو حين يتأمل سنا الحسن فى مظاهر الكون : فاذا ما سئمت نفسه بعث فيها البشر والفرح بكل وسيلة :

يعالجها بالهوى العبقرى ويرفع بالسحر أحمالها
ويخلقها من جديد مرارا ويبنى ويهدم أطلالها
ويسعدها ببنات الخيال يحققن فى زورة فالها

وربما كان مصدر ذلك قلبه الذى لا يزال طفلا رغم أعباء هذه السنين الطوال :

ما حيلتى فى قلبى الظمآن للنبع الحبيب
تجرى السنون ولم يزل طفلا تنزه عن مشيب

ويطول بنا الحديث لو وقفنا عند ألحان الشاعر فى نفسه ، التى صور فيها ملامح شخصيته ومشاعره بوضوح ودقة ، والتى سجل فيها غربة فكره فى وطنه

مما دفعه إلى الهجرة إلى أمريكا دفعاً شديداً ، وبما يذكره فى قصيدتين من قصائده :

أولاهما : قصيدته «وداع مصر» ، التى وجهها إلى الشاعر الكبير خليل مطران فى أبريل عام ١٩٤٦ قبيل سفره بأيام قلائل ، والتى يقول فيها :

تبا لدنيا تديم الحر مغتربا — فيها ، وأخرى تتاءت عن سرائره
وغربة الفكر فى دار يمجدها — أقسى على الحر من فقدان ناظره

وثانيتهما : قصيدته «استقبال أمريكا» :

أماناً أيها الوطن السعيد — لقد دفن الردى ومضى الوعيد
فأمسى مأتم لفراق أهلى — ويوم الحر فى نجواك عيد

وفى الديوان كذلك قصيدة رائعة طويلة ، رثى بها زوجته وعنوانها «رثاء زوجتى» :

ماذا تفيدك لوعتى وبكائى — هذا فناؤك مؤذن بفنائى

وهى وصف فريد لذكريات حياته وعيشه الماضى فى ظلال زوجته الحنون ووفاتها ، وتصوير لأحزانه وهمومه بفقدها ... وهى جديرة بأن توضع مع عيون المراثى فى الشعر العربى ، لصدق عاطفتها ، وقوة أسلوبها ، وجلال ذكرياتها وعمق تصويرها ... وقصيدة أبى شادى «قبلة ميلادى» فى تحية عيد ميلاده ، والتى مطلعها :

يا نشوة الحب القديم ، ولهفة الحب الجديد
جمعتكما فى قبلة سكرى غرامى وعهودى
أودعتها ما صانت الأحلام من عطر الخلود

ممتعة خصبة لطرافتها ، وجمال تصويرها .. وقصيدته «القلب الباكى» وهى باقة نظمها الشاعر فى عيد ميلاده فى أمريكا عام ١٩٤٨ ، تحتوى على ملكات شعرية عميقة ، ومطلعها :

لو يعلم الناس نجوى قلبى الباكى — وما أعانى بأشواقى وأشواكى

وفيها يقول أبو شادى :

يا مصر لولاك ما فارقت فى حرقى — أزكى الجنان ، ولو عوقبت ، لولاك
يا رب مقترب فى حكم مغترب — وضاحك كل ما فى قلبه باك

وله قصيدة فى ديوانه ، عنوانها « بسمة الأرض » مهداة إلى ابنته « هدى » وأخرى عنوانها «قلب والد» مهداة إلى ابنته صفية ... وهما فيض من حنان الأبوة

هذا هو حديث أبى شادى عن أسرته الصغيرة ، فاذا انتقلنا إلى حديثه عن أسرته الكبيرة مصر ، وجدناه جياش المحبة لوطنه ، قوى الايمان به : —

كل آياتى التى أبدعتهـــا   هى بعض من سنا مصر الفتاة

ولا غرابة فى ذلك فان حبه لوطنه من حبه لتراث أجداده : —

إذا انطوى خاطرى على وطنى   فذاك حبى تراث أجدادى

فهو دائم الحنو على مصر مهما حاربه بنوها :

أحنو عليها وإن جارت على أدبى   وعاقبتنى على برى وإنعامى

وقصيدته « الاسكندرية الفتانة » صورة من مفاخر مصر القديمة والحديثة ، وجمال الطبيعة فى هذا الثغر الجميل ... وقصائده فى تكريم بعض الزعماء وفى رثاء مطران وأحمد محرم وأمثالهما صور واضحة لتعلقه بوطنه ، وليس لمرثيته لمطران نظير فى الشعر المعاصر وأولها :

إلهة الشعر عاد الشاعر السامى   إلى عوالم لم تحصر بأجرام

ومنها: صحبته فى خيالاتى وفى مثلى   وفى حياتى ، وفى سعيى وإقدامى

وفى قصيدته « عيــد النيروز » التى نظمها فى أمريكا عام ١٩٤٧ يشير إلى القضية المصرية التى كانت معروضة على مجلس الأمن حينذاك ، ويدافع عنها .

ولأبى شادى آيات جيلة فى النقد الاجتماعى والدعوة إلى العدالة الاجتماعية كما فى قصيدته « فن الجحود » ، وقصائده : « دمعة وابتسامة » التى وجهها إلى الشاعر الكبير خليل مطران ، و « والخائن الجبــــار » و « الموتى المشردون » وسواها

ولا يخص الشاعر وطنه بحبه فحسب ، بل للبلاد العربية نصيب كبير من قلبه ممــا يتجلى فى تحيته لإرتيريا الجديدة ، وفى قصيدته « اللاجئون » ، وفى مرثيتـــه لحسنى الزعيم ، وقصيدته « ذكرى المهرجان اللبنانى الكبير » ، ورثاء نسيب عريضة الشاعر .

بل إنه ليشرك الانسانية كلها فى حبه فيبكى لآلامها ، ويحزن لما قاسته فى الحرب العالمية الثانية من أهوال ، كما نراه فى قصيدته « الفن الضائع » . وهو فى قصيدته

ومن السماء ، يرمز إلى قضية السلام الذى انهار فى الحياة كما انهار فى الأرض .. وهو قوى الثقة بمستقبل الحياة ، مما يبدو فى قصيدته « ثقتى بمآل الانسانية » ، يفرح لما تناله من نصر ، كما تصوره لنا قصيدته « نيويورك » الرائعة التى يقول فيها :

كفاح التنافس فى الخالدات تخذن الشوامخ عنوانها

والطبيعة فى قلب الشاعر وفى ديوانه تحتل مكانا كبيرا ، وعليها وقف قصائد كبيرة ممتعة خصبة ، كقصيدته « على صخرة سيدى بشر » التى يخاطب فيها البحر فيقول :

أصغى اليه ولا أمل كانما أصغى إلى لحن الخلود العامر
لغـــة الجمال طلاقة بل ثورة والفن يعبد فى الجمال الثائر

وقصائده : « الجدول المسحور » و « الأمواج » ؛ و « قطرات الندى » و « عيد النيروز » و « الصيف فى شاطىء استانلى » ! وسواها ظل لحبه للطبيعة وعبادته إياها .

وللهوى والجمال فى الديوان آيات حسان مثل قصيدته « حوريات الماء » و « معركة الحب » و « أنانية الجمال » ، و « قبلة غرام » ، و « حواء تتـبـدم » التى تحدث فيها عن قصة الحب البشرى الخالد ... وللشاعر فى الغزل معان رائعة مثل قوله .

يا للشفـــاه اللواتى نبضن بالحب شعرا
وقوله : ما سير الأجرام غير الـ حب فى جذب شديد
أو أبدع الإعجاز غير جماله الموحى البعيد
وقوله: رفت أنوثها فى كل جارحة ورف قلبى لها فى طى آماقى
لم تلفح الشمس هذا الجسم عابثة إلا استحال إلى خمر وجنات

وله فيه أساليب وصور ساحرة من البيان الأخاذ ، مثل :

ولى غادة ألهمتهـــا الحياة وقد أبدع الحب تمثالها
حييت أقدسها شاعرا يغنى بها ويغنى لها
وقوله :أناجيك فى دقات قلبى والها كأن فؤادى طائر رف فى القيد
وقوله : نروى ونحكى ونتسى ونحن فى العــالمين
حتى أذنت بلثم لنور ذاك الجبين

ولأبي شادى شخصية مستقلة في البيان ؛ تظهر في أساليبه ، مثل قوله يخاطب البحر :

وضممتني بأشعة فرحانة مثلى كأنك بالأشعة آسرى

وقوله :

بروحى من أحلام عمرى ساعة جلست وموج البحر مثلى في زهدى
على الشاطىء المسحور أنت صخوره وغنت به الأمواج للحجر الصلد

وقوله يحدث الأمواج :

هدهدى بالهدير أيتها الأمواج قلبا إلى حماك اطمأنا
واسكبي الراحة الحبيبة فيه ، أنت برء لمثل قلبي المعنى
كم رويت الغرام عن سالف الدهر وما زال ما تقصين فنا

وقوله في رثاء أسمهان :

أيندثر الفن ؟ يا للقدر ويجنى على الحسن حتى الحذر
ويغرق في اليم هذا الضياء وكم طاف بالكون حتى عثر

وقوله : في قصيدته الفلسفية العميقة « الألوهة والكون » :

أنا فان وفي المـدى غير فان وكياني هذا الوجود الرحيب

وبعد فهذه صور عامة ، ودراسات موجزة لديوان « من السماء » الذى صدره الدكتور أبو شادى بمقدمة رائعة في « التجربة الشعرية » ، وهى دراسة ونقد وتحليل وتوجيه .

حافظ وشوقى (١)

الأستاذ الصيرفي شاعر مجدد ، من المدرسة الحديثة في الشعر المصرى المعاصر . وديوانه : « الألحان الضائعة » و « الشروق » وألحانه الجميلة وتأملاته التى تنشر في الصحف والمجلات ، من الطراز الفنى العالى ، الذى ينم عن شاعرية موهوبة ونفس شاعرة ، وملكات مطبوعة . . ورمزيته في ترانيمه الموسيقية الآسرة

(١) تأليف الأستاذ حسن كامل الصيرفي — ٧٦ صفحة من الحجم الكبير الطبعة الثانية بالمقتطف عام ١٩٤٩

واضحة كل الوضوح ، كما يقول الناقد الحر مصطفى السحرتي في كتابه « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » .

ونشاط الصيرفي الأدبي نشاط مبكر جدا ، فمنذ الخمسة عشر عاما كان يشرف على تحرير بعض المجلات الأدبية ، ويكتب البحوث في الأدب والنقد ، وينظم القصائد الجميلة العالية .

وآخر ثمراته الأدبية كتابه « حافظ وشوقي » ، الذي يدل على عقلية مؤلفه الخصبة ، وملكاته القوية في النقد ، ومنهجه الواضح في الموازنة والتحليل ، والدراسة الأدبية الصحيحة

وصعوبة الكتابة عن شوقي وحافظ من حيث الموازنة المنهجية بينهما ، لا يجهلها أحد ، ولكن الصيرفي نهض بهذا العبء في قوة واستقامة غرض ودقة تحليل وإصابة هدف .

والشاعر لا يستطيع أن ينقد شعره إلا شاعر مثله يفهم منهج الشعر ومذاهبه وأدواته ، ويتذوق أسلوبه وعناصره ... سئل البحتري عن مسلم وأبي نواس أيهما أشعر ؟ فقال أبو نواس . فقيل له إن أبا العباس ثعلبا (الرواية اللغوي الأديب النحوي المتوفى ٢٩١ هـ) لا يوافقك على هذا ،فقال : ليس هذا من شأن ثعلب وذويه المتعاطين لعلم الشعر دون عمله

لذلك كان نقد الصيرفي الشاعر لشوقي وحافظ الشاعرين : وموازناته الأدبية بينهما ، من الدقة والإصابة بمكان بعيد ، مما تحس به حين يتحدث عن ديباجة الشاعرين وموسيقاهما ، أو حين يحلل شعرهما السياسي والتاريخي ، أو شعرهما في الطبيعة والمرأة ، وفي الرثاء ، وفي بعض المواقف التاريخية والوطنية : كحادثة دنشواي ووداع كرومر ، ووفاة مصطفى كامل ، وإعلان الدستور العثماني وخلع عبد الحميد وحريق ميت غمر ، وزلزال مسينا الذي صوره حافظ وزلزال طوكيو الذي صوره شوقي ، ومحاولة اغتيال سعد .

وحين يعرض الصيرفي الناقد لفن الشاعرين نلاحظ قوة وروعة لا مثيل لهما ، رغم الإيجاز الشديد في حديثه عن ذلك .

وهذه الموازنات بين الشاعرين تسير وفق أحدث المناهج الأدبية في النقد ، فهي ليست نمطا من الموازنات القديمة ، التي تنظر إلى الألفاظ والقواعد ، وتحليل بيت ، وتعداد محاسن وعيوب محدودة ، وإنما هي موازنات تنظر إلى البواعث

النفسية التى أثرت فى فن كل من الشاعرين وإنتاجهما .

إن هذا الكتاب القيم لجدير بأن يضفى على شخصية الصيرفى الشاعر شخصية الناقد الحر الطليق .

رياح وشمـــوع[1]

صاحب هذا الديوان شاعر شاب من شعراء المدرسة الحديثة ، مؤمن بالتجديد فى الشعر العربى إيمانه بالمذهب الرمزى الذى « يجد تجاوبا فى نفوس الشعراء المعاصرين » وبقيمة الرمز « الذى تستفيق على وقعه الذكريات الغافية ، والمشاعر الغامضة ، القابعة فى أعماقنا » ، وبالألفاظ الرمزية الموحية « التى تلقى ظلالها على نفس القارىء ، وتعتمد على القوة الايحائية للفظ ، وتستغل القوى الكامنة وراءه استغلالا واسعاً .

وهذا الديوان مجموعة من القصائد الشعرية الممتعة ؛ التى نظم الشاعر أغلبها إبان دراسته الجامعية ، وسجل فيها بعض « انطباعات الحياة على نفسه » كما يقول

والتجربة الشعرية الصادقة قوية فى أغلب ما نظم الشاعر ، وطابع الرمزية واضح سائد فى شعره وأناشيده ، وكذلك وحدة القصيدة . وانسجامها . وكأن الشاعر يمثل نفسه ومشاعره فى قوله على لسان « فراشة » :

أنا حلم فجر لم يزل   فى الغيب منسدل الستور
ومضى يطل على الحيا   ة بوجهـــه الطلق المنير
وأتى إلى الروض النضر   بين أنفاس العطور
يحيـا بقلب فراشة   نشوى منعمة الشعور

وقصائده : « ربيعى » و « القافلة » ، و « ذكرى » ، و « وداع » و « نبع وقطرات » و « حنين إلى الشاطىء » ، و « السؤال » ... تبلغ فى رمزيتها وإمتاعها وخصب تصويرها الشعورى منزلة عالية : اقرأ قوله من قصيدته : « السؤال الخالد » :

---

(١) ديوان جديد — الأستاذ كمال نشأت المدرس بالنيل الثانوية بالقاهرة — ٦٤ صفحة من القطع المتوسط — طبع القاهرة ١٩٥١

إنى سألت مفـــازة الزمن المخلد . من أنا ؟
من أين جئت وما المصير ، أللخلود أم الفنا ؟
ومن الذى ألقى بروحى فى متاهات الضنـــا ؟

أو قوله من قصيدته « رياح وشموع » :

إن قسا الليل ظلمة ورياحا فالصباح العطوف فى أحشائى
والسكون العميق بين ذراعينا ودفء الدماء فى الأعضاء

أطفئى خافق الشموع وخليـ ـنا ظلاما إلى مجىء الضياء

أو قوله :

والسكون العميق يهمس عطرا فى رحاب الطبيعة السمحاء
أبيض : كالثلوج ، كالأمل العذ ب ، كحلم فى مهجة العـــذراء

وقوله : سجدت أسبح فيك الجمـال ودمعى يصلى على وجنتى
أيا معبداً لم يزل طهره يخط الضيـــاء على صفحتى

فستجد رحابة مقبولةوعمقاً فى التصوير والشعور النفسى

والشاعر مؤمن بالحياة ، متفائل فيها ، إلى حد كبير ... يقول :

سألت وما تدرى خفى مشاعرى ماذا تحس من الربيع الباكـر
فأجبت : فى قلبى ربيع خالد لا بضع أعشاب وبضع مزاهر
أنا فى الخريف أرى الربيع معطرا غردا فيلهم بالحنان مزاهرى

ويكرر ذلك فيقول :

عاد الربيع ومهجتى فيهـــا ربيع ناضر
شعر وأحلام وأنغا م وشـــوق زاخر

ولكننا لا ننسى أن نذكر ضعف المادة اللغوية عند الشاعر ، فبعض الألفاظ فى شعره لا تقبلها اللغة مثل : « البسيم » , و « تخطر » ، و « سأمان » ، « غنوة » ، وغيرها ، مما لا يتسع وقت القارىء لذكر شواهدها من الديوان ، وبعض الأساليب تخلو من قوة الشاعرية وجمال الاداء ، وبعض الاوزان ثورة على الاوزان العربية القديمة ، كما فى قصيدته « إلى البحر » :

فى هـــدأة الاظلام أحيا مع الامواج

وكما فى قصيدته : « مارسيان» :

الجوى والامان « غنوة » فى الجنان

ومع ذلك فهذه الوجدانات الطيبة من الشاعرية العميقة المتأصلة بشائر توحى بمستقبل حافل فى القريض . . . ودعاة التجديد قلمـــا تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم كما يقول القدماء من النقاد .

الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث(١)

السحرتى الاديب الشاعر الكاتب المجدد ، هو بآثاره الادبية والفنية شخصية جديدة فى الادب الحديث ، وحسبك هذه الحيوية والنشاط والقوة والجدة والطرافة .. ومكانته الادبية بذلك كله مكانة ملحوظة فى حياة الادب ، والشعر المعاصرين ..

ولكن السحرتى الناقد الحصيف المتذوق ، الدارس للشعر ومذاهبه وأصوله وللاتجاهات الحديثة فى النقد والمناهج العلمية فيه ، والملم بشتى التيارات الادبية والنقدية فى الاداب الحـــديثة ، شخصية أخرى لا تشابهها شخصية فى تاريخنا الادبى الراهن .

وإذا كان « لا يستطيع نقد أعمال الشعراء إلا الممتازون ، المتزنون ، المجردون عن الاهواء ، الدارسون دراسة عميقة ، المطلعون على أحدث أصول النقد ، ومذاهبه — ولا يكفى الذكاء وحده للنقد ، ولا رهافة الحس وحدها ، ولا البراءة من الهوى ، بل لا بد مع هذه السمات من الوقوف على مقاييس النقـــد الفنية والعلمية » ، كما يقول فى مقدمة كتابه(٢) ، وكان النقد الادبى كما يقول أيضاً(٣) « من أشق الامور وأعسرها ، لانه يتطلب ثقافة واسعة ، وموهبة فنية عالية وتنبهاً وجدانيا مرهفا ، وروحا سمحا متجردا من آثار الميل والهوى » — فان السحرتى الناقد قد جمع بحق هذه المواهب كلها فى كتابه ، ونهض بالعبء كله فى دراسته للشعر المعاصر ومذاهبه ، وفى نقده وتحليله إياه .

وخطر هـذا البحث مع ذلك ناشىء من أنه لم يسبق بدراسة أخرى مماثلة

---

(١) تأليف الاستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى — ٢٦٦ صفحة من الحجم الكبير — طبع المقتطف عام ١٩٤٨ .

(٢) ص ٤ من الكتاب . (٣) ص ٥ من الكتاب .

له فهو عمل جديد فى الشعر العربى الراهن . وناشىء أيضاً من صعوبة الاطلاع على دواوين الشعراء المعاصرين الكثيرة ، وعلى ما كتب حولها من بحوث ، ودراسات فى الصحف والمجلات على اختلافها . وعمل السحرتى إنما يقوم على الاستقصاء والدراسة العميقة والالمام الدقيق . ومن ثم كان خطر كتابته ودراسته فى هذا الكتاب .

ومنهج المؤلف ليس هو المنهج القديم فى النقد الذى يتوخى نقد بيت والخروج منه إلى بيت آخر ، وهكذا دواليك . ولكنه يسير وفق أحدث المناهج النقدية فى الأدب ومن ثم ازداد خطر الكتاب وأثره . درس السحرتى فى كتابه مذاهب النقد ، سواء منها المذهب الفنى ، أو الواقعى ، أو المذهب الفقهى ، دراسة تحليل وشرح .

ثم درس مقاييس النقد الأدبى ، فبحث التجربة الشعرية وآثارها فى الشعر المعاصر وآراء النقاد فيها . وبحث كذلك الصياغة الشعرية وعناصرها ، من مواءمة وخيال وموسيقى ووحدة وتوازن وتناسب وتخير فنى للالفاظ وشخصية الشاعر نفسه ... وتناول الألفاظ الشعرية ببحث مستقل . ودرس الوحـــدة الشعرية فى القصيدة شارحا وناقداً ، ومبيناً لعناصرها ، ولاتجاه بعض شعراء الغرب للتحلل منها

ودرس الانفعالات الشعرية والفكر فى الشعر والموسيقى الشعرية ، ويتحدث إثر ذلك عن الشعر الرمزى ، والسريالية الشعرية ، ومظاهرهما فى الشعر العربى المعاصر ...

ويفيض فى الكلام على نقد الشعر فى مصر ، وما ألف فيه ، دارسا ومحللا وناقداً ، فى إفاضة ودقة تحليل ، وعمق دراسة ، وسعة اطلاع . ويتحدث بعد ذلك عن المذاهب الأدبية والنقدية المختلفة ، من كلاسيكية وابتداعية وواقعية وأثرها فى الشعر المعاصر ، مصوراً شتى الاتجاهات الشعرية الحديثة . إلى غير ذلك من طريف الدراسات والبحوث والنقد والموازنة والتحليل والتوجيه للشعر المعاصر مما يعد تحفة أدبية نادرة فى تراثنا الحديث .

ديوان بشار بن برد[1]

بشار بن برد زعيم الشعراء المحدثين المتوفى عام ١٦٧ هـ فى غنى عن التعريف ومنزلته فى الشعر العربى والتجديد فيه لا تحتاج إلى بيان . ولكن شعر بشار قد فقـد خلال الأجيال الطويلة التى أتت على تراثنا الأدبى ، ولقى منها الحيف والاهمال والنسيان .

ومن حسن حظ العربية وأدبها أن بقيت نسخة خطية فريدة من ديوان بشار فى مائتين وخمس وسبعين ورقة (أو ٥٥٠ صفحة) بخط مصرى قديم ربما كان يرجع إلى أواخر القرن السادس الهجرى ، وتحتوى على ستة آلاف وستمائة وثمانية وعشرين بيتاً من شعر بشار . وقد وقعت هذه النسخة الخطية الوحيدة الفريدة فى مكتبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة السيد محمد الطاهر بن عاشور ، شيخ جامع الزيتونة الأعظم فى تونس ، فاعتز بها وعنى بحفظها وشرحها ومراجعتها عناية فائقة .

وقد اتفق الأستاذ السيد عاشور مع لجنة التأليف والترجمة على نشر الديوان وأودع جميع أصوله لديها ، فعهدت إلى عالمين جليلين من فحول أدبائنا بمراجعته والوقوف على طبعه والتعليق عليه ، وهما الأستاذان : محمد شوقى أمين المحرر فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، ومحمد رفعت فتح الله الأستاذ فى كلية اللغة ؛ فقاما بالمهمة الثقيلة خير قيام ، ونشر الديوان نشرا علميا سليما على أجمل الوجوه وأدقها وأصحها ... وعملهما فى الديوان هو كما يقولان فى صدر الجزء الأول : معارضة النسخة الخطية للديوان على النسخة التى أعدها شارح الديوان للطبع ومراجعة الشروح وتحريرها ، والتعليق على ما كتبه الشارح فى المواطن التى رأيا أنها تستوجب التعليق ، ومعالجة ما فى الشعر من تحريف سكت الشارح عنه أو اتجه به وجهة لاح لهما سواها ، وتبيين ما غمض من لفظ أو أشكل من معنى

---

(١) صفحاته ٣٨٦ صفحة من الحجم الكبير — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٥٠ — نشر وشرح الاستاذ محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة الاعظم فى تونس — علق عليه ووقف على طبعه الاستاذان : محمد شوقى أمين ، ومحمد رفعت فتح الله .

وهو عمل علمي ضخم جاء متمماً ومكملا ومصححاً للمجهود الذي بذله السيد ابن عاشور .

وقد ظهر من الديوان الجزء الأول الذي نقدمه اليوم لقراء العربية وأدبائها أثراً فريداً لجهود علمي جليل، فنهنىء الأستاذين على عملهما الموفق المحمود ، الذي يعد بحق أجل خدمة علمية لأضخم ديوان من الشعر ، لشاعر من أعظم الشعراء في الأدب العربي .

المنهل في تاريخ الأدب العربي[1]

للأستاذ روكسي العزيزي كتابان مطبوعان : هما أبناء الغساسنة ، و « سدنة التراث القومي ، ونحو العشرين مؤلفاً مخطوطاً . وهو مجهود علمي جليل

وكتاب اليوم هو « المنهل » في الأدب العربي وتاريخه ، يتحدث المؤلف في الجزء الأول منه عن الأدب وتاريخه وشواهد له في شتى العصور الأدبية ، بإيجاز ووضوح . ويتحدث في الجزء الثاني بتفصيل وتحليل واسع دقيق عميق عن الأدب وتاريخه في شتى العصور . ويمتاز الكتاب بالدقة والأمانة العلمية وصواب النقد ونزاهة الدراسة ، كما يمتاز بدراساته الجديدة عن جبران والزهاوي والرصافي والاخطل الصغير وايليا أبي ماضي وطه حسين وتيمور وشوقي وحافظ ومي والكرملي وغيرهم من أعلام الأدباء والشعراء والكتاب والعلماء والمفكرين المحدثين والمعاصرين مما لانجده في كتاب آخر .. ولاشك أن لهذا الكتاب قيمة علمية وأدبية واسعة ، وانه أثر علمي خصب ليس له نظير في ما ألف عن الأدب العربي وتاريخه حتى اليوم وهو جدير بتقدير القراء في شتى البلاد العربية لاهمية دراساته وسعة أفق مؤلفه وثقافته العالمية واتصاله بالهيآت الأدبية في الشرق والغرب وفي أمريكا الشمالية والجنوبية .

---

(١) تأليف العلامه روكسي بن زائد العزيزي أستاذ اللغة العربية وآدابها في كلية ترسانتة بعمان — جزءان — الأول في ٨٥ صفحة والثاني في ٣١٠ صفحة — مطبعة الآباء الفرنسيين بالقدس عام ١٩٥٠ .

والمؤلف يستعد من زمن طويل استعدادا مشكورا لإصدار الجزء الثالث من هذا الكتاب وسيحتوى على دراسات قيمة عن الأدب العربي المعاصر وأعلامه.

مسرحيــــة الأب[1]

أوجست ستراند برج ١٨٤٩ — ١٩١٢ كاتب سويدى مشهور ، فى طليعة كتاب المسرحية العالميين ، وكان إلى ذلك عالما غزير المعرفة فى شتى نواحى الثقافة وترك آثارا خالدة فى الأدب والقصة والرواية المسرحية وفى العلم والاجتماع ، والاقتصاد وعلم النبات وعلم طبقات الارض ، ويعد أول من كتب المسرحيات المعبرة ...

ومسرحيته هذه : « الأب » تدور حول قصة ضابط عالم ، ساوره الشك فى سلوك زوجته وفى نسبة ابنته اليه ، وترك هذا الشك آثاره فى نفسه ، مما أدى به إلى الانهيار العقلى والفكرى ... وهى مع ذلك نقــد قوى للحياة والمجتمع والناس فى عصر الكاتب وبيئته ، وتكشف عن كثير من خصائص النفس الانسانية ومشاعرها وتتخذ طابع الصراحة والجرأة والقوة ، والصدق فى سذاجة طاهرة .

وقد قام بترجمتها إلى العربية الاستاذ الكاتب الذائع الصيت ، « وديع فلسطين » ، ونقلها عن الانكليزية نقلا أمينا دقيقا ، لم يضع شيئا من سمات القصة وخصائصها وملامحها وروحها .

وكتب الاستاذ وديع فى صدر المسرحية تعريفا طيبا بالكاتب الروائى « أوجست ستراند برج » مؤلف المسرحية ، وبخصائص ألوان حياته ، وأثرها فى فكره .

وأنا لا أشك فى أن « أوجست ستراند برج » كتب هذه القصة عن نفسه وأن ما فيها إنما هو رموز لاخفاء ما يتصل منها بشخصه ، وأنها تمثل فترة من فترات حياته ونفسه وعواطفه ، وتفكيره تمثيلا صحيحا لتشابه ما بين المسرحية

---

(١) تأليف أوجست ستراند برج — ترجمة وديع فلسطين — ٨٥ صفحة من منشورات لجنة النشر للجامعيين بالقاهرة .

وحياة المؤلف ومشاعره وخصائص كتاباته .

ولا شك أن تعريب هذه المسرحية إلى اللغة العربية عمل جليل لانه تعريف واضح بالمؤلف وأدبه ، وفيه فوق ذلك ربط قوى بين أدب الغرب وأدبنا الحديث ، وكنوز الادب الغربى تعمل عملها فى أعماق مشاعرنا الفكرية والادبية والفنية ، وتصلنا بهذه الكنوز الثمينة من الافكار والمعانى والاخيلة والاساليب وتقوى من التجارب الانسانية فى نفوسنا . . . وتدفعنا إلى التجديد المستمر المثمر ... ولقد أسدى الاستاذ وديع بذلك إلى العربية وأدبها يدا لا تنسى .

حول قصيدة

نشر الأستاذ محمد هاشم مقالة بعنوان : « فى العراق الشقيق » . وفى آخر المقالة قصيدة للأستاذ ألقاها ترحيباً بالوفد السودانى عند زيارته لبغداد قال فيها :

واسألوا الدهر والقرون الخوالى فسيشهدون أننـــا إخوان

والبيت مكسور : وقال أيضا :

وتخطر فوق الأصيـــل نديا من نشر الربا وطيب المجانى

والبيت مكسور ، « وفوق الأصيل » تعبير لا يسوغه الذوق ، والبيت لا تجمعه مناسبة بين ماقبله وما بعده من الأبيات ، وقال :

فهنيئاً لـكم بمـا قـــد حبيتم ثقة الشعب وحى هذا الأوان

فقوله : « وحى هذا الأوان » تكلة للبيت لاغير دون نظر إلى المعنى أو الأسلوب أو المقام . ويقول فى تصوير عمل المستعمر بوحدة النيل وعجزه عن التفرقة بين مصر والسودان :

كان منها مكان ناطحة الصخر بقرن عضب ورأس هـدان

نعم فلم يصنع المستعمر شيئا وكان كناطحة الصخرة الصماء بقرنهـا ، فالشطر الأول قوى وسليم أما الشطر الثانى فلا أدرى مافائدته ، فالماشية مثلا تنطح بقرونها ورأسها ، ووصف القرن بعضب والرأس بهـــدان لايجدى شيئا ، وشتان بين البيت وقول الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وقوله بعد البيت — ببيت واحد — :

تعصف الحادثات من جانبيها   فى الصفا الصم من ذرى ثهلان

يدل على ضعف قوة هذه الوحدة أمام الحوادث ، وماكان أغناه عن ذلك .

فوضى الادب فى مصر

أثارت فوضى الأدب فى مصر الأستاذ الأديب أحمد عبد اللطيف بدر فأبى أن يغض طرفه على هذه الفوضى المتكررة فكتب وجادل على صفحات الصحف ثم أخرج كتابه هذا ـ فوضى الأدب فى مصر ـ دليلا على ثورته .

يبدأ المؤلف ـ بعد تمهيد لكتابه ـ بشرح الباعث الذى دفعه لإخراجه فذكر ماهية الأدب وأنه أمر مبهم يصعب على التحديد وإن لبس صوراً مختلفة من النظم والنثر . ويعرفه بعد ذلك : بأنه صورة النفس فى عالم الحس . ويوجب على الأديب أن يجعل وجدانه أداة لتفكيره حتى يصدر عنه مايقرب منه فيكون مثالا حيا لقلب حى ، ثم يعيب على أدباء الألفاظ أدبهم وينعى عليهم قصورهم ، ويناديهم بأن يخلوا الميدان لفرسانه حتى يدعموا ما انقض من بنيانه ، وينكر على الناشئين الجمود والتقليد والتشيع فى الأدب شيعا وأحزابا ، والتتلمذ على رجالاته حبا فى أن يحيى الأساتذة الميت من أدبهم بالنشر ، ويبعثوا الهامد من ألفاظهم بالذكر ، فكان لهم بتملقهم ماأرادوا حتى أصبحت الصحافة مطبوعة بطابع المحاباة والاهواء لابطابع التقدير والانصاف ؛ مما أدى إلى وأد روح الاطلاع فى نفوس الناشئين ، وغلق باب الابتكار فى وجه المتأدبين

ثم يطلب أن يكون للشعب أدب خاص يتذوقه وإنتاج ممتاز يفهمه ، كالقصة الصغيرة باللغة الدارجة ، والانشودة الشعبية الظريفة (الزجل) ، والاساليب السهلة القوية الاداء . حتى يكون عونا على تثقيف العامة ، وتلقينهم معانى الحياة ، وندد بالداعين إلى البلاغة والعلو بالاسلوب .

وهنا أناقش المؤلف ، فما ينبغى أن ينحط الادب عن مستوى العربية إلى مهبط العامية حتى يكون ملائما للجمهور معاونا على تثقيفه وتعليمه .

إن الادب يجب أن يكون أرستقراطيا مادامت هناك لغة عامية ، وعربيا مابقيت فى الوجود اللغة العربية .. وجدير بنا أن نرفع الشعب إلى مستوى الادب العالى ولا نخفض الادب إلى مستوى التعبير العامى ، فنعمل على ترقية الفكر بالتعليم وتهذيب الشعور بالدين ورفع الشعب إلى جو الادب السامى الخالد .

أنا لا أقول : اتركوا الشعب فى جو مظلم حتى يتسنى لنا أن نضيء أفقه بالتعليم والتربية ، وإنما أرى أن يقوده أدب عربي خالص بعيد عن العامية قصى عن الغرابة والوحشية ؛ حتى يصبح بمقدوره بعد قليل أن يرقى إلى الادب الخالد .

بعد ذلك يحدثنا المؤلف عمن اتخذوا الأدب تجارة لا للافادة ولكن للكسب ، ثم يصيح المؤلف صيحة قوية فيها كثير من الحق فيقول : الادب بائس ببؤسائه فتى يعتز بعزتهم وتتجلى عظمته فى عظمتهم ... ويذكر دعوة الداعين إلى التحرر من قيود اللفظ ، ويرى أن الأدب الحر هو ماحرر من قيود التقليد ، ووافق حدود الابتكار والاستقلال .

ويطلب وضع رقابة على المؤلفات لتقر مايتناوله القراء منها ، وتحرق مالا يستحق القراءة .

الشاعر الطموح

كتاب أصدرته دار المعارف للجارم .. وهو تصوير لحياة المتنبى فى بلاط سيف الدولة وكافور فى حلب ومصر وما أحاط به من دسائس ومنافسات ووشايات وحب وبغض وتقدير وحسد ، وذلك فى الفترة التى مابين عامى (٣٤١ — ٣٥٠ﻫ) . والكتاب أثر أدبى رائع بيد أن لى عليه بعض الملاحظات :

١ — يذكر المؤلف قصيدة المتنبى :

واحر قلباه ممن قلبـــه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

(ص ٤٦ وما بعـــدها) ويجعلها من القصائد التى نظمها المتنبى عام ٣٤١ ﻫ (راجع ص ٥ و ص ٥٦) .

والحق أن هذه القصيدة من أخريات القصائد التى نظمها أبو الطيب فى سيف الدولة الحمدانى قبل رحيله عن بلاطه عام ٣٤٦ﻫ ، ويؤكد ذلك القصيدة نفسها وما

فيها من إشارات إلى توتر العلاقات وانقطاعها بينه وبين سيف الدولة ، وهذه الحالة والمؤامرات التى كانت السبب فيها مما لم تنشأ فى بلاط سيف الدولة فى ذلك التاريخ الذى ذكره المؤلف .

٢ — ويجعل المؤلف قصيدة المتنبى :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا   وحسب الأمانى أن يكن أمانيا

أول قصيدة أنشأها المتنبى فى كافور وأنشده إياها . والحق أن أول قصيدة أنشدها أبو الطيب أمام كافور هى :

فراق ومن فارقت غير مذمم   وأم ومن يممت خـــير ميمم

وذلك مايتضح للناقد من دراسته لهذه القصيدة وإن خالف الديوان ذلك .

نشأة النحو

تقوم على دراسة العربية فى مصر معاهد ثلاثة : كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية وكلية الآداب بالجامعة المصرية ودار العلوم . .

وفى العهد الذى يجد فيه المستشرقون فى دراسة قواعد العربية وأحكامها ، وفى نشر كتبها ودعائرها ، والكتابة عن مدارسها القديمة والحديثة ، وعن رجالها وآثارهم فى جميع عصور العربية حتى الآن .

فى هذا العهد تعبث مصر وتلهو ، وينام الشرق ويغفل عن واجبه الخطير نحو العربية وقواعدها . فبحوثها كما هى شتات ، وكتبها كما هى مطوية أو محرفة ، وروح البحث العلمى عقيم ، فإن بحثت عن مؤلف تقربه عين العربية ويشرح به صدرها فلا تكاد تجد .

ولمنزلة النحو من الدين والعربية ، ومن التراث الاسلامى العظيم ، ومن لغة الشرق ولسانه ، ولتجديد النشاط العلمى فى مدارس النحو الحديثة ، ولأداء واجب كبير لعلماء العربية الراحلين وشيوخها السالفين الأمجاد ، وحرصا على خدمة اللغة وطلابها .. لهذا كله ألف الأستاذ الجليل محمد الطنطاوى الأستاذ فى كلية اللغة العربية رسالته : نشأة النحو ، فجاءت سفرا جليلا وأثرا خطيرا فى الناحية التاريخية لعلم قواعد العربية .

ومما يجعل لهذا السفر الحافل مكانة عظيمة بين كتب العربية ومؤلفاتها أنه الحلقة المفقودة لكتب طبقات النحاة التي ألف فيها العلماء من قرون ، وأنه أثر فريد في بابه ونوعه ، فلم يظهر على يد مدارس النحو الحديثة في مصر والشرق العربي كتاب قبله في النواحي التاريخية لمدارس العربية ورجالها ومؤلفاتها في القديم والحديث

كتب الأستاذ فصول كتابه بلغة جمعت بين بلاغة الأداء وجمال الأسلوب وجزالة التراكيب ، والنقـــد التحليلي التاريخي لأطوار علم العربية ومـذاهبه ومدارسه ورجالاته .

وقد قرأت كتاب الأستاذ ثم قرأته فكان له أثر جليل في نفسي ، أثار التقدير والاكبار لهذا النشاط العلمي الوثاب ، وذلك الاطلاع الواسع والالمام الفذ بمجاهل العربية ومفاوزها ، مما يعز أن ينال إلا لمثل المؤلف في جلده وجهاده ، وفي عقليته وثقافته .

والناحية العلمية للكتاب بارزة قوية ، ففيه فصول عظيمة الأهمية عن أسباب تدوين القواعد العربية ، وعن الرجل الذي ذهب بشرف وضعها وتدوينها وعن نشأة النحو وأطواره في مراحله المختلفة ، وعن حياة شيخ العربية الأول أبي الاسود الدؤلي ، وما أثير حوله ، وعن مدرسة النحو الاولى بالبصرة ، ورجالها ومدرسة الكوفة التي نشأت بعد ذلك ورجالها ، ويبين الاستاذ نزعات مذهبي النحو بالبصرة والكوفة ، والمناظرات التي قامت بين رجالها ، ويحلل أسباب الخلاف بين مدرسة البصرة والكوفة والبواعث التي دعت إلى نشوء كل مدرسة واستقلالها والعناصر التي بنيت عليها ، والاتجاهات التي اتجهت إليها ، والمسائل العلمية التي اختلفت فيها وآثار هذا الخلاف العلمي ويعقد الموازنات بينهما . ثم يتكلم عن مدارس النحو التي قامت ببغداد وفارس ومصر والشام والاندلس ، ومنهج كل مدرسة وعلمائها وآثارها ، كل هذا في أسلوب قوي دقيق وبحث علمي عميق .. والكتاب وهو يعرض علينا النحو من أول نشأته إلى العصر الحديث يمتاز عن كتب الطبقات القـديمة بسعة البحث ، وكثرة التفصيل ، ودراسة مدارس النحو القديمة دراسة مستفيضة ويمتاز عن كتب المستشرقين بنفوذ مؤلفه إلى أعماق العربية وأسرارها ووقوفه على أطوارها وروحها .

النحو بين جامعتين

أخرج أستاذ من أساتذة الجامعة المصرية كتابا فى النحو أسماه « إحياء النحو » فقامت حوله ضجة كبيرة من الثناء والاعجاب . ولقد فرحنا أشد الفرح بظهور إحياء النحو ، وكنا نؤمن بأن مجهود أستاذ من أساتذة الجامعة خلال عشر سنوات كفيل بأن يحقق آمالنا المنشودة فى إحياء النحو العربى والتجديد العلمى فى دراسته ، ثم أقبلنا على قراءته فاذا التراث العلمى الخالد الذى اشتركت فى توطيده ودعمه أجيال وقرون تصوره مدرسة النحو فى الجامعة فى صور تكاد تصرف الشباب عنه وتدفعه إلى نسيانه ؛ وظلت مدرسة النحو بالأزهر صامدة سامدة تنأى عن النشاط الفكرى ، ولكن سرعان ما رد الأمور إلى نصابها وصحح هذه النظرات إلى النحو العربى ودفع بهذا النحو فى طريق جديد من الدراسة العميقة والتجديد الصحيح أستاذ كبير فى الأزهر له ماضيه وله سابق بلائه فى خدمة الثقافة والعلم هو الأستاذ محمد عرفة ، الذى وقف جهوده على هذا السبيل وحمل نفسه أعباء تثقل كاهل الجبال الرواسى ، فأدى الأمانة العلمية الخطيرة لضميره وللأزهر وللوطن وللعلم باخراج كتابه «النحو والنحاة» يصحح به ماشوه فى النحو من نظريات ويكمل ما نقص منه من قواعد ويضع أساسا قويا صحيحا لدراسته وإحيائه والتجديد فيه .. وإن ذلك لصراع هائل بين مدرستين وحوار طريف بين جامعتين ، ومساجلة قوية بين فكرتين ، ولقد أذكرتنى هذه المساجلة العلمية الطريفة بتلك المساجلة الادبية الرائعة بين الفيلسوفين : أفلاطون وأرسطو ، إنها ليست مساجلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ولكنها دفاع فيلسوفين عن فكرتين متناقضتين .

رأى أفلاطون شعراء عصره يتغنون بجمال الطبيعة ويلهجون بذكرها ويصورونها بصور مطابقة للواقع أو هى أقل من الواقع دقة وتصويرا ، فنادى برأى جد خطير ، وهو أن الشعر فن غير جدير بمقام الذكاء البشرى الطموح . ثم جاء أرسطو بعده وقرر أن الشعر فن من الفنون الرفيعة ، وأن رسالته فى الحياة أعظم من أن تجحد وأخذ يبرهن على رأيه بشتى ما يستطيعه فيلسوف من حجة وإقناع .

لم يكن نقد أفلاطون للشعر أو هدمه له إلا وسيلة للطعن عليه بأنه لا يؤدى رسالته من تصوير لشتى نواحى الحياة الإنسانية وتوجيه لمختلف النشاط الفكرى

والبشرى ، ولم يكن رد أرسطو إلا توجيها صحيحا لرسالة الشعر ووصفا مفصلا للقواعد التى تجعل النحو يؤدى رسالته تمام الاداء .

إن نقد الجامعة للنحو لم يكن إلا وسيلة للطعن عليه بأنه لايؤدى رسالته فى الحياة ، وبأنه بصورته الحاضرة ينفر منه كثيرا من الشباب ، ويباعد بينه وبين رغبات الشباب وعقولهم .

ولا إخاله إلا حـــوار طريفا سيحدث أثره القوى الرائع فى النحو العربى ودراسته فى المستقبل القريب .

هندية[1]

الكاتبة الشاعرة جميلة العلايلى رئيسة مجمع الادب العربى بالقاهرة وصاحبة الانتاج الادبى العالى المتعدد الجوانب ، الذى تقرؤه فى « مرشد الفتاة » ، و « سعادة المرأة » ، و « النسمات » ، و « الطائر الحائر » ، و « المرأة الرحيمة » ، و « الاميرة » ، و « الراعية » و « أمانى » ، و « الحب يهدى » ، و « أدب الربيع » ، « وقضية فلسطين » ، و « أرواح تتآلف » ، و « إيمان الايمان » ؛ أو فى ديوان شعرها الجميل « صدى أحلامى » ، أو فى قصتها الممتعة الرائعة « هندية » .

هذه الكاتبة : تعـــد من شهيرات سيدات الشرق فى الادب العربى المعاصر ، وقراؤها الكثيرون فى كل مكان يجدون فى أسلوبها الطريف روح الجـــدة والجمال والمتعة النفسية العميقة .

وقصة اليوم « هندية » تصور من بعيد هذه المعانى القوية ، والاهداف العالية التى تؤمن بها صاحبتها الكاتبة كل الايمان . فهى قصة الصراع بين المادية والروحية ، قصة انتصار الروحية فى صورة من صور الانسانية العامة .

وبطلة « هندية » فتاة مصرية تؤمن كل الايمان بزعيم الهند - بل الانسانية - الروحى « غاندى » ، وبشاعر الهند الاكبر وفيلسوفها الروحى « تاغور » . ومن أجل ذلك

---

(١) تأليف الأستاذة جميلة العلايلى - صفحاتها ٨٨ صفحة من القطع المتوسط نشر مجمع الأدب العربى بالقاهرة عام ١٩٥١ .

دار محور القصة حول هـــذا الايمان العميق الذى ملك قلب الفتاة وعقلها ومشاعرها وإحساسها.

إن هذه القصة تعبير صادق عن أفكار حرة متصوفة تتجه إلى تهذيب العواطف والسمو بالمشاعر وبعث الايمان بالخير والطهر والسمو فى قلب كل شاب وشابة .

الدين[1]

الدكتور دراز خريج الأزهر وجامعات باريس من أنبه علمائنا وأوطدهم قدما فى البحوث العلمية ، وخاصة مايتصل منها بتاريخ الأديان .

وهذه الدراسة الجديدة تدور حول ماهية الدين ونشأته ووظيفته فى الحياة وهى إحدى ثمار هذه الدراسة الجامعية التى يقوم بها أستاذ جليل .

قسم الدكتور كتابه إلى أربعة بحوث ، فالبحث الأول فى تحديد معنى الدين والثانى فى علاقة الدين بأنواع الثقافة ، والثالث فى نزعة التدين ومدى أصالتها فى الفطرة ووظيفتها فى المجتمع ، والرابع فى نشأة العقيدة الإلهية .

وأهمية هذه البحوث أنها تسير على أحدث مناهج البحث العلمى ، وأنها تجمع شتى الآراء والنظريات القديمة والحديثة الشرقية والغربيـة وتعرضها فى أسلوب واضح قوى مركز يدل على شخصية المؤلف الفكرية ، فحين يتحدث عن الوضع التعليلى لنشأة العقيدة الإلهية مثلا يلم بالمذاهب الكونية أو الطبيعية ، ويذكر ماوجه إليها من اعتراضات ، ويجيب عليها ، ويشرح المذاهب الروحية المشهورة باسم الحيوية ، ويتكلم على المذاهب النفسية فى المسألة : كنظرية ساباتيه ونظرية برجسون ، ونظرية ديكارت ؛ ثم يبين المذهب الأخلاقى وينقده ، ويناقش المذهب الاجتماعى ، ويعرض المذهب التعليمى أو مذهب الوحى .. ويبين رأيه فى كل هذه المذاهب ويناقشها ويحاول التوفيق بينها .

والدكتور فى بحثه العلمى الموفق مؤمن قوى العقيدة ، جليل الدفاع عن الدين ، فى غمار مادية القرن العشرين الالحادية .

---

(١) تأليف محمد عبد الله دراز — صفحاته ١٧٦ صفحة — طبع القاهرة ١٩٥٢ .

صمت الشـــاعر

وهذه قصيدة خصبة ممتعة للشاعر نيازى مرزوق ، يقول فى مقدمتها : بينما يتجول الشاعر فى إحدى الخمائل ، ذات أصيل إذ لمح من كثب عصفورا منطويا على نفسه ، بينما انطلقت بقية العصافير فى سماء الخميلة . مزغردة ، مرفرفة ، كأنها تحتفل لاستقبال الربيع ... أخذ منظر العصفور من نفس الشاعر ... فناجاه بهـــذه الأبيات ...

يا ليت شعرى. ما وراء فتور طرفك والجفون ؟
هل غاب إلفك عن لقاك . فغبت فى هجس الظنون ؟
أم عادك الشوق القديم ... فرحت تذكر مامضى ؟
وتعيد بالذكرى زمان الأنس من حيث انقضى !
أم راعك الكون الكبير ؟ وماحواه من العبر ؟
فبعثت نظرة فيلسوف يجتلى سر القدر ؟
أم ضقت « يا عصفور » ذرعا بالحياة الخادعة ؟
فقنعت منها بالسكون إلى الظلال الوادعة ؟
أم شك صدرك بالظبى .. كف القضاء الجامح ؟
فطويت من ألم جناحك . . . فوق قلب نائح
أم هل جزعت من الزمان وصرفه المتمرد ؟
فكشت تنظر ما يبوح به زمانك فى غـــد ؟
قد هجت «ياعصفور» شجوى .واستثرت خواطرى
وأمر ما يورى الأسى فى القلب صمت الشـاعر
فدع الكآبة والتمس سلوى شجونك فى النغم .!
هش الربيع ... فكيف تعبس للربيع المبتسم .؟
هذى الطيور على الربى ... نظمت مجالس للغناء
قامت تسلسل للربيع السمح ألحان الوفاء
فانهض إلى الضيف الكريم وحى طلعته السنية
وهب الحياة إلى الحياة ... فكيف تبخل بالتحية

قم فالأزاهر أطرقت فوق الربى من بؤسها
طافت بها ذكرى هواك ... فأغرقت في هجسها
مر الصباح بها فلم ترفع لطلعته الجبين
واستقبلته بعبرة قد لألأت بين الجفون
وجرى الغدير فلم تصفق حين مر بها الغدير !
فارتد مرتعش الخواطر ... ينشد اللحن الكسير
ووعى فؤادى ما أسرت للنسيم العابر
لما تعثر في رباه وجر ذيل الحائر
رفت شفاها ذابلات ؟ . من صداها للقبل
وهفت قلوبا تشتهى من فيك ألحان الغزل !
قم غنها لحن الهوى يجرى به الوتر الحنون
حتى تهش إلى المنى . ! وتشع بالأمل العيون ؟
قم واغتنم يا ابن الربى . ! ما عن من متع الحياة
نادى بك الحسن البديع . فكيف تقعد عن نداه
عجبا . ! ؟ أيشكو الهم حر حيثما يهوى يطير ؟ !
يا ليت شعرى . كيف يصبح لو غدا مثلى أسير
قم ناج أحلام الصبا ؟ ! وارقص على خفق الرياح
فلعل مثلى إن رآك ؟ ! أفاق من ألم الجراح
هذى الحياة قصيرة ؟ فعلام يا صاحى أساك ؟
والدهر لا يحنو على شاك ؟ ولا يرثى لباك ؟
قم ناغ أوتار الهوى بين الحبور والابتهاج
« عما قليل سوف نصمت حين ينطفىء السراج »

هذه القصيدة قطعة جميلة من تصوير المشاعر النفسية العميقة ، فيها مرح ، وتفاؤل ، وسرور بالحياة وشعور بالجمال ، يحتفل الشاعر فيها بتجويد التعبير ، والتصوير ، وتبدو شاعريته منطلقة على سجيتها ، لا تحفل بزخارف الأسلوب ، ولا بالتعقيد الفنى ، ولا تتعمد تركيب الصور والألوان والظلال ، نفس الشاعر فيها هادئة شادية ، تفرح بالجمال وتغنى له وتتأثر به ، وتمرح في حرية في أجواء

الكون الفسيح ، فى الطبيعة والسماء والرياض والأفق الطلق والسماء الضاحكة ، ويجيد الشاعر إجادة بارعة فى تصوير المشاعر النفسية العميقة .

وهى من أمتع القطع فى الوصف النفسى والشعورى والفنى . العصافير فى الحديقة تغرد وتضحك ، وعصفور كئيب يفكر ولا يشاركها المتعة بمسرات الحياة ، هل يتذكر حبيبا غاب عنه ، أو عاده شوق قديم يحن إليه ، أو راعه الكون الكبير بعبره ، أو ضاق ذرعا بالحياة ، أو أصابته كف القضاء بجراح دامية يطوى جناحه عليها ، أو جزع من الزمان وصرفه المتمرد . أسئلة يسائل الشاعر بها نفسه ، ولا يدرى لها جوابا ، وإن كان الشاعر قد أثار شجوه هـذا المنظر المؤثر الحزين ، ولكنه يحب التفاؤل ويدعو إلى السرور بالحياة ، ولذلك ناجى عصفوره الكئيب ، ودعاه إلى أن يودع أحزانه وكآبته ، وأن يستقبل الربيع استقبال الحالم القرير العين ، وأن يشارك لداته من الطيور المغردة الفرح والبهجة ، وأن ينطلق من أحزانه ويدع الحياة للحياة ، فالزهور قد أبكاها صمته فلم تفرح بمشرق الصباح الجديد ، ولم تصفق للغدير المرح المنطلق ، ولماذا لا يشاركها العصفور فى الغناء والشدو والمتعة ؟ لماذا يكتئب وهو الحر الطليق من قيود الحياة ؟ الحياة قصيرة لا تتسع للحزن والألم ، وأمامنا النهاية المحتومة القريبة حين ينطفىء السراج .

ويقف الشاعر عند هذه الأفكار القصيرة التى تنفذ إلى بعض جوانب الكون ولكنها لا تتعمق فى النفوذ إلى أسرار الحياة الأبدية الخالدة ، فلا تصف لنا جمال الحرية التى يتطلع إليها كل من فى الحياة ، ولا تعبر عن الفروق بين الطير الصامت والإنسان الناطق ، ولا تصف لنا مملكة الطير الواسعة وشعور الشاعر وشعورنا نحوهما ولا يتحدث عن الحدود بين الحياة والموت والتشاؤم والتفاؤل والحزن والسرور ولا تصور لنا آلام الملايين من البشر الذين يحزنون كما يحزن هذا العصفور ، ويكتئبون لمظاهر الشقاء فى الحياة .

ويقول الشاعر :

فدع الكآبة والتمس سلوى شجونك فى النغم

وما أحراه أن يقول : « سلوى شجونك فى القمم » ، فالنغم لا يذهب أحزان الانسان ، بل قد يهيجها ، ولكن التنقل بين مشاهد الطبيعة مما يبعث على الفرح ويسرى عن النفس الهموم والأشجان .. ويقول :

قم فالأزاهر أطرقت فوق الربى من بؤسها
طافت بها ذكرى هوا ك فأغرقت فى هجسها

والبيتان قلقان فى المعنى والتعبير والصورة الفنية ، فالأزاهر فى الرياض لافوق الربى ، إذليس فى الطبيعة المصرية جبال أوما أشبه الجبال تنبت فوقها الزهور كما يرى فى بلد شقيق مثل لبنان ، وأنا أكره أن يزيف الشاعر مشاعره ومشاهده وصوره ، وأحب أن يكون الأسلوب مع وضوحه صادقا متمشيا مع حقائق الحياة . ثم إن الزهور لم تطرق من بؤسها ، وإنما أطرقت من بؤس العصفور المكتئب ، وإن كان هذا سببا لذاك .. وقد يمكن أن نقول مثلا :

قم فالأزاهر أطرقت فى الروض تبكى معبدا
طافت بها ذكرى هوا ه ورددت ذاك الصدا

مثلا ، أو نقول ما أشبه ذلك من الأساليب والصور ، فنلائم بين أسلوب القصيدة ، وندع الصور الفنية والوحدة التعبيرية والموسيقية والشعرية والتجربة النفسية ، ندع ذلك كله تمشى متلائمة فى القصيدة كلها من أولها إلى آخرها . . .
ويقول الشاعر :

واستقبلته بعبرة قد لألأت بين الجفون

وكلمة لألأت هنا لا تتمشى مع معناها اللغوى ولا يتفق ذلك المعنى اللغوى مع المعنى المراد فى البيت... ويقول الشاعر :

نادى بك الحسن البد يع فكاف تقعد عن نداه

و «نداه» كلمة عامية كان للشاعر عنها غنى و لو أنه قال مثلا :

نادى بك الحسن البد يع فكيف تقعد لا تراه

لكان أبلغ وأمتع وأجمل ، ويقول :

قامت تسلسل للربيـ ع السمح ألحان الوفاء

وكلمة الوفاء هنا ليست أبلغ من كلمة « الإخاء » أو الصفاء مثلا .. ويقول :

يا ليت شعرى كيف يصبـ ح لو غدا مثلى أسير

« وليت شعرى » لا أظن أن هذا موضعها ، والوقوف على المنون المنصوب إنما هو بحذف تنوينه ، أما الوقوف عليه بالسكون فلغة رديئة لا أدرى لماذا

أكرهها ، والركون إلى « الضرورة الشعرية » شيء لا مبرر له فى عرف الشاعر ذى المواهب الحرة الحية المتجددة ، ولو أنه قال مثلا :

ماذا يكون إذا حييـ ت وأنت مثلى كالأسير

لكان بليغا رائعاً

وبعد فنحن أمام شاعرية قوية متدفقة حرة مجددة معبرة ، وأمام مواهب وملكات تزخر بالقوة ، وأنغام أخاذة ساحرة حلوة ، وسيكون لها الحياة والمجد فى دنيا الأدب والشعر ، ولا نحب أن يقف الشاعر عن متابعة الحياة والثقافة والفن والتجديد فى آفاقها الواسعة الفسيحة البعيدة المدى والأثر فى مستقبل الإنسان والشاعر

الكتاب الثانى

ابن المعتز والنقد الأدبى

حق التأليف الأدبى

— ١ —

لا تزال دراسات النقد الأدبى قديمة لم تسر بعد على مناهج البحث الحديثة ؛ ولا زلنا نرى آراء مبعثرة خاطفة فى دراسات النقد ، تدور حول إبداء الأعجاب بكتاب أو بفكرة منه ، أو نص من نصوصه . أما دراسة منهج المؤلف وفكرته ومدى ما فيها من جدة أو تقليد ، فشىء لم نعرفه بعد . . وكذلك نفعل فى النصوص الأدبية ، نستحسن كلمة أو تعبيرا أو بيتا أو أبياتا ، دون أن ننظر إلى الأثر جملة ، وإلى مدى ما فيه من طبع وصنعة ، و تقليد وتجديد ، وتأثر وابتكار .

أقول هذا كله بمناسبة قضية أدبية طريفة ، قد لا نجد لها نظيرا فى طرافتها ؛ وسأعرض القضية وحكمى فيها ، الذى اعتبره منهجا أدبيا جديدا فى النقد الأدبى ، وخاصة التطبيقى منه .

— ٢ —

فى عام ١٩٤٥ ظهر فى القاهرة شرحى لكتاب ابن المعتز « البديع » وفى صدره مقدمة جديدة طويلة عن الكتاب ومؤلفه . وفى عام ١٩٤٦ ظهر أيضا كتابى « رسائل ابن المعتز فى النقد والأدب والاجتماع » ، وهذه الرسائل كانت مفقودة وكثير منها كان موزعا فى شتى كتب الأدب القديمة : المخطوطة والمطبوعة على السواء ، وفى صدر هذه الرسائل مقدمة عن ابن المعتز وحياته ومؤلفاته . وفى عام ١٩٤٨ ظهر أيضا فى القاهرة كتاب صغير لى عنوانه « التشبيه بين ابن المعتز والرومى » ، وهو نص محاضرة لى ألقيتها فى مدرج كلية اللغة العربية زاد الله شبابها فتوة ونضرة — فى الساعة الرابعة من مساء يوم

الثلاثاء ٣ إبريل عام ١٩٤٥ أمام لجنة علمية كبيرة وجمهور غفير من الأدباء . وفى شهر يونيو عام ١٩٤٩ ظهر فى القاهرة أيضا كتاب ضخم لى بعنوان ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ، فى نحو أربعمائة صفحة من الحجم الكبير ولهذا الكتاب قصة ، فقد بدأت فى كتابة فصوله من عام ١٩٤١ لأتقدم به إلى كلية اللغة العربية للحصول على شهادة الأستاذية ـ الدكتوراه ـ فى الأدب والبلاغة ، وانتهيت منه عام ١٩٤٥ ، ونوقشت فيه فى ٥ أكتوبر عام ١٩٤٦ ، وأودعت نسخة خطية منه فى مكتبة كلية اللغة بعد المناقشة مباشرة وحصولى على هذه الدرجة العلمية الممتازة ولا تزال موجودة فى المكتبة حتى اليوم للاطلاع العام ، ويعرف جميع هذه الحقائق زملائى فى الدراسة ، وهم اليوم صفوة من أساتذة كليـــة اللغة العربية بالقاهرة والمدارس والمعاهد الثانوية ، وإذا وازنا بين هذه النسخة الخطية وبين الكتاب المطبوع نجد الكتاب صورة تامة لهذه النسخة المخطوطة ، ماعدا البـاب الأول منها وهو عصر ابن المعتز فقد رأى الناشر تأجيل نشره فى الكتاب لطوله فلم يظهر فيه ، واكتفيت بملخص صغير له بعد المقدمة أشرت فيه إلى الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية والأدبية ونهضة الشعر فى عصر ابن المعتز إشارة موجزة ووعدت بنشر هذا الباب فى كتاب مستقل .

وشاء الله أن يقوم الأستاذ عبـــد العزيز سيد الأهل عام ١٩٥١ فى بيروت بنشر كتاب عنوانه « عبد الله ابن المعتز أدبه وعلمه » فى ١٩٦ صفحة ، طبعته له دار العلم للملايين بلبنان ، ولكنى لم أطلع عليه إلا فى آخر مايو عام ١٩٥٢ إذ وجدت نسخة منه فى مكتبة الخانجى بالقاهرة فاشتريتها ، وعكفت على قراءتها .. وجدت المؤلف الفاضل فى كتابه لم يشأ أن يذكر فيما ذكر من مصادر كتابه حرفا واحدا عن كتابى « ابن المعتز وتراثه » كأنه لم يزل فى ضمير الغيب ؛ ولم يشر أيضا إلى كتبى الاخرى: التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى ورسائل ابن المعتز ، أما شرحى على البديع فقد أشار إليه إشارة عابرة ، إذ ذكر فى هامش صفحة ١٦٦ من كتابه أن كتاب البديع قد نشره كراتشقوفسكى وأعيد طبعه فى القاهرة ، ولاحظت أيضا أن الاستاذ يحاول أن يظهر بمظهر المبتكر لهذا البحث وتلك الدراسة والمنكر لأن يكون مسبوقا بشىء منها ؛ على الرغم من أن كتابى الضخم وزعته مكتبة الخانجى فى شتى البلاد العربية ونشرت عنه جميع الصحف والمجلات الادبية وحولية الثقافة التى تصدرها وزارة المعارف المصرية ، وأن السيد الاخ قد أخذ

منهجى فى الدراسة كاملا وكثيرا من آرائى وبحوثى ودراساتى ، ومن النصوص والشواهد التى ضمنتها كتابى « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » وكتابى الآخر « رسائل ابن المعتز » .

ولما ناقشت السيد الفاضل على صفحات مجلة الأديب اللبنانية ، لأسجل هذه الحقائق كان له معى موقف معروف ، وأخذ يهدد ويوعد وينذر برفع الأمر للقضاء فى لبنان ، وهو يعلم أن كل مصرى يعتز بقضاء بلاده ، وأننى لا أستطيع حضور جلسات دعواه فى بيروت ، ثم انتهى أخيرا على صفحات « الأديب » بأنى فررت من المعركة ، وأعلننى فى القاهرة فى أول أكتوبر سنة ١٩٥٢ بدعوى قذف مرفوعة منه أمام محكمة المطبوعات فى بيروت لحضور جلسة حدد لها يوم ٢٨ أغسطس عام ١٩٥٢ ، ثم أعلننى على صفحات الأديب فى عدد أكتوبر — الذى لم أتسلمه إلا يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٩٥٢ كما يعرف صديق الأستاذ وديع فلسطين والأستاذ مصطفى السحرتى - لحضور جلسة أخرى موعدها ٢٥ سبتمبر . وهو فى ذلك كله لم ينف صراحة أن يكون قد اطلع على كتابى وتأثره ، بل إنه هدد بنشر نقد لكتابى ، وهذا النقد دليل ملموس على أن السيد الأخ قد اطلع على كتابى وقرأه كله . فلم إذاً لا يعترف بهذه الحقيقة اعترافا صريحا .

والأستاذ الأهل فى كلماته فى « الأديب » — عدد يوليو وسبتمبر وأكتوبر عام ١٩٥٢ — بل فى كتابه نفسه يؤكد أن كتابه أقدم من عام ١٩٥١ ، بل وأقدم من تاريخ نشر كتابى . ولو رجعنا إلى كتابه « يوم وليلة » الذى نشر فى بيروت عام ١٩٤٩ وتحدث فيه عن خلافة ابن المعتز ، لا نجد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن له بحثاً آخر عن ابن المعتز قد ألفه وأعده للنشر . وأنا لو سلمت جدلا بما يقول الأستاذ الأهل فى مجلة « الأديب » ، وبأن له بحثاً آخر قديما عن ابن المعتز كتبه قبل كتابه « يوم وليلة » ولم ينشره إلا عام ١٩٥١ ، فهل هناك ما يمنع من أن يكون قد عدل بحثه هذ بعد قراءته لكتابى الذى ظهر قبل كتابه بعامين وأن يكون قد استفاد منه وتأثره ؟ ولم لا يكون بحثه الذى يستشهد بكثير من من أصدقائه عليه إنما هو ما نشر فى كتابه « يوم وليلة » دون سواه ، بدليل أن فى صدره كلمة عن « مدينة سر من رأى » ، وهى كما يقول سبق أن نشرت فى « صحيفة دار العلوم » ، بل ولماذا إذن كان يحاول - كما قال فى كلمته فى مجلة الأديب عدد يوليو عام ١٩٥٢ — أن يشكك فى تاريخ ظهور كتابى ، وأن

يرجح أن التاريخ الذى عليه إنما هو تاريخ تأليفه لا تاريخ طبعه ؟ بل ولماذا حاول أن يتهمنى بأنى أنا الذى أخذت عنه وتأثرت ببحوثه عن ابن المعتز ، مع أنه لم ينشر له شىء من هذه البحوث إلا عام ١٩٤٩ أى بعد انتهائى من طبع جميع كتبى عن هذا الشاعر؟ وقد صرح الأستاذ الأهل بأنه أرسل كلمة إلى مجلة الرسالة فلم تنشر وبأنه نشر فى مجلة دار العلوم كلمتين هما : «تحقيق مدينة سر من رأى» ، و«ابن المعتز والقمر» ، لحمدت الله لأن مجلة الرسالة لم تنشر كلمته ، ولأن كتابى خلو من أية كلمة عن «مدينة سر من رأى» وعن «ابن المعتز وضوء القمر» ، وإلا لحاول أن يجادل فيما يجادل فيه بأسلوب جديد .. وقلت له : أعلى ذنب فى ألا تكون الرسالة قد نشرت لك ، وفى أن أكون أنا - كما يعلم الله - لم أطلع على كلمة لك فى صحيفة دار العلوم ؟ وقلت له أيضاً : إن أصدقاءك الذين تستشهد بهم على أن لك بحوثا عن ابن المعتز يمكنك أن تسألهم واحدا واحدا : هل أعلمنى واحد منهم أن لك بحثا عن هذا الشاعر ، أو أطلعنى أحد منهم على كلمة لك فى هذا الموضوع .

— ٣ —

ولأنتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى فى البحث ، هى إثبات أن الأستاذ الأهل قد اطلع على كتابى «ابن المعتز وتراثه فى الادب والنقد والبيان» ، وتأثر به فى دراسته لابن المعتز التى نشرها فى كتابه «ابن المعتز — أدبه وعلمه» ، على الرغم من محاولته فى كتابه الظهور بأنه صاحب الفضل الاول والاخير فى هذا البحث .

وليس أمامى شاهد عدل على صدق كلامى سوى كتاب الاخ الفاضل نفسه فهو الدليل على كل ما أقول . وسأشير فى هامش هذا البحث إلى مرجع كل موضع من كتابى أو كتابه ، مكتفيا - رغبة فى الإيجاز - بالاشارة إلى كتابى بالحرف (ى) ، وإلى كتابه بالحرف (ه) .

منهج البحث فى كتابه طبق منهجى فى كتابى :

نعم إن منهجه هو عين منهجى من غير تبديل أو تحوير ، والعلماء كافة يعرفون أن لكل مؤلف منهجا خاصا فى كتابه يخالف منهج غيره تمام المخالفة مهما اتحد موضوع البحث ، ولقد ظهرت فى السنوات الاخيرة كتب كثيرة عن المتنبى ، وأخرى

عن المعرى ، وعن بشار ، وأبي نواس ، وابن الرومى ، والبحترى ، وسواهم ولكن نجد أن لكل مؤلف وكاتب منهجا يغاير مناهج سواه فى البحث إلى حد كبير جدا .

ومطابقة منهج الاستاذ الاهل لمنهجى أمر واضح ، وسأثبته ليؤمن به الذين لا يعترفون إلا بما يؤدى اليه الدليل . وهو مع ذلك كله دليل ظاهر على أنه كتب بحثه بعد ظهور كتابى ، أو على الاقل عدل فيه وحوره بعد نشر مؤلفى ؛ ولذلك كانت مقدمة كتابه بمثابة رد على شعوره النفسى العميق بهذا ، ومحاولة لكسب ثقة ضميره بنفسه ، أو لكسب ثقة جمهور القراء به .

أشرت إلى عصر ابن المعتز وسماته العامة فى أول كتابى ، معتذرا عن عدم نشر الفصل الخاص به ، فعقد السيد الاهل فصلا خاصا تحدث فيه عن عصر الشاعر ـ العصر العباسى المتوسط ـ وأدخل مع ذلك الحديث عن بيئة الشاعر الخاصة فى الحديث عن عصره وبيئته العامة ، وهو اتجاه غير سديد ، فبحث بيئة الشاعر الخاصة ـ من حيث مولده ونشأته وأساتذته وعشراؤه ـ لا يمكن قبول إدخاله فى الحديث عن عصر الشاعر ، وكان من الأسلم إفرادها ببحث مستقل .

وأتحدث عن ميلاد الشاعر(١) ، فيعقد الأستاذ بحثا عن «مولد ابن المعتز»(٢) ، وأعقد فصلا للحديث عن «طفولة الشاعر ونشأته»(٣) ، فيتحدث هو عن نشأته(٤) ، وأتكلم عن «أساتذة ابن المعتز» واحدا واحدا ، فيتكلم هو عن «معلميه»(٥) ، تحدثت عن أستاذه الضبى فتحدث عنه(٦) ، وكذلك البلاذرى(٧) والدمشقى(٨) ، وثعلب والمبرد(٩) ، وابن هبيرة(١٠) .. وأتكلم عن أصدقائه فيتحدث هو عن «عشرائه»(١١) . وأذكر فى إفاضة مؤلفات ابن المعتز فيشير هو عرضا اليها(١٢) دون ذكر مصادره فى ذلك ودون إشارة إلى المطبوع منها وغيره وإلى الموجود والمفقود .

وعقدت بحثا خاصا فى كتابى لبحث سمات أسلوب الشاعر وألفاظه ومعانيه

---

(١) ٧ ى (٢) ١٩ هـ .

(٣) ٢١ ى (٤) ٢٠ هـ .

(٥) ٢٥ ى ، ٢١ هـ (٦) ٢٥ى ، ٢٠ هـ

(٧) ٢٦ ى ، ٢٢ هـ (٨) ٢٥ ى ، ٢٣هـ

(٩) ٢٧ ى ، ٢٣ هـ (١٠) ٢٦ ى ، ٢٦هـ

(١١) ٣٩-٤٦ ى ، ١٦ هـ (١٢) ٧٩ - ٨٢ ى ، ٢٨ هـ

وأخيلته (١) فعقد هو فصلا فى كتابه (٢) لبحث مذهبه الشعرى من حيث السهولة والوضوح والتجديد والبديع والتصوير والاستيعاب والعروض ، مما فصلت أنا الكلام فيه تفصيلا فى ثنايا بحثى . ويضيف إلى ذلك كلامه على التشبيه الذى تحدثت أنا عنه بإفاضة فى بحث خاص ، ذكرته فى أغراض شعر ابن المعتز (٣) ، ومعظم أفكاره فى هذا الموضوع شبيهة بأفكارى إلى حد بعيد . وكلامه عن السهولة والوضوح فى شعر الشاعر مسبوق بكلامى فى ذلك (٤) وكلامه عن البديع فى شعره يقابله كلامى الواسع عن الطبع والصنعة فى شعره (٥) .

ويعقد الأستاذ السيد فصلا مستقلا لفنون شعر ابن المعتز ، كما عقدت فصلا لأغراض شعره (٦) ، ويتكلم عن أراجيزه وطردياته وموشحته (٧) وهى ما تحدثت عنها فى كتابى بتفصيل واسع فى ثنايا الكلام على خصائص أسلوبه (٨) وعلى شعره القصصى (٩) ، فوشحته وطردياته تحدثت عنها فى أغراض شعره (١٠) ، وأراجيزه تكلمت عنها فى مواضع عدة من شتى جوانبها المختلفة (١١) ؛ ومن الطريف أنه يعد موشحة ابن المعتز من باب الأراجيز (١٢) وهو خطأ عجيب ، فلم يعد أحد من علماء الأدب ونقاده الموشحات من فن الأراجيز لا فى القديم ولا فى الحديث

ويعقد فصلا بعنوان النقد والبلاغة (١٣) ، يتحدث فيه عن جهود الشاعر فى النقد والبلاغة ، كما عقدت فى كتابى بابا عن أثره فى النقد الأدبى (١٤) وآخر عن أثره فى البيان العربى (١٥) ، ويتكلم عن نثره فى فصل خاص ، كما تكلمت عنه فى باب خاص (١٦)

ويختم الكتاب ببحث عن صفته وأخلاقه كما فعلت فى الحديث عن شخصية ابن المعتز (١٧) ، ومن الطريف أن هذا العنوان «صفته وأخلاقه» هو نفس عنوان لى فى الموضوع فى كتابى (١٨)

---

(١) ٢١٨ — ٣٠٤ ى (٢) ٣٧ — ٤٢ ه (٣) ١٧٩ — ٢١٧ ى

(٤) ٢٩ ه ، ٢٢١ و ٢٢٣ - ٢٢٥ ى (٥) ٣٥ و ٣٦ ه ، ٢٢٨ - ٢٥٨ ى

(٦) ٤٥ — ١٣٦ ه ، ١٠٦ — ٢١٧ ى (٧) ١٣٧ - ١٥١ ه

(٨) ٢٧٣ ى (٩) ١٧٢ - ١٧٤ ى (١٠) ١٥٩ و ١٧٥ - ١٧٩ ى

(١١) ٢٧٣ و ١٧٢ - ١٧٤ ى (١٢) ١٤٦ ه (١٣) ١٥٣ - ١٧٠ ه

(١٤) ٣٦١ - ٣٦٩ ى (١٥) ١٧٠ - ٣٨٣ ى (١٦) ١٧١ - ١٨٤ ه

و ٣٥٣ - ٣٦٠ ى (١٧) ١٨٥ ه ، ٦٩ وما بعدها ى (١٨) ٦٩ ى

التشابه بين الكتابين فى التفاصيل :

فإذا تركنا الحديث عن المنهج واتحاده فى الكتابين ، ورجعنا إلى الحديث عن التفاصيل التى يحتوى عليها بحثه المهجى ؛ وجدنا تشابها ـ لا بل تطابقا ـ غريبا عجيبا يصعب تفسيره إلا بشىء واحد يعرفه القارىء وحده

ذكرت آراء عدة فى تاريخ مولد الشاعر ، فذكر الأستاذ الرأى الأول منها ورجحه مع أنى استبعدته(١) ، وذكرت قصة للمعتز مع الضبى أستاذ ابنه ، فأشار هو إليها دون ذكر لمصدرها (٢) ، وأذكر غرابة أراجيز ابن المعتز فى الطرد فيذكر هو ذلك أيضا (٣) واذكر دفاع أبى الفرج عن ابن المعتز فى سهولة ألفاظه فيشير هو إلى ذلك (٤) ، واذكر رأيا المطوعى حول شعر ابن المعتز فيذكر هذا الرأى دون أن يشير إلى مصدره (٥) ومن الطريف أنه يسوق رأى المطوعى هذا فى معرض الدفاع عن مذهب ابن المعتز فى السهولة ، مع أنه ليس فى كلام المطوعى شىء عن سهولة شعر ابن المعتز إطلاقا ، ومن الطريف أيضا أنه حين نقل رأى المطوعى قال مانصه : «وكذلك دافع عن مذهب ابن المعتز هذا عمر المطوعى فى كتاب ألفه فى شعر الميكالى ومنثوره (٦) ، ليوهم القارىء أن النص منقول من كتاب الميكالى لا من كتابى ولا من زهر الآداب الذى أخذت أنا منه النص

ويقول الأستاذ فى كتابه : وقد قيل إنه ـ أى ابن المعتز ـ أخذ معظم معانى من سبقوه أوقعهم فى هذا القول كثرة حفظه واتساع أفق اطلاعه ، ومع ذلك فقد حافظ على شخصيته فيما أخذ وفيما لم يأخذ» (٦) ، ثم ذكر أن ابن المعتز ابتكر من المعانى ماوسعه الابتكار ، وتصرف فى المعانى كلما عن له أن يتصرف ، وكان يتكىء على نفسه كثيرا فى التصرف والابداع(٦) ، ويقول : نعم إنه مسبوق بالتجديد منذ أصبح للمحدثين شعر غير شعر القدماء (٦) : وهذه الأفكار كلها قد فصلت الكلام عليها فى كتابى تفصيلا تاما ، فذكرت المعانى التى أخذها ابن المعتز من الشعراء (٧) ومعانيه المبتدعة التى ابتكرها (٨) ، وأشرت إلى حذقه فى الأخذ(٩) ، وإلى(١٠)

---

(١) ٧ ى ، ١٩ ه   (٢) ٢٥ ى ، ٢٠ ه   (٣) ٢٢٧ ى ، ٣٠ ه
(٤) ٢٢٣ و ٢٢٤ ى ، ٣٠ و ٣١ ه   (٥) ١٠٠ ى ، ٣١ ه   (٦) ٣١ ه
(٧) ٢٨٠ - ٢٩٣ ى   (٨) ٢٩٣ - ٢٩٦ ى   (٩) ٢٨٠ ى   (١٠) ٢٧٨ و ٢٧٩ ى

أنه مسبوق بالتجديد ، وإلى معانيه وتنوعها (١)، ومن الطريف أنى أقول : وكثيرا ما يتكىء على نفسه (٢) نقلا عن الصولى فى كتابه (٣) «الأوراق» ، فيقول الأستاذ : ويتكىء على نفسه كثيرا فى التصرف والابداع (٤) ، دون إشارة لكتابى ، ودون أن يكون كتاب الأوراق من مراجعه لأنه لم يذكره مع المصادر التى ذكر أنه رجع إليها فى بحثه . إن الأستاذ لم يذكر مرجع كلمته هذه ومادام هو قد أهمل الأوراق فلم يعده من مراجعه ، فلا بد أن يكون مرجعه فى ذلك هو كتابى وحده ، وإلا فانى أتحداه أن يأتى لنا باسم مرجع آخر فيه هذا النص .

وأذكر رأيا لابن رشيق فى لطف صنعة ابن المعتز (٥) فيشير هو إلى هذا الرأى فى مقام تجديد ابن المعتز فى المعانى (٦) مع أنه ليس له صلة بذلك المقام . وأتحدث عن أوزان ابن المعتز وقوافيه فيتحدث هو عن ذلك أيضا بعنوان العروض (٧) ، وأذكر فى هذا المقام أن الشاعر نظم على كثير من القوافى الصعبة ، فيذكر هو ذلك أيضا (٨) ، وأخطىء ابن المعتز عروضيا فى أبياته «أفنى العداة إمام ماله شبه الخ» ، وفى «إن خرجت من قدها لم ترها» ، فيذكر ذلك كله (٩) .

وأوازن بين بيتين لبشار وابن المعتز مفضلا بشارا ، فيوازن بينهما مفضلا أيضا لبشار (١٠) ، وأذكر أبياتا من صنعته فيذكرها أيضا (١١) .

وأذكر الوصف فى شعر الشاعر فيذكره (١٢) ؛ واذكر أوصاف الطبيعة فى شعره فيذكر أوصافه للروض والمطر والزهر والثمر (١٣) ؛ وشواهده فى بحث الوصف فى شعر ابن المعتز أغلبها متفقة مع شواهد كتابى فى مواضع مختلفة وأتحدث عن الفخر فى شعره (١٤) ، وعن الشعر السياسى (١٥) ، فيتحدث هو عن الفخر مدمجا فيه الشعر السياسى أيضا (١٦) ، والشواهد هنا متحدة فى الكتابين فى أحيان

---

(١) ٢٨٠ ى (٢) ٢٨٢ ى (٣) ١١٣ الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء (٤) ٣١ ﻫ (٥) ٢٤٠ ى (٦) ٣٢ ﻫ (٧) ٢٧٠ - ٢٧٣ ى و٣٢ ﻫ (٨) ٢٧١ ى ، ٣٢ ﻫ (٩) ٢٧٢ ى ، ٣٣ ﻫ (١٠) ١٩٧ ى ، ٣٦ ﻫ
(١١) ٢٤٤ ى ، ٣٦ ﻫ ومواضع أخرى كثيرة .
(١٢) ١٤٦ ى ، ٤٨ ﻫ (١٣) ١٥٤ - ١٥٩ ى ، ٥٦ - ٥٩ ﻫ (١٤) ١٢٠ - ١٢٣ ى (١٥) ١٢٩ - ١٣٧ ى (١٦) ٦٠ - ٧٢ ﻫ

كثيرة (١) وأبرىء ابن المعتز من تهمة كراهة بنى عمه الطالبيين ، فيبرئه هو أيضا بنفس أدلتى (٢) ، وقد سقت فى هذا المقام كلاما للصولى نقلا عن كتابه «الأوراق» فنقله السيد الفاضل نقلا دون أن يشير إلى كتابى بكلمة ، مع أنه لم يعرف كتاب الأوراق إذ لم يعده من مصادره فى بحثه

وأذكر الغزل والحب فى شعر الشاعر ، فيذكر الغزل (٣) ، واستشهاده هنا بآراء بعض النقاد على إجادته فى الغزل هو نفس ما استشهدت به (٤) ، مع أنى نقلت هذا الرأى عن الأوراق للصولى ، وما دام الأستاذ لم يعد كتابى الأوراق من مصادره ، فكان من الحتم عليه أن يشير إلى المرجع الوحيد الذى أخذ عنه ذلك ، وهو كتابى . . وكثير من شواهده فى الغزل هى شواهدى فيه وفى كلامى على مجون الشاعر (٥) . وأشير أيضا إلى قصائد فريدة فى الغزل للشاعر ، فيرجع إليها وينقل كثيرا من أبياتها (٦)

ويتكلم الأستاذ عن «الخمر والغناء» فى شعر الشاعر ، كما تكلمت عن «خمريات ابن المعتز» (٧) وعن «ابن المعتز والغناء» (٨) . وأتحدث عن كتاب «فصول التماثيل» للشاعر ، فيتحدث هو عنه كذلك (٩) ، الأفكار هى الأفكار والشواهد هى فى أغلبها نفس الشواهد ، مع تحوير ومحاولة لإخفاء الأخذ . وأذكر النبيذ وآراء العلماء فى حله وحرمته ، فيعرض هو لذلك أيضا (١٠) . وأنقل رأيا عن كتاب الأوراق للصولى فى أشهر الشعراء الذين أجادوا فى الخمريات ، فيذكر هو ذلك الرأى (١١) دون إشارة لكتابى ، وكتاب الأوراق لم يعده الباحث من مصادره ، وقد قال فى مقدمة كتابه ما نصه : «وعدت فى آخر الكتاب فذكرت المراجع كلها مرتبة على أحرف الهجاء (١٢)» .

وأتناول بالحديث بعض مدائح الشاعر أثناء الكلام على حياة الشاعر ،

---

(١) راجع كتابى فى ص ٧٠ و ٧١ وفى باب الحكمة وفى الفخر والشعر السياسى (٢) ١٣٤ ى ، ٦٦ هـ (٣) ١١٠ — ١١٩ ى ، ٧٣ وما بعدها هـ (٤) ١١٢ ى ، ٧٣ هـ (٥) ٣٥ ومواضع أخرى من كتابى (٦) ١١٥ ى مثلا ، ٨٢ هـ (٧) ٨٧ هـ وما بعدها ، ٦٢ — ٧٠ ى (٨) ٧٥ — ٧٨ ى (٩) ٨٢ — ٨٥ ى ، ١٠٦ — ١٠٩ هـ (١٠) ٧٢ — ٧٥ ى ، ٩٦ و ٩٧ هـ (١١) ١٦٣ ى ، ١٠٠ هـ (١٢) ٦ هـ

مشيراً إلى مدحه فى الكلام على شعره الاجتماعى(١) ، فيعرض هو أيضا لبحث المدح(٢) كما فعلت ، ويتكلم عن مدائحه للمعتضد(٣) ، وعن أرجوزة الشاعر فيه(٤) ، وهذه الأرجوزة مشروحة شرحا تاريخيا ولغويا كاملا فى كتابى «رسائل ابن المعتز» . ويتكلم أيضا عن مدائحه للموفق كما تكلمت(٥) ، وللمكتفى(٦) ، ولبنى وهب(٧) ، وسواهم .

وأشير إلى هجاء الشاعر ، فيتحدث هو عن الهجاء والسخرية فى شعره(٨) . وأبحث الحكمة فى شعر ابن المعتز ، فيبحثها كذلك فى كلمة عنوانها «الحكمة والشكوى(٩)» ، مدمجا الكلام على مشيبه فى شعر الحكمة والشكوى(١٠) ، وقد عقدت أنا بحثا خاصا فى كتابى بعنوان : «الشباب والمشيب فى شعر ابن المعتز(١١)» ؛ وجعل هو فن العتاب فى باب الحكمة والشكوى ، وجعلته أنا من شعره الاجتماعى(١٢) ؛ والشواهد أكثرها واحدة فى هذا المقام .

وينفى الأستاذ الموشحة المنسوبة لابن المعتز عنه بنفس فكرتى وأدلتى(١٣) . وجميع أمثلته فى فصل «النقد والبلاغة» لا تخرج عما جاء فى كتابى هذا فى الباب الخاص بأثر ابن المعتز فى النقد الأدبى(١٤) وفى كتابى «رسائل ابن المعتز» . .

ويتكلم الأستاذ هنا مثلى عن «رسالة ابن المعتز فى أبى تمام» وعن كتابه : «سرقات الشعراء» المفقود الذى جمعت أطرافا منه فى «رسائل ابن المعتز(١٥)» ويذكر هنا شيئا من سرقات ابن المعتز التى أفضت أنا الكلام عليها فى كتابى(١٦) وشيئا آخر من تأثر الشعراء به فى المعانى وهو مما أفضت فى الحديث عنه إفاضة واسعة(١٧) .

وأتكلم عن كتاب : «البديع لابن المعتز» فى صدر شرحى لهذا الكتاب ،

---

(١) ١٢٣ ى (٢) ١٠٩ ﻫ وما بعدها (٣) ٤٩ - ٥٣ ى ، ١١٣ ﻫ
(٤) ١١٤ ﻫ ، ١٧٣ ى (٥) ٢٧و٢٨ى ، ١٢٤ﻫ (٦) ٥٣—٥٦ى ، ١٢٠ﻫ
(٧) ٥٦ — ٥٨ ى ، ١٢١ ﻫ (٨) ٣٩ — ٤٦ ى أثناء الكلام على أصدقاء ابن المعتز و ١٢٤ ى ، ١٢٥ ﻫ (٩) ١٣٧ — ١٤٥ ى ، ١٢٨ ﻫ وما بعدها
(١٠) ١٣٠ ﻫ (١١) ١١٩ و ١٢٠ ى (١٢) ١٣٢ ﻫ ، ١٢٣ ى
(١٣) ١٧٧-١٧٩ى و١٤٦ﻫ (١٤) ١٥٣ ﻫ ، ٣٦١-٣٦٩ى (١٥) ٩-٤٦ رسائل ابن المعتز (١٦) ١٦٥ﻫ ، ٢٨٢ - ٢٩٣ ى (١٧) ١٦٦ ﻫ ، ٢٩٦ - ٣٠٤ ى

وفى كتابى « ابن المعتز وتراثه » (١) ، فيتكلم كذلك عنه (٢) كلاما لا يخرج عن كونه تلخيصا لبحثى فى هذا الباب . . . وأفيض فى الكلام على نثر ابن المعتز وألوانه وخصائصه ، فيتكلم عنه بما لا يختلف عن كلامى ، مع ذكره لكثير من الشواهد التى ذكرتها فى كتابى « ابن المعتز وتراثه » وفى كتابى الآخر « رسائل ابن المعتز (٣) » ؛ أذكر « نثر ابن المعتز الوصفى » فيذكر هو فى نثر الشاعر « وصفه (٤) » . و « الفصول القصار » كتاب مفقود لابن المعتز جمعت طرفا منه فى كتابى « رسائل ابن المعتز (٥) » نقلا عن الأوراق وريحانة الألباء ومعاهد التنصيص وأدب الدنيا والدين وتاريخ أبى الفداء وديوان المعانى وسواها من شتى المصادر التى ليست من مصادره ، فيأخذ الأستاذ الفاضل فى الحديث عن هذه الفصول ، والاستشهاد بالكثير منها فى كتابه (٦) كما فعلت .

هذا التشابه العجيب فى التفاصيل وشتى البحوث والأفكار والآراء فى الكتابين ما مصدره ؟ أيستطيع الأستاذ الأهل أن يفسر لنا ذلك بشىء معقول؟ هل اطلعت أنا على كتابه المطبوع عام ١٩٥١ ببيروت فأخذت منه كل هذه الأفكار وضمنتها كتابى المطبوع عام ١٩٤٩ ، والذى كانت منه نسخة خطية فى مكتبة كلية اللغة منذ عام ١٩٤٦ ؟

الأستاذ اطلع على كتابى وأخذ منه :

وإنى لا أقول ذلك مجازفة ، أو على وجه التخيل والمبالغة ؛ ولكنى قد ملأت يد القارىء فيما سبق بألف دليل ودليل . ومع ذلك فهذه سرقات أدبية واضحة سوى ما تقدم ، تعمد الأستاذ إخفاءها ، كما أخفى أسماء كتبى من مصادره ، وكما أنكر أن يكون كتابه قد سبق بكتاب آخر عن ابن المعتز حتى لا يظهر الأخذ والتأثر والاحتذاء :

١ — إن التشابه بين كتاب وآخر فى بحث واحد قد لا يتفق فى مسألة

---

(١) ٣٧٠ - ٣٨٣ ى (٢) ١٦٦ هـ (٣) راجع مثلا : ٣٥٥ ى و ١٧٧ هـ ، ٧١ و ٧٢ رسائل ابن المعتز و ١٧٧ هـ ، ٧٧ رسائل و ١٧٨ هـ ، ٧٦ رسائل و ١٧٨ هـ ، ٧٥ و ٧٧ رسائل و ١٧٨ هـ ، ٧٥ و ٧٦ رسائل و ١٧٩ هـ ، ٧٣ رسائل و ١٧٩ هـ ، ٦٣ رسائل و ١٧٩ هـ (٤) ٣٥٩ ى ، ١٧٦ هـ
(٥) ٦٤ — ٧٠ رسائل (٦) ١٨٠ هـ وما بعدها

واحدة ، فما بالك فى تشابه كتابى وكتاب الأستاذ فى أكثر من ألف مسألة ؟

٢ — ذكرت فى كتابى (ص ٤٨) : أن المعتضد نهى ابن المعتز عن الخمر فقال فيه :

ونهانى الإمام عن سفه الكأ س فردت على السقاة المدام

فقال الأستاذ الأهل ما نصه فى معرض الكلام على خمريات الشاعر : « فإن الإمام نهاه عنها(١) » ، وكتب فى الهامش تعليقا على كلمة الإمام ما نصه « المظنون أنه الخليفة المعتضد ، ولكنى أرجح أنه الخليفة المكتفى(١) » .

ونحن نسائل الأستاذ : من الذى ظن أنه الخليفة المعتضد ؟ طبعا ليس الظان هو الأستاذ الأهل نفسه بدليل قوله إثر ذلك « ولكنى أرجح الخ » ، فلا بد أن يكون باحثاً آخر سواه .. وأنا أتحداه ثم أتحداه ثم أتحداه لو ذكر لنا اسم باحث أو كتاب قديم أو حديث ذكر ذلك غيرى وغير كتابى ، فلا بد إذن أن يكون الأســـتاذ الفاضل قد اطلع على كتابى ، وتأثر به ، وحاول أن يخالف بعض ما ذهبت إليه فيه من آراء ، ليخفى عن القارىء سراً دفينا شاء الله أن يظهر واضحا بعد زمن قليل ، مهما حاول الأستاذ أن يحترس وأن يكون يقظا حتى لا تفلت منه كلمة تدل على أو على كتابى .

٣ — وأقول أنا فى كتابى بعد كلام طويل فى بيان الباعث على تأليف ابن المعتز كتابه « البديع » : الغرض الأول من الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع(٢) . . . فيذكر الأستاذ نفس الفكرة ، ويخلص من ذلك إلى قوله : « ولعل هذا هو كل غرضه ، أو غرضه الاول ، من تأليف الكتاب ، لينبه الناس على أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى باب من أبواب البديع(٣) » .

وهنا يجد القارىء سرقة واضحة جداً للفكرة ، وللأسلوب ، وللألفاظ (الغرض الاول ، الكتاب ، الناس ، أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى أبواب البديع) . فكيف اتفق هذا يا سيدى ؟ خبرنى بربك ، حدثنى وعرفنى ما سر هذا ، ماسر النقل عن المؤلفين الشرفاء ثم الطعن عليهم وتجريحهم ؟ هل لا زلت تنكر هذه القضية الواضحة ؟

---

(١) ١٠٥ هـ (٢) ٣٧٤ ى (٣) ١٦٧ هـ

٤ — وأقول فى كتابى : « رسم - ابن المعتز - صورا صادقة لكل ماوقعت عليه عينه من أمور الحياة ومظاهر الحضارة(١) » ، وأقول : وعناية ابن المعتز بالحسى من الاوصاف خاصة ترجع إلى . . . الخ(٢) » ، وأقول : « وتشبيهات ابن المعتز - والتشبيه لون من ألوان التصوير - أكثرها تشبيهات حسية يستمدها من بيئته ، وقلما يعنى بتصوير الوجدانيات والعقليات ، لأن خياله كان ثريا بالالوان المادية للحياة المترفة التى شاهدها وعاش فيها(٣) » .

فيقول السيد الكريم فى كلامه على التصوير فى شعر ابن المعتز : « يستعين على مذهبه بالحس أكثر من الاستعانة بالتفكير ، ويصـــور الشىء ملوسا محسوسا(٤) » ، ويقول : « ومذهبه فى الشعر مذهب تصويرى واقعى يصور فيه ما يراه بعينه الخ(٥) » . . اتحاد فى الفكرة وتفاصيلها ينم عن أشياء .

٥ — وأختتم كلامى عن الموشحة المنسوبة لابن المعتز بنفى نسبتها إليه ، وفى آخر كلامى فى ذلك الموضوع أقول عن الشاعر : « ليس - ابن المعتز - فقيراً فى فنه الشعرى ومجده الأدبى ، حتى يكون بحاجة إلى مجد جديد لم تقلده إياه ملكاته وأعماله وأدبه(٦) » . فيبدأ الأستاذ حديثه فى نفى نسبتها إليه بقوله(٧) : « ولن تهب ابن المعتز أكثر من قدرته وطوله » . الفكرة هى الفكرة ، والأسلوب قريب جدا .

ويستمر الأستاذ الفاضل فى ترديد نفس أفكارى فى هذا البحث - بحث الموشحة - ، أقول أنا : « إنها(٨) بعيدة عن روح الشاعر وعواطفه ؛ ولا تمثل شيئا من نظراته فى الحياة ، وفنه الادبى فى نظم القريض ، وليس فيها تشبيه واحد من التشبيهات التى عرف بها ، وليس فيها شىء من خصائص فنه فى الشعر ؛ وعندما تقرؤها تجد أنك قد انتقلت إلى جو أدبى بعيد عن جو ابن المعتز الأدبى وسماته الفنية » ، فيقول الاستاذ الفاضل : « وهناك فى طبيعة الاختصاص بفن ما يثبت أنها ليست له ، وذلك أنه قلما يخلو واحد من الشعراء والكتاب من ألفاظ يديرها فى شعره ، أو معان يحلو له أو تعلق بنفسه فيكررها ، أو أساليب تروقه فيعيدها ؛ والموشحة خلو مما اختص به ابن المعتز من معان ، ولا تتصل

---

(١) ١٥٠ ى (٢) ١٥١ ى (٣) ١٨١ ى (٤) ٤٤ ه
(٥) ٤٩ ه (٦) ١٧٩ ى (٧) ١٤٧ ه (٨) ١٧٧ و ١٧٨ ى

بفنه فى النسج(١) » .

الفكرة هى الفكرة ، وهى فكرة خاصة لا عامة ، ولم يعرض لها أحد من الباحثين قبلى . فليس ثمة شك فى أن الاستاذ قرأها فى كتابى فصاغها صياغة حاول أن يبعد عن أسلوبى فيها .

٦ — وأذكر فى كتابى - ص ٢٢٦ - أن أسلوب ابن المعتز فى سهولته يتفق ومدرسة المحدثين الادبية ، فيذكر هو(٢) أن دفاع أبى الفرج عن الشاعر فى السهولة أشبه بدفاع المدرسة الجديدة مدرسة المحدثين . فكرة واحدة ، وأسلوب واحد ، وهذا شىء عجيب حقا .

ألست أيها القارىء معى بعد ذلك فى كل ما أذهب إليه ، وأومن به من أن كتابا صدر فى القاهرة عن هذا الشاعر عام ١٩٤٩ لا بد أن يكون قد احتذاه وتأثره به وقرأه مؤلف كتاب آخر فى الموضوع نفســه نشر فى بيروت عام ١٩٥١ .

إننى أجل الأستاذ الأهل وأقدره ، وليس هذا النقد للهدم ولكنه للعتاب ، وكنت فى غنى عن نشره لولا أن الأستاذ الأهل أنكر كل شىء ، وحاول أن يلقى التهم دون حساب ، وادعى أننى اطلعت على مقالة أو مقالتين نشرهما عن ابن المعتز فى مجلة دار العلوم كما يقول ، وكان يجب أن يعرف أن كتابه لم ينشر إلا عام ١٩٥١ ، ولم يعلم به أحد قبل نشره ، ولم يكن له أصل مخطوط فى مكتبة عامة ، كما كان الحال فى كتابى .

والأستاذ الأهل يدعى الزعامة الأدبية فى مصر ولبنان ، وأنا لا أنافسه فى هذه الزعامة ، وليس لى غرض فى نقد أوجهه له ، ولكنه تقرير للحقائق الادبية وللتاريخ العلمى المعاصر ، ودفاع عن أعز ما يملكه الإنسان ، عن حق ملكية الاديب لآرائه وأفكاره وبحوثه ومؤلفاته ، وإن كان هذا لا يحول بين أى باحث أن يأخذ عنها وينقل منها ما يشاء ، ما دام يتبع المنهج العلمى المسلم به ، فيشير إلى ما أخذ من رأى ، ونقل من فكرة ، واقتبس من دراسة ومنهج ... وعلى ضوء هذه الحقائق أناقش الأستاذ الأهل ، وإن كنت فى الوقت نفسه أجله وأقدره .

---

(١) ١٤٨ ‍ه (٢) ١٣ ‍ه

الفرق مع ذلك كله بين الكتابين واضح :

وأخيرا لانجد مجالا للموازنة بين كتابين :

١ — أحدهما دراسة علمية منظمة ، بمصادرها التى تبلغ نحو خمسمائة مرجع أثبت فى آخر الكتاب بعضها مما يبلغ نحو المائتين (١) ؛ فضلا عن تسجيل مرجع كل فكرة أو رأى فى ذيل الصفحات بذكر اسم الكتاب وجزئه ورقم صفحته ، وهذه الدراسة فى ٤٠٠ صفحة من الحجم الكبير .

أما الكتاب الآخر فيقع فى ١٩٦ صفحة ومصادره المذكورة فى آخر الكتاب ٥٧ مرجعا وهى بشهادة المؤلف كل مصادره ، ويتفق أغلبها مع مصادرى . وقد جرى فى أثناء بحثه على أن لا يشير إلى أى مرجع فى ذيل الصفحات اللهم إلا نادرا ، ففى الصفحات من ٥ - ٢٨ من كتاب الأستاذ الفاضـــل لا يذكر أى مصدر فى الهامش ، اللهم إلا مرة واحدة فى هامش صفحة ٩ حين ذكر قانون المصادرات وكتب فى الهامش مانصه : انظر كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف . . وبعد ذلك لانجد ذكرا لمرجع إلا فى هامش صفحات قليلة ، كان كل ماذكره فيها اثنى عشر مرجعا فى ثنتى عشرة صفحة ، أى فى كل صفحة من هذه الصفحات ذكر لمرجع واحد (٢) فأين هذا ياسيدى من بحثى الذى لم تخل صفحة واحدة منه إلا نادراً من ذكر لعديد المراجع بأسمائها وأرقام صفحاتها وبيان أجزائها ، بل إن فى صفحة واحدة مثل صفحة ٢٧ من كتابى ذكرا لأكثر من ثلاثين مرجعا .

---

(١) راجع ص ٣٨٤ ى - إذ ذكرت أن هذه المصادر جزء قليل من المصادر التى رجعت إليها ، وقد أشرت فى ذيل الصفحات إلى مصادر لم أشر إليها فى آخر الكتاب إيجازا ، وطويت ذكر باقى المراجع لتنوعها .

(٢) وهذه الصفحات هى ٣٣ و ٤١ و ٥٢ و ٨٧ و ٩١ و ٩٧ و ١١٠ و ١٢١ و ١٢٦ و ١٥٦ و ١٦٨ و ١٧٩ و ١٩٠ . . أما فى ص ٨٩ فقد ذكر فى هامشها كلمة نسبها إلى كشاجم فى كتابه أدب النديم كما يقول ، وفى صفحة ١٥١ قال فى هامشها : مقدمة ابن خلدون فى فصل الموشحات ، وفى ص ١٦٥ قال فى الهامش مانصه : أمثال الميدانى ، وفى هامش ص ١٦٩ قال : انظر فن القول ، دون ذكر لرقم واحد فى هذه المواضع .

٢ — وكتابي أتحدى السيد الكريم أن ينقد رأيا من آرائه ، أو يكذب مرجعا من مراجعه ، أو يخطىء مسألة من مسائله أو بحثا من بحوثه ، اللهم إلا فى تحريف مطبعي يكون قد فاتنى تصحيحه ؛ على أنه قد نوقش مناقشة علمية وفازفيها ، بينما هناك ماخدش الاستاذ الفاضل إذا اعترف بأن فى كتابه فصلا كتبه صديق له فى القاهرة وأرسله إليه فضمه إلى الكتاب دون أن يشير إلى اسم من كتبه له (١) .

٣ — بل إن الاستاذ الأهل لم يتحر الدقة العلمية فى كتابه فى قليل ولا فى كثير : يقول الأستاذ فى بيت ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق

مانصه (٢) : وصاحب العمدة يقول ليس فى هذا التشبيه إصابة ، فإذا رجعنا إلى العمدة نجد ابن رشيق فيها (٣) يوازن بين هذا البيت وبيت امرىء القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل

ويقول : إن مثل بيت ابن المعتز أحب من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرىء القيس وإن كان تشبيهه — أى امرىء القيس — أشد إصابة ، فالبيتان كما يفهم من قول ابن رشيق قد اشتركا فى الاصابة وزاد بيت امرىء القيس على الآخر فى هذه الصفة — أى فى دقة التشبيه — بدلالة أفعل التفضيل فكيف يقول عاقل له أى دراية بالادب وعلوم العربية إن ابن رشيق يقول إن بيت ابن المعتز : ليس فيه إصابة ؟

ويسمى الاستاذ فى كتابه غزل ابن المعتز البعيد عن المجون بالغزل العلمى (٤) ولا ندرى أيوافقه على هذه التسمية أديب ؟

٤ — ويقول الاستاذ (٥) : قال ابن رشيق فى معرض المفاضلة بين طبقة ابن المعتز : وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيفا من ابن المعتز ، وصحة الكلام ، تصنيعاً لا تصنيفا ، وليس هذا الكلام قد أتى به فى مقام المفاضلة بين طبقة ابن المعتز ، ولم يجر ذكر لطبقته فى هذا الكلام ، والمفاضلة بينه وبين شعراء طبقته هو التعبير الاصح ، وهى أيضا لاتكون بحكم يصدره ناقد على صنعة الشاعر وتفننه فى ألوان البديع فحسب

٥ — ويقول الاستاذ : وابن المعتز (٥) يحفل بالبديع ، وإنما يقتصد فيه ولا يسرف إسراف أبى تمام فلا يكون ممقوتا ولكنه وقع مع تحرزه وحذره فى ابتكارات ضعيفة . . . وهذا الاسلوب ليس أسلوب أديب مطبوع وكاتب يريد أن يتزعم

---

(١) مجلة الاديب عدد يوليو ١٩٥٢ — وراجع هذا الفصل فى ص ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ وهو فى بحث التصوير (٢) ٣٥ ص (٣) ٢٠٤ ج ١ العمدة .
(٤) ٧٤ ص (٥) ٣٢ ص .

على الكتاب ويدعى أنه يفهم الادب ويتذوقه .

٦ - وأقول فى صفحة ٢٨٨ من كتابى : وقال عبدالملك بن صالح الرشيد لما سأله عن ليل منبج : سحر كله ، وفى البيان والتبيين : سئل رجل : كيف ليلكم ؟ فقال سحر كله ، وقال أبو تمام :

أيامنـــا مصقولة أطرافها بك والليالى كلها أسحار

أخذه ابن المعتز فقال :

يارب ليـــل سحر كلـــه مفتضح البـــدر عليل النسيم

هذاماقلته فى هذه المسألة فقال الأستاذ الأهل(١): وقوله - أى ابن المعتز - يارب ليل سمر (٢) كله ، أخذه من قول عبد الملك بن صالح وقد سأله الرشيد عن ليل منبج فقال : سحر كله ،وهذا مثل واحد صغير يدل على الفرق بين الكتابين والمؤلفين

البحث الأدبى والأمانة العلمية[٣]

الأمانة العلمية أول واجب على المؤلف الذى يرجو أن يكون لتآليفه التقدير ، وهى روح العلم يتسم بها العلماء ، ليكون عملهم عن إخلاص له ، وتفان فى سبيله ؛ والصفة الأولى لعلمائنا السالفين ، فى عصور لم تكن فيها المطابع ولا الطباعة ، وكانت الكتب كلها مخطوطة بعيدة عن جمهور القراء ، وكان يسهل — على من يريد — الأخذ والنقل منها ، ومع ذلك لم ينتهب أحد منهم كتابا لعالم قبله .

والأمانة العلمية لا تزال أول ما يوصى به اليوم الأستاذ تلميذه ، والعالم مريديه ، والباحث إخوانه . وتتجلى فى أروع مظاهرها فى محراب العلم فى الجامعات والمعاهد العلمية . فلا يذكر المؤلف رأيا إلا ذكر صاحبه ، ولا يقتبس جملة إلا أشار إلى مصدرها ، ولا يحتذى باحثا سبقه إلا نبه على هذا الاحتذاء .

أقول هذا كله اليوم بمناسبة إغارة علمية جريئة ، حدثت مؤخرا . فلقد سبق أن أوليت ابن المعتز عناية خاصة منذ انتظمت بقسم الأستاذية فى كلية اللغة العربية

---

(١) ١٦٥ ه‍ (٢) ذكرها الأستاذ بالميم لا بالحاء .

(٣) عن مجلة المقتطف عدد يوليو ١٩٥٢

فى سبتمبر عام ١٩٤٠ . فعكفت على بحث جوانب شاعريته وأثره الأدبى وتراثه فى النقد والأدب والبيان ، ودبجت فصولا ودراسات عدة عنه من ذلك الحين . ظهر أثرها فيما بعد فى شرحى لكتاب البديع لابن المعتز الذى طبعته مطبعة الحلبى عام ١٩٤٥ ، وفى رسائل ابن المعتز التى ضاعت على مر الأيام ولم يجمعها أحد قبلى ، فقمت بجمعها من بطون الكتب المخطوطة والمطبوعة ، ورتبتها وعلقت عليها ونشرت معها جزءا من كتاب مفقود لابن المعتز « سرقات الشعراء » وجزءا من كتاب آخر له مفقود هو « الفصول القصار » . ونشرت كل ذلك فى كتاب بعنوان « رسائل ابن المعتز فى الأدب والنقد والبيان » وقد طبعته مطبعة الحلبى أيضا فى مارس عام ١٩٤٦ . وعلى ظهر غلاف هذا الكتاب نشر ما يلى : « تحت الطبع : ابن المعتز — رسالة فى حياته وعصره وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ، تأليف محمد عبد المنعم خفاجى » . وهذه الرسالة كنت قد ألفتها عام ١٩٤٥ ، وقدمتها لكلية اللغة لنيل شهادة الدكتوراه — العالمية من درجة أستاذ فى الأدب والبلاغة — ، . وهـــذه الشهادة هى أعلى شهادات الأزهر العلمية ، ومن المعروف أن الرسالة المقدمة للمناقشة يقدم منها صاحبها نسخا عديدة لكليته ، وتكون فى أيدى الأساتذة قبل المناقشة بزمن طويل . وهذا ماحدث فقد نسخت عام ١٩٤٥ من هذه الرسالة إحدى عشر نسخة — بعضها على الآلة الكاتبة — للمناقشة ، ونوقشت فيها فى ٥ أكتوبر ١٩٤٦ ونلت بها هذه الدرجة العلمية ، وقدمتها لدور النشر لطبعها من ذلك الحين .

وفى عام ١٩٤٨ نشرت كتابا صغيرا عن ابن المعتز عنوانه « التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى » ، وهو محاضرة لى ألقيتها فى كلية اللغة العربية فى ٤ إبريل عام ١٩٤٥ . . ومن الجدير بالذكر أنى كتبت مقدمات عن ابن المعتز فى صدر شرحى على كتابه «البديع» وفى صدر « رسائل « ابن المعتز » تعد أوفى ما كتب عن ابن المعتز وقت ذاك .

وشاءت الظروف أن انتهى من طبع رسالتى عن ابن المعتز فى يونيو عام ١٩٤٩ حيث طبعتها مكتبة الحسين التجارية فى أربعمائة صفحة بعنوان « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » . وكان ظهورها حدثا أدبيا كبيرا ظهر صداه فيما نشرته عن هذا الكتاب عام ١٩٤٩ الصحف والمجلات العلمية والأدبية وحوليات

الثقافة والهيئات العلمية المختلفة(١)

أقول هذا كله أسفا على الأمانة العلمية التى تخلى عنها طائفة من كتاب اليوم، فلقد قرأت للاستاذ عبد العزيز سيد الأهل كتابا بعنوان «يوم وليلة» نشرته دار الكشاف فى بيروت عام ١٩٤٩ عن خلافة ابن المعتز التى لم تمكث غير يوم وليلة . وما كتبه فى هذا الكتاب لا يخرج عما سجلته فى فصل كبير من فصول رسالتى السابقة .

ثم وقع لى كتاب آخر بقلمه عن ابن المعتز نشرته دار العلم ببيروت فى نحو ١٩٦ صفحة ، وتاريخ نشره هو عام ١٩٥١ ، أى بعد ظهور كتابى الضخم عن ابن المعتز بعامين ، وعنوان هذا الكتاب «عبد الله بن المعتز أدبه وعلمه» . وقد اطلعت على هذا الكتاب فوجدت جل آرائه وبحوثه ودراساته مأخوذة من كتابى الذى لم يشر إليه . ولم يذكره بكلمة واحدة . ومن الغريب أن منهج الأستاذ فى كتابه هو نفس المنهج الذى سرت عليه فى كتابى تماما . وأنه عند ما يحتاج إلى ذكر مرجع فى أسفل صفحات كتابه ينقل من كتابى مايشاء ، فضلا عن أنه أخذ كثيرا من كتابى «رسائل ابن المعتز فى الأدب والنقد والاجتماع» دون إشارة إليه . وهذه الرسائل لم يجمعها أحد قبلى وكل جملة منها منقولة من مصدر أشرت إليه .

والغريب أننى ناقشت الأستاذ الفاضل فى هذه المعركة العلمية على صفحات مجلة الأديب البيروتية . فكان رده على كلمتى أنه ألف كتابه عام ١٩٤٢ ، وقرأ منه فصولا على أصدقائه ، وبعث بمقالة منه إلى مجلة الرسالة فلم تنشر ، وكتب فى مجلة دار العلوم مقالتين عن «تحقيق مدينة سر من رأى» و «ابن المعتز والقمر» وظن بهذا التلبيس أنه يستطيع أن يتفادى الحقائق المادية الساطعة التى أشرت إليها آنفا

فقد كان عليه — وهو يكتب عن ابن المعتز — على أقل تقدير أن يلم بما صدر عن ابن المعتز من دراسات قديمة وحديثة وأن يشير إليها ، وأن ينبه على جميع مايأخذ منها من آراء وبحوث وأفكار ، ليكون تأليفه متسما بالروح العلمى النزيه بدلا من أن ينتهب من أفكار غيره مايشاء مع تعمد الاخفاء .

---

(١) فى كتاب «بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى جزء ١ و ٥ كلام كثير عن هذه الكتب وتاريخ تأليفى لها وأثرها فى محيطنا العلمى والأدبى .

حقوق البحث العلمى [1]

يعرف الباحثون أن ابن المعتز كان مجهولا فى باب الدراسات الأدبية جهلا تاما ، حتى أخرجت عام ١٩٤٥ شرحا وافيا لكتابه « البديع » ونشرت عام ١٩٤٦ كتابا عنوانه « رسائل ابن المعتز فى الأدب والنقد والاجتماع » ، وأخرجت عام ١٩٤٨ كتابا ثالثا عنوانه « التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى » ، ثم نشرت مكتبة الحسين التجارية بالقاهرة عام ١٩٤٩ كتابى « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » فى أربعمائة صفحة من الحجم الكبير ، فكان أول كتاب يؤلف فى دراسة ابن المعتز وحياته وجوانب أدبه وشاعريته وتآليفه وشخصيته . وقد وزع الكتاب فى جميع أرجاء العالم العربى ، وكتبت حوليات الثقافة التى تنشر فى القاهرة عنه ، وأشادت به كبريات الصحف والمجلات فى مصر وغيرها .

وهذه الدراسة التى أخرجتها عن ابن المعتز كانت جديدة فى تاريخنا الأدبى وخاصة أن ما كتب عن هذا الخليفة الشاعر كان محدوداً جداً فى القديم والحديث ، رغم أن ديوانه نشر منذ أمد بعيد فى القاهرة وبيروت وأن كتابه « فصول التماثيل » نشر من عام ١٩٢٥ ، وكتابه « البديع » نشر بعد ذلك بحين وكتابه طبقات الشعراء طبع منذ حين قريب فى أوربا ؛ وللدكتور طه حسين بحث ممتع عن ابن المعتز نشر فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » ، وإن كان هذا البحث محدوداً جداً .

ولكننى فى العام الماضى وقع فى يدى كتيب صغير عنوانه : « يوم وليلة ـ خلافة ابن المعتز » نشرته دار العلم ببيروت للاستاذ عبد العزيز سيد الأهل ، فأسفت جد الأسف لأن المؤلف عد نفسه مبتكراً بكتابته عن ابن المعتز : وسكت لأن هذا الكتيب اكتفى صاحبه بأن كتب عليه « قصة تاريخية » وكان موضوعه « تاريخ خلافة ابن المعتز » وهو أحــد الجوانب التى بحثتها بحثا كاملا فى حياة ابن المعتز فى كتابى عنه

ومنذ أيام وقع فى يدى كتاب آخر عنوانه « عبد الله بن المعتز أدبه وعلمه » للاستاذ عبد العزيز الأهل المفتش بالمعارف المصرية والمدرس بالكلية العاملية

---

(١) عن مجلة الأديب التى تصدر فى بيروت ـــ عدد يوليو ١٩٥٢

بيروت ، وقد نشرته دار العلم للملايين ببيروت ، عام ١٩٥١ فى ١٩٦ صفحة فأقبلت على الكتاب أقرؤه ، فاذاهو صورة لكتابى « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » الذى طبع من قبل فى القاهرة عام ١٩٤٩

والمؤلف الفاضل فى كل باب من أبواب بحثه يأخذ ما كتبته فى كتابى ويقلب صورته ويخفى معالم الأخذ ، سواء فى دراسته لحياة ابن المعتز أو لشعره أو لنثره أو لشخصيته وقد يأخذ نفس عناوينى فيضعها عنوانا فى كتابه . ومع ذلك يوهم الناس فى مقدمة كتابه بأنه صاحب ومبتكر ذلك كله .

والمؤلف الفاضل لا يريد أن يذكر للناس شيئا ماعن كتاب ظهر قبل كتابه عن ابن المعتز وينكر كل الإنكار أن يكون أحد قد درس ابن المعتز قبله ، فهو لا يشير فى مصادر كتابه إلى كتاب من كتبى ، وحين يعرض فى كتابه لكتاب ابن المعتز « البديع » يذكر فى الهامش أنه نشره كراتشوفسكى وأعيد طبعه فى القاهرة ، أعيد طبعه فقط لا غير . ثم هو يأخذ من كتابى « رسائل ابن المعتز » أشياء كثيرة دون أن يشير إليه ولو بحرف واحد . . وإذا درس موشحة ابن المعتز نفاها عنه بنفس الأدلة التى نفيت نسبة الموشحة لابن المعتز من أجلها .

إن الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل حر فى أن يكتب عن ابن المعتز أو لا يكتب وإنه لو كتب عشرة من الباحثين عشرة كتب عن ابن المعتز لا يكون فى ذلك شىء ما ، ولكن المؤلم أن يكتب كاتب كتابا هو صورة تامة لكتاب ظهر من قبل وكل أفكاره وموضوعاته وآرائه مأخوذة عنه ومع ذلك يمضى فى جرأة بالغة دون أن يشير إلى الكتاب الذى أخذ عنه ، أو على الأقل الذى رجع إليه .

إنى أعرض الأمر أمام ضمير الأدباء ليروا رأيهم فى هذه الجرأة النادرة التى لا يستبيحها لنفسه من ينتسب إلى الأدب ، وإنه لا ضير على فى أن يكون أديب قد فعل ذلك لو أنه تفضل فاشار إلى الكتاب الذى نقله نقلا ، واحتذاه احتذاء فى كتابه . ولو إشارة موجزة . . أما أن يمضى الرجل فى مسلكه العجيب ، لا يحب أن يعترف بشىء مما فعل فذلك ما أعاتبه عليه ، ولا أوافقه فيه .

إنى لم أعرف الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل من قبل ، وأحب أن أقول إننى يسعدنى أن يكون هذا الاستاذ الكريم فى الذروة من الفضل والإنتاج ، ولكننى أشكوه إلى نفسه ، واتركه له الحكم وأعوذ بفضله من زلة لا يقبلها طبع الأديب وينفر منها خلق الباحثين .

الحقائق الأدبية وحدها

قرأت(١) تعليق الأستاذ «عبد العزيز سيد الأهل» على كلمتى المنشورة فى الأديب الغراء فى عدد يوليو الماضى .

وللأسف لم أجد فيه أى دليل على ينفى أنه نقل كتابى المطبوع فى القاهرة عام ١٩٤٩ نقلا منظما فى كتابه الذى أصدره ببيروت عام ١٩٥١ .

إن كل ما يردده الأستاذ فى تعليقه أنه ألف كتابه وحمله إلى المطبعة فى صيف عام ١٩٤٣ فلم يجد ناشراً له ، وأنه كان يقرأ بعض فصول منه على أصدقائه ومنهم الأستاذ محمود رزق سليم الأستاذ معى بكلية اللغة وسواه وظل الكتاب مخطوطا لديه حتى عام ١٩٥١ . فهل هذا دليل ينفى النقل ؟ ، ولم لا يكون الاستاذ عبد العزيز الأهل جريئا فى الاستشهاد بمن استشهد بهم من الأموات والأحياء جرأته على كتابى .

إن الأستاذ يفر من المعركة ، ويريد أن يقلب الحق باطلا ، وأن يتهمنى أنا .. وأنا أحيـــله إلى كل من ذكر من أصدقائه ليسألهم واحداً واحداً : هل أخبرنى أحد منهم أن الاستاذ «الأهل» لديه مؤلف مخطوط بقلمه عن ابن المعتز؟ مع أنهم أصدقاؤه لا أصدقائى فمحال أن يكذب عليه أحد منهم ، وأحيله على صديقه وصديقى الاستاذ محمود رزق ليسأله هذا السؤال أيضا . مع أنى لم أزامل الاستاذ «رزق» فى الكلية إلا من أكتوبر ١٩٤٨ وهو تاريخ نقلى إلى كلية اللغة العربية ، ومع أن كتابى مؤلف من عام ١٩٤٥ كما سيرى القارىء فيما بعد .

فكيف يمكن يا سيدى الكريم أن أكون أنا قد أخذت منك أفكاراً كتبتها أنت وهى فى ضمير الغيب لم تنشر ولم يطلعنى عليها إنسان .

يقول الاستاذ عبد العزيز سيد الأهل إنه أرسل مقالا من كتابه إلى مجلة الرسالة فلم ينشر . فهل هذا دليل على أنى أخذت من كتابه ؟ أو ينفى عنه ما وجهته إليه .

---

(١) مجلة الأديب اللبنانية .

ويقول إنه نشر فى مجلة دار العلوم تحقيقا لمدينة « سر من رأى » ، ومقالا آخر عنوانه « ابن المعتز والقمر » . فهل هذان البحثان يا سيدى — على فرض أنى اطلعت عليهما وأنهما قد نشرا حقيقة — هما اللذان اتهمك من أجلهما بالإغارة الجريئة على كتابى ؟ إنه من حسن حظى ياسيدى أن كتابى خال خلواً تاماً من أى تحقيق عن : « سر من رأى » ، وخال أيضا من أى حديث عن : « ابن المعتز والقمر » .

ويقول الاستاذ « الأهل » إن فى الجامعة رسالة قدمت للدكتوراه قدمتها دكتورة على ما يظن . وإذا كانت هناك رسالة حقيقة عن ابن المعتز قدمت للدكتوراه فلم لم يطلع عليها الاستاذ « الأهل » ؟ ولم لم يشر إليها فى مراجع كتابه ليكون بحثه على أدق مناهج البحث العلمى . والواقع ياسيدى القارىء أنى أنا الذى قدمت كتابى « ابن المعتز وتراثه فى الادب والنقد والبيان » إلى كلية اللغة العربية فى صيف عام ١٩٤٥ لأنال به الدكتوراه ونوقشت فيه فى ٥ أكتوبر عام ١٩٤٦ ونلت به هذه الدرجة . ولو كان هناك أحد كتب عن ابن المعتز قبلى لسرنى أن أرجع إليه وأنوه به فى مراجعى ، وأشير إليه فى مصادر كتابى .

ولعله إذا علم ذلك يدرك أن تاريخ ٧ يونيو ١٩٤٩ الموجود فى آخر كتابى « ابن المعتز وتراثه » ، هو تاريخ انتهائى من طبع الكتاب لا تاريخ تأليف الكتاب ، فتاريخ تأليفه هو عام ١٩٤٥ ، وبذلك يسقط ما ذكره من أنى أنا الذى أخذت عنه

ويعود الاستاذ « الأهل » فيقول إننى لم أطلع على كتاب « تباشير السرور لابن المعتز » قبل أن أسطر كتابى عن ابن المعتز . . . وما دخل ذلك يا سيدى الكريم فى نفى كلامى . بل ماهو دليلك على أنى لم أطلع عليه ؟ أليس فى ذلك جرأة على الحقائق وعلى الناس ؟

ويعود أخيراً فيرمينى بأنى لا أعرف بالضبط بعض أسماء كتب عن ابن المعتز مثل كتاب ابن المعتز الذى سميته « طبقات الشعراء المحدثين » . اللهم إن هذا منطق لا يقبله عقل ، ولا يوافق عليه إنسان ، وإنى لأقول للأستاذ الأهل إن نسخ هذا الكتاب التى فى القاهرة أكثر مما ذكر وإن حديثى عنه فى كتابى « ابن المعتز

وترائه » . هو أوفى حديث فليرجع إليه القراء ليحكموا بيني وبين الاستاذ « الأهل » وليروا إن كنت أعرف اسمه أو لا أعرفه .

وبعد فإني أقول للاستاذ الأهل إن كتابي « ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان » قد انتهيت من تأليفه عام ١٩٤٥ وأودعت نسخة خطية منه في مكتبة كلية اللغة العربية ونوقشت فيه في الكلية عام ١٩٤٦ وطبع عام ١٩٤٩ أما كتابه فلم يظهر إلا عام ١٩٥١ ، ومع ذلك فكل أفكاره وبحوثه وبعض عناوينه صورة منقولة من كتابي . فكيف استباح لنفسه ذلك دون أي إشارة إلى وإلى كتابي . هذه هي القضية التي يحـــاول الاستاذ الأهل الفرار من الحديث فيها .

قضيــــة أدبية

تاريخ أدبي يجب أن لا ينسى

قلت(١) في أعداد سابقة من مجلة الأديب ، ولا زلت أقول : إن الاستاذ الاهل تجنى على الامانة العلمية والادبية ، حين ألف كتابا عن ابن المعتز نشر في بيروت عام ١٩٥١ سماه « عبد الله ابن المعتز أدبه وعلمه » كان مصدره الاول والاخير فيه هو كتابي « ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان » الذي انتهيت من تأليفه عام ١٩٤٥ ونوقشت فيه أمام لجنة علمية في ٥ أكتوبر ١٩٤٦ ومنحت عليه شهادة الدكتوراه (الاستاذية) من كلية اللغة العربية بالقاهرة ، وأودعت منه نسخة خطية في مكتبة الكلية للاطلاع العام ، وطبعته مكتبة مشهورة في القاهرة وانتهت من طبعه في يونيو عام ١٩٤٩ ، وكتبت عنه المجلات والصحف وحوليات الثقافة في مصر ، ووقع كتابي في نحو ٤٠٠ صفحة من الحجم الكبير ، في حين أن كتاب الاستاذ الاهل يقع في ١٩٦ صفحة . ومع ظهور كتابي قبل كتاب الاهل بعامين فإنه لم يشر إليه ولا إلى كتب ثلاثة أخرى كتبتها ونشرتها عن ابن المعتز عام ١٩٤٥ و ١٩٤٦ و ١٩٤٨ من القاهرة ، وهي : شرح البديع لابن المعتز ، ورسائل ابن المعتز في النقد والادب والاجتماع ،

(١) الاديب نوفمبر عام ١٩٥٢ .

والتشبيه في شعر ابن المعتز وابن الرومى . لم يشر إلى هذه الكتب كلها أو بعضها في ثنايا كتابه ، ولا في ثبت مصادره . مع أنه اقتبس منهجى في بحثى وشتى أفكارى ودراساتى وشواهدى وأشياء كثيرة من كتابى « رسائل ابن المعتز » وكل ما يعتز به دارس باحث ، وضمن كل ذلك كتابه الذى نشره عام ١٩٥١ . وكانت مكتبة الخانجى المشهورة هى التى تتولى توزيع كتابى فى جميع البلاد ومنها بيروت .

وأنا فى ذلك إنما أسجل الحقائق الادبية ، دون أن أعمد إلى تنقص الاستاذ الاهل فى قليل ولا فى كثير ، وكان يكفينى أن يعرف الناس أن كتابا ظهر فى القاهرة عن ابن المعتز عام ١٩٤٩ ، فظهر كتاب فى الموضوع نفسه يسير على منهج الكتاب الاول ويتضمن شتى أفكاره وبحوثه فى بيروت عام ١٩٥١ . ولو اعتذر الأستاذ الأهل بأنه نسى أن يضع اسم كتابى — أو كتبى الأخرى — عن ابن المعتز فى ثبت مصادر كتابه ، أو أن المطبعة نسيت ذلك ، لما ضره ذلك ، ولقبلت عذر أديب كريم عزيز على نفسى .. ولكنه أخذ يجادلنى على صفحات مجلة الأديب جدلا ليس له جدوى :

١ — فمرة حاول التشكيك فى أن كتابى ظهر على الناس مطبوعا عام ١٩٤٩ وذكر أن هذا التاريخ الموجود على الكتاب قد يكون تاريخ تأليفه لا طبعه . ليخرج من ذلك كله بأن كتابى طبع بعد عام ١٩٥١ . أى بعد ظهور كتابه هو ، فأكون أنا الذى احتذيت كتابه .

٢ — ومرة يذكر أن كتابه مؤلف قبل ١٩٤٩ بسنوات طويلة ، وأن أصدقاء له فى القاهرة يعرفون ذلك . فقلت : سل هؤلاء الأصدقاء هل أعلمنى أحد منهم بأن لك بحثا ابن المعتز ، فسكت ... وقلت له : ما ذنبى إذا كنت أنت أرسلت مقالة عن ابن المعتز إلى مجلة الرسالة فلم تنشر كما تقول ، أيكون فى ذلك دليل على أنى قرأت لك ما تذكر أنك دبجته عن ابن المعتز ، وقلت له : إنك تقول إن مجلة دار العلوم نشرت لك كلمتين عن « ابن المعتز وضوء القمر » « وتحقيق مدينة سر من رأى » وأنا أؤكد لك أن كتابى خلو من أى كلمة عن « ابن المعتز وضوء القمر » وعن « تحقيق مدينة سر من رأى » ... فكيف إذاً أكون أنا قد اطلعت على شىء مما تدعى أنك كتبته عن ابن المعتز ، وأنى

لو اطلعت على كلمة الك لسرنى أن أشير إليها وإليك فى مصادر كتابى لأن ذلك يكون دليلا على أنى لم أترك أحداً له عن ابن المعتز رأى أو كلمة إلا رجعت إليه وأشرت إلى كلمته ، وأنا باحث مهمته التنقيب والدرس ، فمن الفخر لى أن أكون قد عثرت الك عن شىء كتبته عن هذا البحث وأشرت أنا إليه .. والذى أخرج حتى اليوم أربعين كتابا فى غنى عن أن يكسب مجداً أدبيا زائفا .

٣ — وقال الأستاذ الأهل إن فى جامعة فؤاد رسالة عن ابن المعتز فصححت له هذا الخبر ، وقلت أن الرسالة الوحيدة عن ابن المعتز التى نوقش فيها مقدمها انما هى فى كلية اللغة العربية لا جامعة فؤاد ، ومقدمها هو كاتب هذه الكلمة ، وتاريخ مناقشتها هو ٥ أكتوبر ١٩٤٦ .

٤ — ثم عاد الأستاذ الأهل يهدد برفع قضية ، فسكت لأنه لا يصح لى أن أقول له : أنت حر فيما تريد ، فهو يعرف ذلك ، ويعرف ما يجيش فى نفسه وما هو عازم عليه .

استمر صمتى حينا طويلا ، حيث ذهبت الى كلية اللغـــة فوجدت ورقة من محكمة المطبوعات ببيروت ، فتسلمتها ، وكان ذلك فى أول أكتوبر عام ١٩٥٢ أو قبل ذلك بيوم على ما أذكر ، وكانت المحكمة تدعونى إلى حضور جلسة فى دعوى قذف رفعها الأستاذ علىّ ، وتاريخ الجلسة ٢٨ آب ، وقبل تسلمى رسالة المحكمة قابلنى صديقى الأستاذ محمود رزق ودعانى إلى أن أتصافى أنا والأستاذ الأهل ، فقلت له : إنى أجل الأستاذ الأهل وليس بيننا إلا الصلة الأدبية التى أعرف حقوقها ، وأنا لم أمس الأستاذ الأهل بما ينقص من قدره ، إنما سجلت تاريخا أدبيا أحب ألا ينسى ، والأستاذ الأهل ذكر على صفحات مجلة الأديب فى عدد أول سبتمبر ١٩٥٢ أنه سيرفع دعوى أمام القضاء ، ومعنى ذلك أنه هو الذى لم يرع الصلة الأدبية المقدسة التى يجب أن تظل رباطا يربط الأديب بالأديب ، فقال لى الأستاذ محمود رزق سأتصل بالأستاذ الأهل لأعرف منه الأمر ، وبعـــد ذلك عليك أن تكتب كلمة توضح شعورك الطيب نحو الأستاذ الأهل وتقديرك الكامل له ، فقلت : إنى على استعداد لما تريد

ولما تسلمت رسالة المحكمة بعد ذلك كتبت فى اليوم نفسه رسالة المحكمة قلت فيها :

١ — إننى والاستاذ الاهل مصريان ، فالقضية يجب أن ترفع فى القاهرة ،

والمحاكم المصرية هى المختصة بنظر مثل تلك الدعوى ، دعوى القذف التى رفعها الاستاذ الاهل على .

٢ — وإن ظروفى العامة والخاصة تحول دون حضورى إلى بيروت أثناء نظر الدعوى ، وإنى لا أعرف محاميا فى لبنان أوكله عنى ، على أن مثل هذه القضايا الأدبية لا يكاد يتفهمها المحامى ، والأديب نفسه هو الأجدر بالدفاع فيها .

٣ — فاذا ما أصرت المحكمة على نظر الدعوى فيستحسن أن تحيل الموضوع كله إلى لجنة من كبار الأدباء والعلماء لتنظر فيه وتقدم تقريرها إلى المحكمة ، على أن تتلقى مذكرات منى ومن الاستاذ الاهل .

٤ — فاذا لم تأخذ المحكمة بذلك الرأى فيستحسن أن تقبل نظام تقديم مذكرات باسمى منى شخصيا ، وأن تعرض على مذكرات الاستاذ الاهل للرد عليها .

وهذا كله مع تمسكى بأن تكون الدعوى فى القاهرة لا فى بيروت .
ولما تسلمت نسختى من مجلة الاديب عدد أكتوبر ١٩٥٢ فى اليوم العاشر من الشهر ، من يد صديقى الأستاذ وديع فلسطين ، قرأت فيها كلمة للأستاذ الاهل ، يذكر فيها أنى فررت من المعركة أمام القضاء ، ويدعونى إلى الحضور للبنان فى جلسة يوم ٢٥ سبتمبر !! أو توكيل محام عنى ويهدد بنشر نقد لكتابى « ابن المعتز وتراثه فى الادب والنقد والبيان » .

أما فرارى المزعوم فالاستاذ الفاضل « الاهل » حر فى أن يفهم ما يفهم ، ويتصور ما شاء له عقله أن يتصور .

وأما دعوته لى للحضور فى لبنان أو توكيل محام عنى فأمر عجيب ، بل هو من الاستاذ الأهل منطق غريب ، والاستاذ الاهل المصرى جدير بأن يفهم أن دعواه يجب أن تكون أمام المحاكم المصرية وحدها ، وفى مكان إقامتى أنا ، وحيث يتيسر لى الإدلاء برأيى وحجتى كاملة .

وأما تهديده فلا رد لى عليه ، وإنى فى انتظار ذلك ، وهو - وللاسف - الفرار الحق من ميدان المعركة ، معركة التفريط فى الامانة العلمية والادبية المقدسة .

إننى أقدر فى الاستاذ الاهل اعترافه الصريح بأن فى كتابه فصلا كاملا عن « التصوير باليد » كتبه صديق له فى القاهرة وسجله فى الكتاب دون أن يشير إلى هذا الصديق بكلمة . .

نقد وموازنة :

الربيع والشاعر

هذه قصيدة عنوانها « الربيع » (١) للشاعر الأستاذ حسن جاد ندرسها دراسة نقد وتحليل فى هذا البحث ، قال الشاعر :

ملأ الأفق بهجـــة وبهاء وكسا الأرض زينة ورواء
ضاحك مشرق المبـاسم طلق يتهادى من حسنه خيـــلاء
طاب إصباحـــه فراق صباحا وصفا ليـــله فطاب مساء
باكرت راحه الطيور فراحت تفعم الدوح فرحـــة وغناء
وتناجت به الخمائل سكرى شربت من رحيقـــه الأنداء
وكأن الربى عرائس هبت من كراها تطارد الأغفاء
فتنة تجتلى وظـــل ظليـــل وعبـــير يعطـــر الأرجاء
ياحبيبى هـــذا الربيع فهيا نغتنم صفوه وننسى الشتاء
موعـــد المنى يفيض رغابا وشبـاب يجـــدد الأحقابا
كلما روع الزمان مشيب عاد فى ظله الزمان شبابا
هو روح تنساب فى كل شىء نفسا عاطراً ولحنـــاً مذابا
وحيـاة تدب فى الأرض حتى كاد أن يفصح الجماد الخطابا
وهو للروض زينة من حلاها يرتدى بعـــد عريه جلبابا
روضة للأرواح تستاف ريا ها وساق يشعشع الأكوابا
ياحبيبى وافى الربيع نداما ظماء وباكـــر الأحبابا
وأنا ظامىء الامانى فهيـــا نبتدر ماءه وننسى السرابا
أين أيامنـا البواســـم أينا والربيع الضحوك يحنو علينا
نتناجى والنرجس الغض غيرا ن يسجى عيناً ويفتح عينا
والورود الحسان تسمع نجوا نا وهمس النسيم فى أذنينـــا
رق من شجوه لرقـــة شكوا نا اعتلالا فراح يسرى الهوينى

(١) مقتطف إبريل ١٩٥١ .

والغصون اللدان راحت تحـــاكينا فتذكى الغرام فى مهجتينا
رب غصن أسر نجوى لغصن   فاستحى الورد منهما واستحينا
وانسياب الرقراق فى الروض يشجينا فنصغى له ويصغى إلينا
وكأن الطيور تبتدع الشدو   جـــديداً ككل شيء لدينا
عاد آذر كالضـــحى إشراقا   يترع الكأس للندامى دهاقا
عبقر الفن يلهم الشعر عـــلويا فيطوى خياله الآفاقا
ولقد أيقظ القلوب الغوافى   عن هواها وجدد الاشواقا
يسكر الروح والنواظر مرآ   ه كما يسكر الندى الاوراقا
هام قلبي فى أفقه الطلق نشوا   ن يبارى طير الروابى انطلاقا
ياحبيبى هذا الربيع بساط   للتلاقى يجمـــع العشاقا
تتفانى القلوب فيه ســـلاما   وتذوب الارواح فيه عناقا
سامر مؤنس الرؤى غير أنى   ياحبيبى أفنيته إطراقا
لا أحس الربيع إلا بنفسى   مجتلى بهجة وجلوة عرس
وبروحى أراه لا بعيونى   مطلعا المنى ومشرق شمس
ما الربيع الضحوك إلا أمان   مشرقات تجلو غياهب يأسى
وعبـــير تهفو به نســـمات   إن سرت فتحت مغالق نفسى
ياحبيبى كل الربيع ندامى   تتساقى الهوى وقد جف كأسى
كل إلف بالفه فى صباح   وأنا موحش الخواطر ممسى
الصبابات لافحـــات بشوقى   والامانى معطـــرات بهمسى
فأعد لى الربيع أنسا وألحا   نآ فما أنت غير لحنى وأنسى

والقصيدة جملة طائفة من الانغام الموسيقية العذبة ، ويزيد فى حلاوة موسيقاها وزنها الجميل ـ الخفيف ـ ، وهذه القوافى المتعددة التى تتعدد بعد كل ثمانية أبيات منها وتعدد القوافى بعد سبعة أبيات جائز عند علماء الشعر ، فمن المعروف أنه يجوز إطلاق اسم « قصيدة » على سبعة أبيات فما فوقها ، ودعاة التجديد الذين يدعون إلى اطراح القافية فى الشعر العربى ، بدعوى أنها قيد يقيد حرية الشاعر فى التعبير عن مشاعره وحقائق الحياة ، جدير بهم أن يسلكوا مسالك التجديد الصحيح ، وأن يقفوا من تراثهم الادبى موقف المعتز المحافظ لا موقف الثائر الناقم ، ومنهج شاعرنا هنا منهج جميل مقبول ، وسبيل عادلة من سبل التجديد ، ونمط ما أجدر شعراءنا المعاصرين

الذين يشكون من قيود القافية العربية أن يسيروا عليه إن أعوزتهم الحيلة ودعتهم الضرورة ، لاأن ينظموا قصائدهم شعرا مرسلا لا يتقيد بقافية ولا يحافظ على تراث الشعر وروحه ومقوماته .. ويطالعنا من ثنايا القصيدة روح ملهم وشاعرية موهوبة وملكات عالية ، وذوق يشعر بالجمال ، ويتأثر به ويتذوقه ، ويجيد التعبير عنه ورسم الصور العالية التى توضح مشاعر النفس ، وخفايا الاحساس ، ودقائق الادراك الذهنى ؛ مع الفطنة الفكرية العميقة بالمعانى ، ومحاولة الابتكار فيها ، وتركيب الصور والألوان والظلال والأشكال ، والوقوف موقف المتأمل فى كل غامضة من غوامض الكون ، وسر من أسرار الحياة ، وخفى من خفايا الفكر والوجود والالهام .. والتجربة الشعرية فى القصيدة قوية نابضة بالحياة ، فالالهام الباطنى الذى سرى فى عقل الشاعر وخياله وروحه وشاعريته ، وأنطقه بهذه الصور الفنية العالية والمعانى اللطيفة الجديدة أوشبه الجديدة ، هو واضح سائد فى هذا الأثر الشعرى ، لاضعف فيه ولا غموض ولا التواء .. وقوة التجربة الشعرية فى القصيدة ووحدتها تدع القارى متمثلا شخصية الشاعر ، لا ينساها ، ولا يلهو عنها ، ولا يشعر بضعف فيها ، كما يتمثل الشاعر الربيع فى قلبه وعقله وأمام عينيه وفى نبضات فؤاده ، وخلجات مشاعره ، وماذا يذكر الإنسان عن الربيع أليس هو بهجة تمــلأ الآفاق ، ورواء يكسو الارض ، ونورا يضىء الكون ، وإشراقا يعم الحياة ، وصباحا طيبا ومساء جميلا ، وطيورا تغرد فى الدوح ، تهتز منه الخمائل فى نشوة ، وتفيق الربى على صوته لتطرد عنها النوم والموت ، وتشاهد فتنته فى كل منظر ، ويعبق أريجه فى كل مكان ، وتنتشر ظلاله فى كل واد ؟ أليس هو شباب الحياة ، وروح الكون وحياة تدب فى كل شىء ، وجمال الروض وزينة مابعدها من زينة ؟ ذلكم هو الربيع كما رآه الشاعر وتلكم هى ذكرياته تذكره بأيامه البواسم فى ظلال الربيع الضحوك ، وبتناجيه مع أحبابه ، والنرجس الغض غيران ، والورد يتسمع النجوى ، والنسيم يهب جميلا رقيقا كأنما أصابه سقم حين سمع شكاة الشاعر لمحبوبته ، والأغصان يعانق بعضها بعضا ، تحاكى الشاعر ، وتذكى فى قلبه لوعة الحب ؛ ومياه النهر تنساب فى الروض تنصت له وينصت هو لها .. ثم يذكر الشاعر الربيع وآذر ، وأنهما يلهمانه الشعر ، ويجددان روحه الشوق ، ويوقظان القلوب الغافية عن الهوى العذرى ، ويذكر الربيع بساط التلاقى بين الأحباب ، حيث تذوب الأرواح فيه عناقا ، وتتعانى القلوب فيه سلاما ، يذكره ويذكر سامره الجميل ، ويذكر أنه هو وحده مع ذلك الجمال

والروعة قد أفنى أيامه فى الربيع مطرقا مهموما . ويدق الشاعر فى الشعور بالربيع وجماله ، فيراه لا فى هذه الأيام الجميلة الضاحكة من آذار ، بل فى إشراق الأمانى الطيبة بقلبه وإشراق السعادة فى نفسه ، وفى وصل حبيبه الذى يعطر قلبه بأريج الهوى والذكريات الجميلة . ويصور لفحات الشقاء التى تهب عليه حتى فى أيام الربيع الضاحكة فتدع خواطره موحشة ، ومشاعره كئيبة حزينة ، وتدعه يفكر ويطرق ، ويناشد حبيبه أن يعيد له الشعور بجمال الربيع حتى يشعر به أنسا وألحانا ومنى عطرات تغمر قلبه ، وتعيد إليه البهجة والمرح والحياة .

صور مونقة مشرقة جميلة كأطياف العذارى ، وألوان من الشعور النفسى العميق بالحياة والربيع ، وفطنة بالغة بالمعانى ما يأخذ منها وما يدع ، واستغراق فى التأمل فى الموضوع الذى يفكر فيه ، وينظم قصيدته من أجله . حتى إذا ذكره جمال الربيع بجمال الحب وشقاء الهجر ، وبذكرياته القـــديمة الرائعة فى ظلال الوصال ، أخذ يشكو ويوجز فى الشكوى ، ويخاطب حبيبه مخاطبة العارف بمكانته فى قلبه ، المتذلل له ليرق ويرضى ، المتضرع أمامه بقداسة الهوى والجمال ، فلم يعنفه ولم يلمه ، ولم ينس أنه عبد وهو مولى ، وإنما خاطبه فى رقة كرقة زهور الربيع ، وفى لطف كلطف نسيمه المعطر بالشذى ، فاستعطفه وذكره بالعهد القديم ، وبثه همومه وأشجانه وإطراقه ، وذكر كأسه الذى جف وخواطره الموحشة الكئيبة ، يذكر هذه المعانى كلها فى حسن معرض ، وبصر بطريق الدخول إليها والخروج منها ، يلوح ثم يعود لموضوعه ، ويلمح ثم يرجع لغرضه ، ويعرض ثم يتذكر أنه أكثر فى مخاطبة حبيبه فيصل بين تعريضه وبين أوصاف الربيع وجماله الملهم العبقرى .

دقة متناهية ، وبلاغة فى حسن اختيار الاسلوب فى المقام الذى يستدعيه ، والغرض الذى سيق من أجله ، وهذا ما نطالب كل أديب وشاعر بتحريه وملاحظته وقصده .. ثم ماذا نجد فى القصيدة وراء ذلك كله ؟

لقد وقفت أمام طائفة من التصورات والمعانى والاخيلة الجديرة بأن يقف أمامها كل إنسان وأن يتأمل فيها ، يقول الشاعر فى الربيع :

طاب إصباحه فراق صباحا　　وصفا ليله فطاب مساء

فنجد صنعة شعرية ، ولكنها صنعة لطيفة دقيقة جدا ، صنعة لا تتكلف ولا

تفرق ، ولا تعقيد فيها ، بل هي العذوبة والرقة والجمال والطبع القادر الموهوب.. وقد يكون إطلاق اسم الصنعة عليها خطأ ، ففي البيت ـ على الرغم مما فيه من ألوان البديع وصوره ـ روح الطبع ، وقوة الشاعرية ، ودقة التصوير ، وحسن الترجمة عما يعتمل في النفس من معان وأفكار ، مع وضوح الاداء واستكمال شتى عناصر التعبير ... ويقول الشاعر :

وكأن الربى عرائس هبت من كراها تطارد الاغفاء

فنجد صورة بليغة ، أو كما يقول علماء البيان تشبيها مركبا دقيقا ، ووجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد ، فقد كانت الربى في الخريف جرداء موحشة قفراء ثم أخذت حين جاء الربيع تتبدى عليها رويدا رويدا ألوان شتى من زينة الطبيعة وجمالها ، وبدأت تفيق من نومها قليلا قليلا ، وعادت تعاودها الحياة ، وتشرق فوقها الأغصان والزهور ، وتطرد عنها إغفاء الخريف وسباته ، فهي كالعروس تنام فينام الجمال ، ثم تستيقظ ، فيستيقظ الشباب والحسن ، وتأخذ تنفي عنها الكرى ، وتنفض آثار النعاس بكفيها .. تشبيه دقيق ، وصورة بليغة مقبولة .. ويقول الشاعر :

كلما روع الزمان مشيب عاد في ظله الزمان شبابا

معنى قديم مطروق للشعراء ، فالربيع كما يقولون شباب الزمان ، والشتاء والخريف أيام للكهولة والمشيب . ولكن الشاعر ألبس المعنى صورة لطيفة ندية ، وكساه هذه الحلة المنمنمة الموشاة ببديع الصنعة والطباق ، فكلما أخذ المشيب من الزمان وروعه عاد الزمان مرة أخرى في ظلال الربيع شبابا وحيوية متدفقة ، ولكلمة « روع » هنا زيادة معنى لطيف ، إذ لا شك أن الإنسان يجزع من المشيب ، فكذلك الزمان يجزع حين يرى الكهولة تخط خطوطها على فوديه .. ويقول الشاعر :

هو روح تنساب في كل شيء نفسا عاطرا ولحنا مذابا

وحياة تدب في الأرض حتى كاد أن يفصح الجماد الخطابا

فنجد الإجمال ثم التفصيل في البيت الأول يقع موقعه من النفس والقلب والشعور ، ونجد وصف الربيع بأنه « نفس عاطر ولحن مذاب » وصفا بارعا ممتعا .. وفي البيت الثاني يعبر عن الربيع بأنه حياة تدب في الأرض فنجده تعبيرا

حسنا مقبولا جميلا .. وإن كان الأسلوب « يفصح الجماد الخطابا » دون أساليبه الأخرى المتمثلة بلاغة وقوة ، تقول أفصح الرجل إذا تكلم بالفصاحة ، وأفصح العجمى إذا تكلم بالعربية وفصح لسانه بها ، فنستغنى بذلك عن ذكر مفعول للفعل ، وجاء فى اللغة : سرينا حتى أفصح الصبح ، وتقول : أفصح الصبى فى منطقه ، وما أشبه ذلك فتجد أفصح لا يذكر بعدها مفعولها ، وكأن الفعل متعد صار لازما ، فأفصح الخطاب بذكر المفعول وإن كان جائزا وعلى تقدير أفصح فى الخطاب إلا أن بلاغة الأسلوب فى حذف المفعول ، إذا ذكره يضعف من بلاغة الفعل المستفادة من عمومه .. والأسلوب مبالغة لطيفة مقبولة ، فقد دبت الحياة فى الأرض أيام الربيع حتى كاد الجماد أن يتكلم ، من أثر الروح القوية الجياشة المتدفقة التى وهبها له الربيع ، ولفظ « كاد » يجعل المبالغة هنا فى منتهى دقتها وروعتها وبلاغتها .. ولفظ « أن » فى « كاد أن يفصح الجماد الخطاب » البلاغة فى تركه وإن كان خبر كاد يجوز اقترانه بأن وعدم اقترانه بهـا ... ويقول الشاعر :

نتناجى والنرجس الغض غيرا ن يسجى عينا ويفتح عينا

صورة عالية دقيقة بليغة ، لم ينظر فيها الشاعر نظرة عامية ، بل نظر نظرة خاصية ، فلم يكتف بذكر غيرة النرجس ، وإنما أضاف إلى ذلك أنه يسجى عينا ويفتح عينا ، يفتح أوراقه ثم يطبقها ، فعل الناظر بعينه حين يرى منظرا ، أو يتجسس على شىء ، وفعل الرقيب حين يرقب ـ فى أدب ـ الأحباء وهم يتناجون ويتهامسون .. ويقول الشاعر فى النسيم زمن الربيع :

رق من شجوه لرقة شكوا نا اعتلالا فراح يسرى الهوينى

النسيم فى الربيع رقيق ، قضية مسلمة لاشك فيها ، والناس يعللون ذلك بعللها الجوية المعروفة ، ولكن الشاعر يعلل رقة النسيم بعلة شعرية أخرى ، فذكر أن النسيم سمع شكوى الشاعر لمحبوبه فبكى وحزن وتألم وأصابه سقم وتغيرت حاله من أثر هذه العلة فرق جسمه ... ويضيف الشاعر إلى ذلك تكلة رائعة للمعنى ، ذلك أن الإنسان وهو مريض لا يستطيع المشى إلا رويدا رويدا ، وكذلك كانت حالة النسيم حين مرض فلم يقدر على السير إلا الهوينى الهوينى . . وبذلك يرسم الشاعر صورة بليغة لامثيل لها فيما رسم الشعراء المعاصرون من صور وفيما نطقوا به

من أساليب ، فهذه الزيادات الكثيرة المتلاحقة على المعنى أضافت إليه حسنا وسحرا و بلاغة ، وكلمة « من شجوه » لطيفة حسنة ... ويقول :

وكأن الطيور تبتدع الشد و جديدا كسكل شيء لدينا

فنجد معانى الشاعر لا يكتفى بأن يعرضها غفلا سطحية عامية مجردة ، بل يضيف إليها ما يكملها ويوضحها ويبين معالمها ، ويعرضها علينا فى أحسن معرض وأجمل وشى وزينة ... الطيور تغرد دائماً ، ولكن تغريدها فى الربيع وفى الروض وفى سمع الشاعر وهو جالس مع محبوبته كأنه جديد لم يسمعه من قبل ، فلذة الشعور بالسعادة المكتملة حينئذ تجعل غناء الطيور فى سمع الشاعر كأنه جديد مبتكر ، وهذه الجدة هى شبيهة بجدة كل شيء لدى الشاعر فى هذه اللحظة التى تغمرها السعادة من كل ناحية ، فالشمس المشرقة ليست هى الشمس العادية ولكنها شمس جديدة ترسل شعاعها دافقا بالحياة ، ليطير بالشاعر إلى السماء ، والزهرة ليست هى الزهرة العادية ، ولكنها زهرة جديدة تحب وتتناجى وتسمع آهات المحبين ، والحياة نفسها فى هذه اللحظات الحالمة هى جديدة حقا وليست هى الحياة العادية التى يشقى بها الإنسان ... ووصف الشاعر للربيع بأنه « بساط للتلاقى يجمع المشتاقا » وصف لطيف بليغ دقيق ، وإن كانت هذه الصورة تذكرنا ببساط الرحمة ، فتدعنا ننفر من وصف الربيع بأنه بساط ؛ ولكن الشاعر بمقدرته البيانية ، يتغلب على هذا النفور ويطرده وينفيه ويدع الصورة تستقر فى القلوب لطيفة جديدة ، فليس الربيع بساطا للرحمة والعزاء ولكنه بساط للتلاقى والوصل بين الأحباء ... ويقول الشاعر :

تتفانى القلوب فيه سلاما وتذوب الأرواح فيه عناقا

فنجد الموهبة الفنية الكاملة المجسمة ، تنطق وتصور وتعبر وتؤثر فى قوة ووضوح أداء ... وبين موكب هذا الجمال الساحر يقودنا الشاعر إلى الحزن العميق ، الحزن الذى سببه إطراق الشاعر والشجو المنطوى عليه قلبه ، فيقول :

سامر مؤنس الرؤى غير أنى يا حبيبى أفنيته إطـــراقا

وكلمة سامر هنا لطيفة الموقع ، فقد أراد بها الشاعر جميع مشاهد الجمال فى الحياة والطبيعة ، فجعلها سامرا ، واستعار لفظ السامر لها ، والسامر مجلس السمار والسمر بالليل ، وهو مجلس يطيب بألوان السعادة النفسية ، ويطلق عامتنا

السامر على كل مشهد رائع ومجتمع بهيج ، وإن كان الشاعر لم يذهب مذهب العامة فى ذلك . ويصف الشاعر السامر بأنه مؤنس الرؤى ، وبأن كل شىء يرى فيــه لطيف جميل مؤنس تتطلع إليه العيون ، ومع ذلك فالشاعر مطرق لايفتح عينا ، ولا يتمتع بمشاهدة هذا الجمال ، ولا يذوق سعادة هذه الأوقات، ولماذا ؟ لأنه حرم السعادة التى كان ينشدها بوصال حبيبه له . . . ويؤكد هذا فيقول :

يا حبيبى كل الربيع ندامى   تتساقى الهوى وقد جف كأسى

ويقول الشاعر :

لا أحس الربيع إلا بنفسى   مجتلى بهجة وجلوة عرس

يقول إنه يريد أن يفرح بالربيع فى قلبه لا فى مظاهر الطبيعة ، يريد أن يرى نفسه فى ربيع الحياة وبهجة الأمل ، وروعة الفرح ، يريد أن يتمثله فى السعادة التى تشرق فى قلبه ويمتلىء بها صدره .. فنجد دقة وعمقا فى الفكرة ..

ومن اللطيف أن ألفاظ الشاعر الموسيقية الحلوة ، تقوى روح هذه القصيدة الغنائية العالية ، وترفع من منزلتها فى البيان .

فإذا ما أردنا أن نوازن بين هــذه القصيدة وقصيدة أخرى فى الربيع ، كقصيدة البحترى :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا   من الآنس حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى   أوائل ورد كن بالامس نوما
يفتقها برد النــدى فكأنه   يبث حديثا كان قبــل مكتما
فن شجر رد الربيع لباســه   عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشــاشة   وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته   يجىء بأنفــاس الأحبة نعما

أو قصيدة أخرى فى الربيع ، كقصيدة أبى تمام :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر   وغدا الثرى فى حليه يتكسر
نزلت مقدمة المصيف حميدة   ويد الشتاء جديدة لا تكفر
لولا الذى غرس الشتاء بكفه   لاقى المصيف هشائما لا تثمر

يا صاحبي تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهـــارا مشمسا قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حل الربيع فإنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نورا تكاد له القلوب تنور

أو قصيدة شوقى :

آذار أقبل قم بنا يا صاح ... حى الربيع حديقة الأرواح
واجمع ندامى الظرف تحت لوائه ... وانشر بساحته بساط الراح
لبست لمقدمه الخمائل وشيها ... ومرحن فى كنف له وجناح
إنى لأذكر بالربيع وحسنه ... عهد الشباب وطرفه الممراح

أو ماسوى ذلك من شتى أوصاف الشعراء للربيع ، طال بنا البحث ، وتشعبت الدراسة ، وهو ما كنت أريده ، لولا الرغبة فى إيجاز القول ، واختصار التحليل ، وقد يتاح لنا أن ندرس فى أوقات أخرى هذه القصائد المتشابهة دراسة نقد وموازنة ، ليعرف الأدباء مناهج الشعراء ، واختلافهم فى الأداء ، والفروق التى تفرق بين لفظ ولفظ ، ومعنى ومعنى ، وسوى ذلك من شتى خصائص الشاعرية المختلفة لدى الشعراء المختلفى المواهب والملكات ... وقد مر بك أن البحترى جعل الربيع يكاد أن يتكلم ، من حيث جعل شاعرنا الجماد فى الربيع يكاد أن يفصح الخطاب ، فكان أكثر مبالغة ، وأكثر إغراقا ، وإن كان المعنى واحداً لدى الشاعرين ، وعاميا معروفا شائعا بين الناس كافة .

وذكر البحترى أن النيروز قد نبه الورود التى كانت بالأمس نائمة فاستيقظت وتفتحت ، من حيث ذكر شاعرنا أن الربى كأنها عرائس هبت من كراها تطارد الإغفاء ، فكانت صورته أجمل وأبلغ وأدق وأكثر امتلاء بالمعانى والخيال وصور البيان ... ويعلل البحترى رقة النسيم بأنه يجىء بأنفاس الأحبة نعيا فى حسن تعليل ضمنى لا صريح ، من حيث علل شاعرنا حسن جاد رقة النسيم بأنها ومن شجوه لرقة شكوا نا اعتلالا ، فكانت صورته أروع وحسن تعليله أبلغ وبيته أذهب فى عمود البيان وأعلى منزلة عند الناقد ... وهنا نختم الحديث فى هذه القصيدة الجديدة حقا فى وصف الربيع وجماله .

مشكلة اللغة العربية[1]

الأستاذ محمد عرفة عالم جليل ومؤلف ممتاز ، وكتابه « مشكلة اللغة العربية » صورة واضحة لهذه العقلية الواسعة الثقافات .

قرأته حين ظهوره ، ثم أعدت قراءته مرة ومرة ، وهو فى كل قراءة يبدو أمام عينى وفكرى جديداً ، كأنما كتب ليحل مشاكل الساعة التى أنا فيها ، والتى يلمسها كل ناطق باللغة العربية ، أو واقف نفسه على دراستها . ومقياس الخلود العلمى أن تجد الكتاب الذى تقرؤه جديداً أبداً ، وألا يشعر قارئه بأنه يقرأ شيئاً مملولا أو مكروراً ، وأن يحتاج إليه الباحث فى كل وقت ليستضىء به فى حل مشكلات الثقافة والحياة .

وموضوع الكتاب ينم عنه عنوانه « مشكلة اللغة العربية ولماذا أخفقنا فى تعليمها ، وكيف نعلمها » . والمؤلف يضع أمام كل قارىء وباحث هذه المشكلة الخطيرة ، يبحثها ويحللها ، ويبين مناهج تعليم اللغة العربية فى مدارسنا ومعاهدنا ، وكيف أخفقت وأخفقنا نحن معها فى بلوغ أهدافنا المنشودة من ورائها ، ويوضح النتائج الخطيرة لهذا الاخفاق المؤلم ، ويشرح وينقد كل ما يمكن أن يقال بدعوى الاصلاح ، ومنه فكرة ترقية اللغة العامية لتصير أقرب إلى العربية ، ويضع أسلوب تعليم اللغة العربية فى مصر والشرق فى الميزان دارساً وناقداً ، ويضع أصول نظرية جديدة فى تعليم اللغة بواسطة تكوين ملكة للمتعلم فيها وتنمية هذه الملكة وتوجيهها ، ويؤيد هذه النظرية بدراسات واسعة لأسلوب الفطرة فى تعليم اللغات ، ولآثار الملكات فى حياتنا وثقافاتنا ، ولآراء رجال التربية المسلمين والغربيين فى الطريقة المثلى لتعليم اللغات ؛ ويقيم على هذه النظرية الجديدة منهجاً جديداً لتعليم اللغة العربية ، يشرحه ، ويبين فوائده ؛ ويفيض فى بيان الآمال التى ندركها من هذا الأسلوب ، وفى حل كل ما يحيط به من صعاب ، وتذليل كل ما يمكن أن يعترضه من عقبات ؛ مبيناً أن هذه الطريقة هى طريقة العصور الزاهرة لسلفنا الماضين ، وأنها لم تتغير إلا فى عصور الضعف والتأخر العلمى .

---

(١) تأليف الأستاذ الكبير محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء ، صفحاته ٩٦ صفحة ، طبع بالقاهرة .

وهكذا يستمر المؤلف فى دراساته وبحوثه حتى نهاية الكتاب .

هذه هى نظرية الأستاذ وما أقام عليهـــا من مناهج لتعليم اللغة العربية تعليما مثمراً .

وهو يؤمن بأن هذا المنهج الجديد كفيل بأن يجعل اللغة العربية مع مرور الزمن لغة المحادثة والخطاب بين أفراد الشعب كافة ، دون العامية . . فتصير لغة المحـــادثة ولغة القراءة والكتابة واحدة ؛ ويستطيع الشعب كله أن يفهم كل ما كتب باللغة العربية من علوم وثقافات وآداب وفنون ، وبذلك نسترد مجد العربية الذى كان لها فى مشرق النبوة وفى عهد الأمويين والعباسيين . فضلا عن غير ذلك من الآثار والمزايا التى ندركها إذا ما سرنا على هذا المنهج الجديد .

ولقد يلوح للباحث فى بادىء الرأى أن هذه الطريقة تكاد تقضى على القواعد أوهى حرب عليها ، ولكنك تستطيع أن تضع الأمر فى نصابه حين تقرأ للمؤلف فى كتابه :

« لست أبغض القواعد ولا أزرى عليها ، بل أنا أحبها وأجلها وأعلم لها مكانتها ، إنما الذى ننكره عليها أن يكون بها كسب ملكة اللغة العربية » ... أو حين تقرأ له : « ليعلم هؤلاء الذين يحبون النحو والصرف وقواعد البلاغة أننا نحبها أكثر منهم حين ندعو إلى تعليم اللغة بأسلوب يكون ملكة اللغة فى نفوس المتعلمين، لأننا نريد أن نجعل قواعد النحو والصرف والبلاغة فوق العلم بها ملكات لنا داخلة فى مناطق اللاشعور فينا » ، ويروعك المؤلف حين يحلل أسباب انصراف التلاميذ عن القواعد ، مبيناً جنايات المؤلفين المتأخرين على القواعد حين مسخوها وجردوها من أحكامهـا وعللها وعز عليهم الاستنباط والتجديد والفهم العميق لأسرار العربية وحكمها الجليلة .

وفى الكتاب أثر من عقلية الأستاذ عرفة الناقدة الباحثة ، مما يضيق بنا المقام عن تفصيل الكلام فيه .

الكتاب الثالث

بين البلاغة والنقد

النقد البلاغى وحرية التأليف

أخرجت كتابا فى البلاغة ، هو شرحلى على « الايضاح فى البـــلاغة للخطيب القزوينى » ، ووقع فى ستة أجزاء كبار .

وقد كان من حظ كتابى أن تفضل الأستاذ عبد المتعال الصعيدى فنقده نقدا ينم عن مدى فهمه للبحث وحرية التأليف والرأى ، وكان الباعث للاستاذ الكبير على نقد كتابى هو أن له شرحا على الايضاح خرج منذ حين فى أربعة أجزاء صغيرة . وعندما ظهر الجزء الأول من شرحى بدأنى الاستاذ الصعيدى بالخصومة ، ثم نشر بيانا سماه « التنوير » يندد فيه بأخطاء مزعومة فى الجزء الاول من شرحى . وليت شعرى بعد ذلك كله كيف انقلبت هـــذه المعركة العلمية إلى خصومة عند أستاذنا الجليل .

ورأنى أعيذ القارىء من أن أطيل عليه ، وأكتفى بملاحظات صغيرة ، أنشرها توضيحا لمذهب أستاذنا الجليل فى إصلاح البلاغة :

١ ـ ذكر أستاذنا الجليل الجاحظ فى شرحه ، فعرفه بأنه عمر بن بحر الاصفهانى ، ونسب بيت حافظ المشهور : « الام مدرسة إذا أعددتها » لشوقى ، ورأى أن جميع الآراء والمذاهب البلاغية مماحكات لفظية ساقطة ، وأن الخلاف بين عبد القاهر والسكاكى فى التقديم والتأخير مثلا جدل ممل ، إذ ليس بينهما نزاع حقيق فى التقديم وإفادته التخصيص أو التقوى . . وعبد القاهر عند أستاذنا الجليل اضطرب كلامه فى البلاغة ، وكذلك أبو هلال ، فاذا ماذكرت الآراء والمذاهب البلاغية ووازنت بينها فى شرحى كان ذلك عملا يستحق النقد من أستاذنا الجليل . وكذلك إذا كتبت بعض بحوث جديدة عن نشأة البلاغة وعلمائها ومصادرها كان ذلك خطأ كبيرا منى لانه يهدم مذهب أستاذنا الجليل فى إصلاح البلاغة . وإذا ماحققت

الكلام على متعلقات الفعل ألامها مكسورة أم مفتوحة كان ذلك عملا لاداعى إليه فى عصر الذرة ، وإذا ورد ذكر الكناية مثلا فى علم المعانى فشرحت معناها فى شرحى كان ذلك ذكرا للشىء فى غير موضعه ، والبيت :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

صدره زيادة زدتها أنا على الإيضاح كما يرى أستاذنا الجليل ، والطريف أن البيت موجود كما هو أيضا فى شرحه هو على الإيضاح .

ب ـ ومن مذهب أستاذنا الجليل فى إصلاح البلاغة أن ينشر إيضاح القزوينى ويكتب على الكتاب مانصه : « تأليف عبد المتعال الصعيدى المدرس فى كلية اللغة العربية » ، وأن يفصل بين كلام صاحب الايضاح بعناوين وتطبيقات دون أن ينبه على أن ذلك مزيد على الكتاب .

حـ ـ وذكر أستاذنا الجليل فى شرحه هذا البيت :

ظعنوا فكان بكاى حولا كاملا ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

وقال إن فيه تعقيدا معنويا ، فلفت نظره إلى أنه ليس فيه شىء من التعقيد . فخطأنى وقال إنه ليس هو الذى يقول بذلك وحده ، ولكن صاحب الصناعتين صرح بذلك ، فرجعت إلى كلام صاحب الصناعتين ، فوجدته ذكر البيت ، ووصله ببيت ثان هو :

أجدر بجمرة لوعة إطفاؤها بالدمع أن تزداد طول وقود

وقال أبو هلال : هذا خلاف مايعرفه الناس لأنهم قد أجمعوا على أن البكاء يطفىء الغليل الخ . . والمتذوق للادب يفهم أن كلام صاحب الصناعتين إنما هو عن البيت الثانى « أجدر الخ » ، ولكن أستاذنا الجليل صرف كلامه إلى البيت الأول « ظعنوا الخ » ، فذكره وحده وحذف موضع الشاهد ، وبدل كلام صاحب الصناعتين فنسب إليه القول بأن فى البيت تعقيدا معنويا ، وأبو هلال لا يعنى أكثر من أنه معنى جديد مبتدع .

وذكر أستاذنا الجليل أن بيت الحطيئة « أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا الخ .. » قد نسبه السبكى لابن الرومى ، فلفت نظره إلى أن السبكى ينسبه للمتنبى لا لابن الرومى فرد على بأنه نقل ذلك عن السبكى لوجود ابن الرومى فيه بجوار المتنبى ! ! . وقال أستاذنا إنه كان يريد أن يؤاخذنى فى تكرار التعليق على بيت

أبى نواس « وصيرنى هواك الخ » وإن كان قبله قد سبق إلى بيت آخر بجواره ، ومن الطريف أن هذا البيت ليس لأبى نواس إنما هو لابن البواب .

أليس فى ذلك وغيره مما لم أذكره ياسيدى القارىء مايصلح أن يكون دعامة مذهب جديد فى إصلاح البلاغة ، يجب أن ننسبه إلى أستاذنا الجليل ، ولا يصح أن يؤلف فيها أحد بعده لأنه صاحب مذهب جديد فيها .

دفاع عن البلاغة

— ١ —

يقول الأستاذ الكبير الشيخ الصعيدى فى نقده للجزء الأول من كتابى فى البلاغة : « شرح الايضاح » :

إننى عنيت بنقل عبارات الحواشى ومماحكاتها اللفظية بأسلوبها الذى لا يليق بعصرنا .. وإنى أقول للسيد الجليل إننى جد فخور بهذه المماحكات اللفظية فى رأيه أو البحوث العلمية الخصبة فى رأى كل دارس للبلاغة وباحث فيها ، والسيد الجليل حفظه الله يرى مسائل البلاغة كلها مماحكات لفظية مملة لا طائل تحتها : فالخلاف بين السكاكى والخطيب فى تعريف علم المعانى وما حوله « من مماحكاتهم اللفظية التى لا يليق ذكرها فى هذه العلوم(١) » ، وجدل الخطيب ومناقشته لآراء السكاكى « مما حكاه(٢) لفظية ساقطة » ، والخلاف بين عبد القاهر وغيره فى المجاز العقلى « خلاف لفظى (٣) » ، والبحث فى المجاز العقلى أهو من بحوث المعانى أو البيان خلاف لا ثمرة له(٤) ، وآراء السكاكى ونكاته « أعجمية سكاكية لا عربية فطرية(٥) » ؛ ومسلك الخطيب فى الكلام على التعريف باللام « بعيد عن مسالك البلاغة(٦) » دون أن يذكر أى مبرر أو شرح لذلك ، وإذا نقد الخطيب رأيا للسكاكى كان هذا النقد مما حكاه من الخطيب(٧) .

وإذا كانت بحوث البلاغة ودراساتها هكذا مماحكة لفظية عند ناقدنا الكبير ، فانى أدعو بالنيابة عنه علماء البلاغة إلا أن لا يبحثوا فى البلاغة ، وأدعو دارسى

---

(١) ص ٣٤ شرح الايضاح للاستاذ الصعيدى ط ١٩٣٥ (٢) ص ٤٣ المرجع (٣) ص ٦٣ المرجع (٤) ص ٦٧ (٥) ٦٩ المرجع
(٦) ٨٨ (٧) ص ١١٦

البلاغة إلى أن يقفوا وينصرفوا عن هذه الدراسة ، فانها ماحكات لفظية لا طائل تحتها ! ! ولنبدأ بحرق هذه الكتب التي لا تبحث إلا في ماحكات لفظية ، وبأن نغلق دور الأدب وكلياته ما دامت دراستها ماحكة لفظية مملة .

ويأخذ على أني علقت على كلمة مقدمة وتناولتها بالبيان لماذا ؟ لأن ذلك ليس في شيء من البلاغة ، ويقول : وليته وفى الكلام فيها حقه أو نقل عن الحواشي نقلا أمينا ، فيأخذ على ما ذهبت إليه من أن المقدمة مقدمة كتاب لا مقدمة علم بدعوى أني أهملت ما حققه ابن يعقوب من أنها مقدمة علم أيضا ! ! وأؤكد لك أيها القارىء الكريم أن ابن يعقوب لم يفهم المقدمة إلا على أنها مقدمة كتاب وإليك نص ما قال(١) : « والجواب أن المراد بالمقدمة هنا مقدمة الكتاب وهي طائفة من كلامه تتقدم أمام المطلوب لارتباط معناها به وانتفاع بذلك المعنى فيه ، وأما مقدمة العلم وهي المعاني التي يتوقف عليها الفن فقد تكون نفس مدلول الألفاظ المتقدمة هي في مقدمة الكتاب وقد تكون غير مدلولها » .

وينقد قولي « نقد النثر لقدامة » لأن أستاذا كتب مقالة في الرسالة يثبت فيها أن نقد النثر لغير قدامة ، وأبادر فأطمئن الأستاذ بأني كتبت مقالات في مجلة الأزهر عن نقد النثر وشخصية مؤلفه المجهول ، وأن في آخر الجزء الثالث من شرحي على الايضاح بحثا ضافيا في نحو الخمسين صفحة عن ذلك البحث .

وقلت مانصه : « وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي وفي مقدمتها شروح التلخيص » فقال الناقد الكبير : وذكر أنه ما وضع على متن التلخيص شروح التلخيص مع أنها من جمع بعض الوراقين وليست من وضع مؤلف . . فأبدل العبارة وحرفها ثم نقدها بعد تحريفها ، ولا أدري أهذا المذهب الجديد في الفهم والدرس والنقد هو مذهب ناقدنا الكبير ؟ .

ونقد ما ذهبت إليه من أن ابن المعتز واضع البلاغة ، بدعوى أنه أول من وضع البديع والبديع عنده ليس منها في الصميم ... ونسى الناقد أن البديع عند ابن المعتز كان يشمل التشبيه والاستعارة والكناية أي بحوث علم البيان والبديع فهو إذا في صميم البلاغة ، وعسى أن يرجع إلى ما كتبته عن ذلك في آخر الجزء الثاني من شرحي على الايضاح .

---

(١) ص ١/٦٦ شروح التلخيص

وذكرت فى الايضاح للخطيب : وانحصار علم البلاغة فى علمى المعانى والبيان ، بدلا من « علم » المعانى والبيان كما كان فى النسخ الأولى ، وقلت فى الهامش : الأصل : علم . فذكر الناقد أننى علقت بما يفهم منه أن عبارة الايضاح خطأ ، مع أنه لا خطأ فيها . . . ومن أين له هذا الفهم ؟

ولا أدرى كيف كنت فى واد الخطيب فى واد - كما يقول ناقدنا - حين علقت على كلام الخطيب فى ذكر الفصاحة والبلاغة وأنه لم يبلغه مايصلح لتعريفهما ولا للفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما المتكلم فذكرت أقوال أبى هلال وابن سنان وابن رشيق وعبد القاهر والسكاكى وابن الأثير ما استغرق كما يقول صفحتين ، وكيف كنت مجازفا فى ذلك ؟ أهذا خلاف لفظى ومماحكة لا طائل تحتها أيضا ، أم أنه وضع فى غير موضعه ، أم أنه استغرق صفحتين ؟ لا أدرى .

وينقد ما ذكرته من جواز رجوع الضمير فى قول النابغة « جزى ربه عنى عدى بن حاتم » إلى شخص مذكور قبل البيت . مع أن هذا رأى لابن السبكى قال(١) : وأجيب بجواز أن يكون الضمير لمتقدم فى بيت سابق .

والصاحب وقد روى البيت : « يا على بن حمزة بن عمارة » بهذه الصيغة وهى « كقول القائل » ، لا ينفى ذلك أن يكون البيت له كما يذهب إليه ناقدنا ، وأنا أتحداه أن يأتى بأى مرجع ينسب هذا البيت لغير الصاحب .

وذكرت فى ص ١٣٩ من الجزء الأول من شرحى على الايضاح أن البيت « وصيرنى هواك وبى » لأبى نواس وإن كان ينسب لابن المعذل ، وفى ص ١٤٠ ذكرت أن البيت « يزيدك وجهه حسنا » لأبى نواس أيضا ، فكتب الناقد يقول ذكر فى ص ١٣٩ تعليقا أثبت فيه أن بيت « وصيرنى هواك » لأبى نواس ، ثم ذكر فى ص ١٤٠ تعليقا آخر لا يكاد يخرج عن التعليق الأول ! !

والكلام على نشأة البحث البلاغى عن أسلوب المجاز العقلى تطويل عل عنده ، وكذلك دراستى للجاحظ وأثره فى البيان .. وإنى أفخر بأن أكون صاحب هذا التطويل فى نظر ناقدنا الكبير .

---

(١) ٩٨ ج ١ شروح التلخيص .

وإذا ذكرت آراء أرسطو فى المجاز العقلى فى خلال البحث ، وآراء عبدالقاهر فى آخره كان ذلك عيبا شـــديدا لا يصح أن أقع فيه ، وأنا أطمئن ناقدنا الكريم فأقول : إن تأخير الكلام على آراء عبدالقاهر لطولها ولأنها خاتمة المطاف . ولست أدرى وايم الله أين هو هذا التناقض الذى وقعت فيه فى ص ١٧١ فى نظر الناقد ، وأنا إنما رددت فى أول الصفحة ما ذهب إليه بعض المحدثين من أن المجاز العقلى من ابتداع عبد القاهر ؛ وفى آخرها قلت إن فهم عبد القاهر لبلاغة المجاز العقلى هو أمثل الآراء ، فأين هذا التناقض المزعوم ؟

— ٢ —

وأمامى الجزء الاول من شرح الناقد الكبير للايضاح ، وسأعرض على القارىء نماذج منه :

قال الاستاذ الكبير : وإذا كان الامام عبد القاهر واضع أساس البلاغة بكتابيه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، فان الامام السكاكى هو منظم بنيانها ومفصل أجزائها ومهذب مسائلها فى كتابه مفتاح العلوم ، والخطيب هو الذى أبرز مفتاحه فى حلة عربية بكتابيه : تلخيص المفتاح والايضاح(١) .

وهذا هو كل ما ذكره المؤلف عن نشأة البلاغة ، وما سوى ذلك لا يصح ذكره لانه تطويل ممل سخيف .

وعلماء البلاغة فى نظر المؤلف لم يفهموا شيئا من مسائل البلاغة ولا من معناها ، وإن شئت فهذا هو الدليل ؛ يقول عن أبى هلال : « فاضطرب كلامه فى البلاغة » ، ويقول عن عبدالقاهر : وقد اضطرب أيضا فيهما (أى الفصاحة والبلاغة) كلام عبد القاهر(٢) .

ويجعل المؤلف لفظ سويداواتها فى بيت المتنبى من التنافر مثل مستشزرات فوق أنه يجعل هذا اللفظ مركبا إضافيا (٣) . . وأنا احتكم إلى العلماء ورجال البلاغة والنحو فى ذلك .

---

(١) ٢و٣ ج ١ شرح الايضاح للصعيدى ط ١٩٣٥ ، ومن الغريب أن المؤلف يعترف هنا بأن الايضاح إبراز للمفتاح فى حلة عربية ، وفى الملاحظة الاولى من نقده يقول عن ماحكاتى اللفظية إنها لا تليق بطريقة الايضاح التى تغلب عليها طريقة عبد القاهر ؛ وهذا هو التناقض .

(٢) ص ٥ المرجع . . (٣) ص ٩ المرجع

ويرى المؤلف أن مثل قول العجاج « وفاحما ومرسنا مسرجا » مما يحتاج إلى أن يخرج على وجه بعيد يجوز أن يعد من مخالفة القياس(١) . وأنا أربأ بالمؤلف أن يعيد النطق بذلك .

ويدخل اللغز والمعمى فى التعقيد ، ويقول إن هـذا هو رأى صاحب الايضاح(٢) ، وقد اطلع الشيخ على الدسوقى وقرأه وفهمه خطأ وإليك كلام الدسوقى : . . . وأجاب (أى المصنف) بأن اللغز والمعمى غير فصيحين مطلقا(٣) . فقد أخرجهما عن الفصاحة ولكن لم يدخلهما فى التعقيد ، فكيف أتى ناقدنا برأيه .

ويجعل من التعقيد المعنوى المعنوى قول الشاعر :

ظعنوا فكان بكاى حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

لأنه دل بكفه عن البكاء على إطفاء غليله وإخماد حرارة وجده والمعروف من لغة العرب خلافه(٤) . ومن أين له هذا الفهم الغريب والرأى العجيب ، وأتركه ليراجع نفسه فى ذلك .

ولعل مقتضى الحال ومطابقة الكلام لمقتضى الحال وظاهر الحال ليست من المحسنات اللفظية عند المؤلف لأنها من صميم البلاغة فى عرف كل إنسان وأنا أتحدى المؤلف إذا كان قد ذكر عنها كلمة واحدة فى كتابه ... وينسب البيت :

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم

خطأ إلى الفرزدق . ولعله لا يعلم أنه من قصيدة للحزين الكنانى الشاعر الأموى كما فى الحماسة(٥) والأمالى وسواهما من مصادر الأدب .

ويقول فى ص ٥٧ : « فاسناد الخبر إلى المبتدأ مجاز قطعا » وهو يتناقض مع كلامه فى هذه الصفحة ومع الحقيقة التى نسيها وهى أنه عند الخطيب ليس مجازاً كما أنه ليس حقيقة .

ويقول فى ص ٧٣ : الحذف كما يكون مع وجود القرينة كذلك الذكر لا بد أن يكون مع وجود القرينة ، وكرر ذلك فى صفحة ٧٥ ! !

---

(١) ص ١٠ المرجع ، فيكون كالأجلل مثل .
(٢) ص ١٩ المرجع (٣) ١٠٣/١ شروح التلخيص
(٤) ٢٢ المرجع . (٥) ٢٦٩/٢ مختصر الحماسة للرافعى .

ويذكر أنه ليس بين السكاكى وعبد القاهر نزاع حقيقى فى التقديم وإفادته التخصيص أو التقوى (١) وأنه لافائدة فى كل هـــذا الجدل الطويل الممل (٢). وإذا ففيم كانت بحوث البلاغيين فى التقديم ؟ وما أجدرهم أن يطرحوا البحث فى البلاغة . ولا أترك هذه النقطة قبل أن أنبه إلى هذا الخطأ الفاحش الخطير الذى يذهب إليه مؤلفنا من أنه لانزاع بين عبد القاهر والسكاكى فى التقـديم وإفادته التخصيص والتقوى ، وأحيلك إلى ما كتبته فى شرح هذا الموضوع فى الجزء الثانى من شرحى على الايضاح .

وذكر الخطيب القزوينى رأى السكاكى فى إفادة التقـــديم للتخصيص ، فقال المؤلف (٢) : وقد رجعت إلى كلام السكاكى فى المفتاح فلم أجده .وهذا هو صاحب الرأى المشهور فى الاصلاح البلاغى ، وإنى لأتبرع برده عن هذه الحيرة وأقول له : ارجع إلى رأى السكاكى فى صفحة ٩٧ من المفتاح .

وقال المؤلف الناقد بعد ذلك (٣) : فلم أجده وهم المهم أراد إلى مخالفة عبد القاهر فى شىء من ذلك أو صرح بوجود خلاف بينهما فيه يحتاج إلى كل هـذا الجدال والحجاج وإنما ترسم فى ذلك خطاه . . . وهذه عبارة أريد أن أعرف منه إن كان يفهمها أحد أو يستطيع أن يفسرها لنا إنسان .

ويذكر أن البيت : أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ، وهو من قصيدة مشهورة للحطيئة ، قد نسبه السبكى لابن الرومى . ونطالع السبكى فنرى أنه ينسبه للمتنبى لا لابن الرومى (٤) .

ويرجع فى صفحة ١٢٧ و ١٢٨ رأى السكاكى إلى رأى عبد القاهر فى إفادة التقديم التخصيص أو التقوى فيقول :

ا ـــ وهو (أى السكاكى) فى النكرة يرى أن البناء عليها لايفيد إلا التخصيص كما يرى عبد القاهر ... ولعمرى إن ذلك فى صورة من النكرة فقط وهى مثل ما رجل قام ، أما مثل رجل قام ورجل لم يقم فهما للتخصيص أو للتقوى عند عبد القاهر

---

(١) ص ١٢٥ (٢) ص ١٢٦ (٣) ص ١٢٧ .
(٤) ص ١/٣١٣ شروح التلخيص .

وللتخصيص عند السكاكى.

ب — وفى المعرف المثبت أنه يحتمل التخصيص أو التقوى كما يراه عبدالقاهر، ونحن نعلم أن محمداً قام للتخصيص أو للتقوى عند عبـــد القاهر وللتقوى فقط عنـــد السكاكى .

حـ — ويبنى على ذلك ماسبق أن أشار إليه من أن هذا كله من الخلافات اللفظية والمجادلات المملة (ص ١٣١) ، وبأنه لاخلاف بينهما .

وينسب لابن مالك القول بأن تقديم المسند إليه يدل على العموم . وأرشده إلى أن ابن مالك توفى عام ٦٧٢ هـ ؛ أما هـــذا القول فهو لبدر الدين محمد ابن جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك المتوفى عام ٦٨٦ هـ فى كتابه المصباح ص ١٣

ويذكر البيت : إلهى عبدك العاصى أتاكا ، ويقول إن شراح الشواهد لم يذكروا قائله (١) وهو منسوب لرابعة العدوية المتصوفة المشهورة .

ويروى بيت خداش بن زهير هكذا : وتلحق خيل لاهوادة بينها .. والرواية « وتركب خيلا » كما فى الموازنة والمفتاح الكامل .

إلى غير ذلك مما وقع فيه ناقدنا من مؤاخذات .

— ٣ —

وهذه مثل قليلة لأخطاء المؤلف فى الجزء الثالث والرابع من شرحه على الايضاح :

يقول الشاعر العربى القديم : كأن دنانيرا على قسماتهم . فيفسر أستاذنا القسمات بأنها الوجوه (٢) . . والتحقيق أنها مجرى الدمع أو ما بين الوجنتين والأنف أو أعلى الوجه أو أعلى الوجنة أو ظاهر الخدين . ويقول المبرد : هى مجارى الدموع وقال الأصمعى هى أعالى الوجه (٣) .

ويذكر البيت المشهور :

أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا   فقلت كلا ولكن مطلع الجود

هكذا : « مطلع الشمس » (٤) وهو خطأ عروضى معروف .

---

(١) ص ١٤٨   (٢) ٩٢ / ٤ شرح الصعيدى   (٣) ٤٠ / ١ الكامل للمبرد
(٤) ١٣٠ / ٤ .

ويقول معلقا على الآراء في المكنية والتخييلية(١) : ولا يخفى أن هذه الخلافات السابقة في المكنية والتخييلية من الخلافات التي لا طائل تحتها .. وبهذا أرحنا من عناء البحث والدرس البلاغي :

ويرى أن عبدالقاهر قد جعل إثبات اليد للشمال في مثل يد الشمال تخييلا ولم يسم التشبيه الذي جعلت اليد دليلا عليه استعارة بالكناية ولا بغيرها (١) ، وليس أبلغ في الرد على هذا الرأي الخاطىء من قول عبدالقاهر نفسه(٢) : اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فاذا كانت اسما فانه يقع مستعارا على قسمين : أحدهما أن تنقله عن معناه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله متناولا له ، والثاني أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شيء يشار إليه ، والعلم في ذلك قول لبيد « إذ أصبحت بيد الشمال زمامها » ، جعل للشمال يدا ... أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفا كتصرف الانسان في الشيء يقلبه فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه .. فقد جعل عبدالقاهر إثبات اليد الشمال استعارة تخييلية وليس كما يقول الأستاذ في كلامه آنفا .

وفي صفحة ٨١ السطر العاشر من الجزء الرابع يذكر « ابن فريقون » .. وصحة الاسم « ابن فريغون » .

وفي ترشيح الاستعارة يقول الخطيب ممثلا : كما قال أبو الطيب :

كبرت حول ديارهم لما بدت   منها الشموس وليس فيها المشرق

وكما قال غيره :

ولم أر قبلي من مشى الأسد نحوه   ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

فيقول الأستاذ الصعيدي : هذا صريح في أنه لغير المتنبي مع أنه له أيضا (٣) وأقول لأستاذنا : ولم لا نقرؤه : غيره بالفتح لا بالضم ،

ويقول : بشرط أن يكون للقيد دخولا في التشبيه (٤) وصحة الكلام دخول . ويقول : رأيت أسد (٥) والصواب : أسدا .

---

(١) ١٢٨ /٣ شرح الصعيدي   (٢) ٣٤ و ٣٥ أسرار البلاغة

(٣) ١١٩ و ١٢٠ / ٣ شرح الصعيدي .

(٤) ٤٥ ج ٣   (٥) ٨٨ ج ٤

ويرجح إدخال التقييد فى التركيب فى التشبيه المركب ، فالطرف المقيد فى رأيه داخل فى المركب (١) .. وهذا جهل بالفرق بين التقييد والتركيب لا يصح أن يخفى على مثله ، وهو ما شرحته شرحا وافيا فى الجزء الرابع من كتابى .

وفى البيت المشهور :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح

يقول : المشبه فيه محذوف تقديره كأنما يبسم عن ثغر كلؤلؤ وقد اشتبه الأمر على بعضهم فعده من باب الاستعارة مع وجود كأنما التى لا تتفق معها (٢) ، وهذا من الأخطاء الفاضحة التى نتزه مثله عن الوقوع فى مثلها ، فكأنما مدخولها هو يبسم لا لؤلؤ ولا خلاف بين البلاغيين فى أن كلمة لؤلؤ استعارة لا تشبيه .

وعند ما يصطدم بمسألة صعبة يمر عليها مر الكرام مكتفيا بقوله « والخطب فى ذلك سهل(٣) » أو « والخطب فى هذا من السهولة (٤) » .

ويمثل لتشبيه وجود الشىء العديم النفع بعدمه بقول الشاعر :

إذا كنت لا ترجى لدفع ملمة ولم يك فى المعروف عندك مطمع
فعيشك فى الدنيا وموتك واحد وعود خلال من وصالك أنفع(٥)

وفاته أنه ليس فى البيتين تشبيه ولا أسلوب من أساليبه .. ويقول فى البيت

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

ما نصه : ذكر صاحب الشواهد أنه لا يعرف قائله (٦) .. وفاته أن يعلق على ذلك بأن كثيرا من علماء الأدب نسبوه لكثير .

ويجعل من أسلوب التشبيه البيت :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

والبيت :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها (٧)

وهذا خطأ محض ، فليس فى البيتين شىء من التشبيه ولا أداة من أدواته .

ويذكر قول امرىء القيس : كأنى أنادى إذ أكلم أخرسا ، ويقول : والسبكى إنما ينظر إليه من جهة فساد التشبيه فيه(٨) .. وفاته أن هذا لا تشبيه فيه لأن خبر كأن مشتق

---

(١) ٤٥ / ٣ (٢) ٥٠ / ٣ (٣) ٧٦ / ٣ (٤) ٧٧ / ٣ (٥) ٢٤ / ٣ شرح الأستاذ الصعيدى طبعة ١٩٣٦ (٦) ٣٠ / ٣ (٧) ٢٢ / ٣ (٨) ٣ ج ٣ .

وكذلك يحمل من التشبيه قول كثير : « كأنى أنادى صخرة حين أعرضت(١) » وهو مثل سابقه لا تشبيه فيه ، لأن « كأن » هنا لإفادة الظن بثبوت الخبر من غير قصد إلى التشبيه .

ويذكر أن من تشبيه الخد بالورد قول أبى نواس « ويلطم الورد بعناب(٢) » .. والصواب أن يذكر هذا مثلا للاستعارة ، وأنه من استعارة الورد للخد .. لأن التشبيه فيه ليس هو المقصود من الأسلوب بل المقصود الاستعارة .

ويذكر كلام القزوينى : « وهوتا ذاهبتين » هكذا : « وهما ذاهبتين(٣) » .

امثـــلة لفهم البلاغة

يقول الأستاذ الصعيدى فى الجزء الأول من كتابه « بغية الايضاح » :

« هذا ولى رأى فى الغرابة أنها وحدها بدون التنافر فى الحروف لا تخل بفصاحة الكلمة(٤) » . وهذا رأى طريف حقا من طرائف ناقدنا الكبير .

ويرى أن « مسرجا » من قبيل التشبيه المحذوف الأداة ، فهى صيغة تشبيه ، مثل: فأمطرت لؤلؤا من نرجس(٥) » . ويقول: واما مسرج فأخذه من السراج لا غرابة فيه من جهة الاشتقاق(٥) .

ويقول صاحب الايضاح : وأنكر الجاحظ انحصار الخـــبر فى القسمين ـــ الصادق والكاذب ـــ ... فيقول تعريفا بالجاحظ : وهو عمر بن بحر الأصفهانى(٦) .. والجاحظ العربى صاحب البيان والتبيين والحيوان وغيرهما هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى العربى المشهور وليس أصفهانيا ولا من الموالى ولا غير ذلك .

وينسب البيت :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

---

(١) ٤ ج ٣ (٢) ١٣ ج ٣ (٣) ٨٨ ج ٣
(٤) ١٠ ج ١ شرح الايضاح له ط ١٩٣٥
(٥) ١١ ج ١ المرجع (٦) ٣٧ ج ١ المرجع

لحسان فى مدح الرسول(١) . وهو لبكر بن النطاح فى أبى دلف(٢) .

ويرى أنه لانزاع حقيق بين السكاكى وعبد القاهر فى إفادة تقديم المسند إليه التقوى أو التخصيص ، وأنه لافائدة من كل هذا الجدل الطويل الممل(٣) ، وأنها(٤) خلافات لفظية ومجادلات مملة . وأنا لا أدرى هل لم يطلع على آراء السكاكى وعبد القاهر وآراء العلماء فى تفصيل الخلاف بينها .

ويقول إن السكاكى يرى أن البناء على النكرة لا يفيد إلا التخصيص(٥) ، ويرد رأى السعد فى أن البناء على النكرة كما يأتى للتخصيص يأتى لتقوية الحكم(٦) .

ولعله نسى أن السكاكى يقول إن النكرة تفيد التخصيص بشرط أن لا يمنع منه مانع الخ ، وأما رده على السعد فما الحيلة وخطؤه واضح .

ويقول : وإذا كان الخطيب وعبد القاهر قد اقتصروا فى كل أمثلة الفعل المنفى على بيان تقوية الحكم ، فان التخصيص أيضاً يصح توجيهه فيها ، إذ لافرق فى المعنى بين الفعل المثبت والمنفى حتى يفرق بينهما فى ذلك .

ويقول : « والمراد بسكان البادية سكان الجزيرة جميعها بدوها وحضرها قبل فساد لغتها(٧) » . ولعله يعلم أن بعض أهل الحضر فى الجاهلية وبعدها كما فى الحيرة والبحرين واليمن قد فسدت لغاتهم باختلاطهم بالعجم ولا يصح تحكيم لغتهم فى شىء ، وهل نسى زيادا الأعجم مثلا ؟

ويقول : « ثم إن القصر والوصل والفصل والايجاز والأطناب والمساواة هى أيضا من أحوال الجملة أو المسند إليه أو المسند(٨) » . وإذا كان لايعرف أن هده الأبواب هى من أحوال الجملة فحسب فانى وربك لأعجب من هذا الفهم .

ويقول عن الفصاحة والبلاغة : واعلم أن الخلاف فى أنهما مترادفان أولا وفى أنهما راجعان إلى اللفظ والمعنى خلاف لفظى لا معنى له(٩) . والخلاف بين عبد القاهر وغيره فى المجاز العقلى خلاف لفظى(١٠) ، ومناقشة الخطيب لآراء السكاكى مماحكة لفظية ساقطة(١١) ، والخلاف بين السكاكى والخطيب فى تعريف

---

(١) ١٠٤ ج ١ (٢) ٧٤ صناعتين ، ٨٧ ج ٢ الكامل
(٣) ١٢٥ و ١٢٦ ج ١ شرح الايضاح (٤) ١٣١ ج ١ المرجع
(٥) ١٢٧ ج ١ (٦) ١٢٤ ج ١ (٧) ٩ ج ١ فى شرح تعريف الغرابة
(٨) ٣٦ ج ١ (٩) ٢٨ ج ١ المرجع (١٠) ٦٣ ج ١ (١١) ٤٢ ج ١

علم المعانى وما حوله من مماحكاتهم اللفظية (١) . . .

ويقول : والأحسن أن يمثل لضعف التأليف بنصب الفعل بأن المحذوفة فى مثل قول الشاعر : ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى(٢) » .

ويجعل البيت من التعقيد المعنوى وهو :

ظعنوا فكان بكاى حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

لأنه دل بكفه عن البكاء على إطفاء غليله وإخماد حرارة وجده والمعروف من لغة العرب خلافه(٣) . ويقول: الحذف كما يكون مع وجود القرينة ، كذلك الذكر لابد أن يكون مع وجود القرينة(٤) . ويذكر أن بيت الحطيئة المشهور : «أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البناء» قد نسبه السبكى لابن الرومى مع أن السبكى ينسبه للمتنبى(٥) . وينسب البيت : «هذا ابن خير عباد الله كلهم» للفرزدق ولعله قد نقل ذلك عن مجموعة النظم والنثر . وجميع رواة الأدب الموثوق بهم ينسبونه للحزين الكنانى الشاعر الأموى . ويذكر الخطيب القزوينى رأى السكاكى فى إفادة التقديم للتخصيص فقـــال الناقد : وقد رجعت إلى كلام السكاكى فى المفتاح فلم أجده(٦) . ورأى السكاكى معروف مشهور فى المفتاح (راجعه فى ص ٩٧ من المفتاح) .

ويقول: «السكاكى مذهبه فى المسند إليه المعرف المثبت أنه يحتمل التخصيص أو التقوى كما يراه عبد القاهر(٧) .. وأقول له : ارجع إلى الايضاح لترى أن السكاكى لم ير ذلك .

وينسب لابن مالك القول بأن تقديم المسند إليه يدل على العموم .. وهذا القول ليس لابن مالك صاحب الألفية م ٦٧٢ هـ إنما هو لبدر الدين محمد بن جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك م ٦٨٦ م (وراجعه فى ص ١٣ من كتابه المصباح) ..

ويأخذ جميع آراء السبكى فيضعها فى شرحه ، كما يأخذ فى الجزء الثانى من شرحه كل آراء الأستاذ الكبير نوارفى الفصل والوصل والقصر ، وإذا راجعت

(١) ٣٤ ج ١ (٢) ١٨ ج ١ (٣) ٢٢ ج ١ المرجع
(٤) ٧٤ و ٧٥ ج ١ (٥) ٣١٣ ج ١ شروح التلخيص (٦) ١٢٧ ج ١
(٧) ١٢٧ و ١٢٨ ج ١

تعليقات الأقصرانى على الايضاح فى دار الكتب تبين لك كيف أخذ هذه التعليقات فحلى بها شرحه .

ويقول عن عبد القاهر : وقد اضطرب كلامه فى البلاغة ، وعن أبى هلال العسكرى صاحب الصناعتين : فاضطرب كلامه فى البلاغة(١) . ويرى أن مثل منرج ما يحتاج إلى أن يخرج على وجه بعيد يجوز أن يعد من مخالفة القياس(٢). والأستاذ ينسى الكلام على مقتضى الحال ومطابقة الكلام لمقتضى الحال كأنهما ليسا الأساس الأول فى فهم البلاغة .

ويقول : فلم أجده وهم المهم أراد إلى مخالفة عبد القاهر فى شىء من ذلك أوصرح بوجود خلاف بينهما فيه يحتاج إلى كل هذا الجدال والحجاج وإنما ترسم فى ذلك خطاه ... وإنى أسأله أن يشرح لنا هذا الإلغاز العجيب .

* * *

أما الجزء الثانى من شرح الأستاذ فلا داعى للنظر فيه ، ففيه من الأخطاء الكثير ، ولا بأس بعرض نماذج يسيرة هينة أمامك :

يرى الأستاذ أنه لا خلاف بين عبد القاهر وسواه فى جواز الآتيان بالواو وتركها فى الجملة الاسمية الواقعة حالا ، لأن عبد القاهر ينظر من جهة البلاغة ، وهم ينظرون إلى صحة الكلام فى ذاته (١٣٥ ج ٢ شرح الايضاح للصعيدى ط ١٩٣٥) ، ويرى أن الفصل فى الآية الكريمة « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » لأن بين الجملتين توكيدا معنويا لا لفظيا (١٠١ ج ٢ المرجع) .

ويرجح أن مثل قام القوم إلا زيدا يفيد القصر مثل ما قام القوم إلا زيدا (راجع ٣٥ ج ٢). وهذا هو والله التجديد ، والفهم الجديد للبلاغة وعلومها.

ومثل « زيدا عرفته » يرى الزمخشرى أنه للتخصيص مطلقا ، ويرى غيره أنه للتخصيص إن قدر المفسر المحذوف بعد المنصوب أى زيدا عرفت عرفته وإن قدر قبله أى عرفت زيدا عرفته كان للتوكيد .. فيرى الأستاذ أن مثل ذلك لا يفيد إلا التوكيد (١٥ ج ٢) .

ويذكر أن مثل « إنما تفاحا أكلت » القصر فيه يسند إلى التقديم عند السعد وإلى انما عند السيد ، ولكنه يقول هذا خلاف لفظى (٥٤ ج ٢) .

ويقول : ومقام الايجاز هو حذف أحد المسندين أو المتعلقات (١٤٥ ج ٢).

---

(١) ص ٥ ج ١ (٢) ١٢٧ ج ١

ونسى أن هذا ان صح أن يقال فى ايجاز الحذف فلا يصح أن يقال فى إيجاز القصر وهو لا حذف فيه .

ويقول : لتحقق الأثبات والنفى المحققان للقصر (٣٦ ج ٢) . ولعل الذى نقد سيبويه نسى أن يصحح الكلام وأن يقول : المحققين .

وينسب البيت : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا — للعرجى(١) . وجميع كتب الأدب بل حتى سيبويه فى كتابه ينسبه لسحيم بن وثيل .

وينسب البيتين : ماأنت بالسبب الضعيف الخ إلى الباخرزى (١٧٩ ج ٢) ، مع أنه ذكر فى موضع آخر (القصر) نقلا عن ابن خلكان أن ابن أبى دؤاد كان ينشدهما ولعله نسى أن الباخرزى توفى نحو عام ٤٦٧ ، وابن أبى دؤاد توفى عام ٢٤٠ ﻫ وبين الشاعر الذى نسب له البيت وابن أبى دؤاد الذى كان ينشد البيت أكثر من ٢٠٠ سنة .

وشرحه لشواهد الإيضاح يتجلى فيه فقر الذوق إلى حد بعيد ، ويطول المقام لو عرضت ذلك فى هذه العجالة ، وإن شئت فانظر : يقول فى شرح قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لاتلمــه على شعث أى الرجال المهذب

تلمه : تضمه . الشعث فى الأصل انتشار شعر الرأس وتغيره فتكثر أوساخه والمراد به هنا الأوساخ المعنوية على طريق الاستعارة (١٦٦ ج ٢) .. ويقول فى شرح بيت المتنبى الجميل :

أشد من الرياح الهوج بطشا وأسرع فى الندى منها هبوبا

ما نصه : الهوج جمع هوجاء : الريح التى لاتستوى فى هبوبها وتقلع البيوت من شدتها (١٦٩ ج ٢) ، وهذا هو ما يذكره فى شرح هذا البيت لاغير ، وأرجو أن يطلع القارىء على شرحه للشواهد بيتا بيتا ليجد آثار هذا الذوق الأدبى الرفيع .

وآراء السكاكى فى الإيضاح كلها يذكرها الأستاذ بدون تعليق ، وعذره واضح فهو لم يجد مراجع فى شرحها يأخذ منها ويحتذيها .

ويرى أنه ليس هناك خلاف بين السكاكى والخطيب فيما يقاس به الايجاز والاطناب وأنه لا حاجة إلى إطالة الكلام فى تلك المماحكات ، ويقول :

ولقد كنا فى غنى عن كل هذا التطويل لولم يشتبه عليه ـ أى على الخطيب ـ الأمر

(١) ١٥٠ ج ٢

فيما حكاه من كلام السكاكى (١٤٠ ج ٢) : وأنت أيها القارىء الكريم فى غنى من أن أشرح لك الأسس التى بنى عليها السكاكى والخطيب تحديدهما لمعنى الايجاز والاطناب والمساواة ، فلعلك تذكر أن السكاكى حكم متعارف الأوساط حينا وما يقتضيه المقام حينا آخر ، وأن الخطيب حكم أصل المراد ، وأنت تعلم الفروق الجوهرية بين الرأيين وتعلم أن السكاكى لم يشتبه عليه الأمر فى شىء ولكن الأستاذ يريد أن يثبت له تجديدا

أبو العتاهية الشاعر العالمى

للاستاذ عبد المتعال الصعيدى كتاب ذائع الشهرة هو « أبو العتاهية الشاعر العالمى » ، والأستاذ معجب بهذا الكتاب إعجابا شديدا ، وأنا معه فى أنه يجب أن يعجب به حقا ، وهذا هو ما يدفعنى إلى تحليل بعض آرائه فى إيجاز ، ولسنا نريد نقد الكتاب ، وإنما نحب أن نبين مدى الذوق الأدبى عنده ، لأن هذا الذوق هو الأساس الأول فى فهم مسائل البلاغة والحكم عليها ولذلك كتبت هذه الكلمة فى إيجاز :

قال الأستاذ : وأبو العتاهية اولى عندى بها — اى بالزعامة على الشعراء المحدثين — دون بشار (ص ٣ الكتاب ط ١٩٣٩) وهذا رأى يخالف فيه جميع الأدباء والنقاد ، مع أنه ذكر فى (ص ١٦) ان بشارا اول من عمل فى نقل الفاظ الشعر ومعانيه من البداوة إلى الحضارة

ويقول الأستاذ : والشعراء العالميون فى شعراء العربية قليل عددهم وربما يكون ابو العتاهية اول شاعر عربى بلغ هذه المنزلة الشعرية العالية فكان له شعر عالمى تتسابق الأمم المختلفة إلى روايته ودراسته وإلى نقله إلى لغاتها (ص ٤ من المرجع) ، والدليل على ذلك يتلخص عنده فى ان صاحب الأغانى ذكر ان ملك الروم ارسل إلى الرشيد يسأله ان يوجه إليه بأبى العتاهية ، وان راهبا فى صومعته انشد بيتا او ابياتا لأبى العتاهية (٤ و ٥ و ٦ المرجع) ويقول عقب ذلك : وكل هذا يثبت لنا ان ابا العتاهية كان شاعرا عالميا (ص ٦) .. أريد أن أعلق على كلام الناقد الكبير وعلى قضيته ودليلها ولكن ذوقك أيها القارىء يكفى فى الحكم والبيان

ويقول : يذهب علماء الادب إلى أن الصناعة البديعية لم تظهر فى الشعر

العربي ولم يتكلف بها شعراء العرب إلا في العصر العباسي وذلك بعد ظهور أبي تمام ، وإني أخالف في هذا أولئك العلماء وأرى أن الشعر نشأ صناعة لفظية ، ووجدت فيه العناية بالبديع من حين ظهوره ، فكان الشعراء قبل الإسلام يتكلفون صناعة البديع كما تكلفها أبو تمام . فامرؤ القيس لا أبو تمام هو أول من عنى في الشعر بالصناعة البديعية وتكلف منها مالم يتكلفه أحد قبله الخ (ص ٦ و ٧) .. وليس لنا تعليق بعد رأى زعيم النقاد .

ويقول: دعا - أي الرسول - إلى أدب مثقف يعنى فيه بالمعانى الأصلية السامية أكثر مما يعنى بتلك الصناعة اللفظية ، ولا تؤثر فيه المعانى الثانوية على المعانى الأصلية (٩ و ١٠ المرجع) .. ومعنى هذا أن الرسول دعا الشعراء إلى ترك الكناية والاستعارة والتشبيه والمجاز الخ ، فما أروع هذا الفهم للأدب والشعر

ويقول عن أبي تمام والمتنبي والبحتري : عادوا بالشعر إلى سنته القديمة ، أي إلى منهج الجاهليين في الشعر - (ص ١٣) .. وهذا تحليل رائع المذهب الأدبي لهؤلاء الشعراء .

ويقول: أبو نواس لم يجدد في بناء القصيدة ومطلعها ، وإنما التجديد الصحيح في هذا ماسبق إليه شاعر عصر بني مروان العظيم الكميت بن زيد فقد خرج على ذلك التقليد القديم في هاشمياته فقال مثل قصيدته : طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ... إلى أن قال : فهذا هو التجديد الصحيح في مطلع القصيد (١٩ - ٢٣). !!!

ويقول : أبو العتاهية هو حامل راية التجديد في أغراض الشعر بين الشعراء المحدثين (راجع ص ٢٣) . !!!

ويقول أبو العتاهية أولى من بشار وأبي نواس باسم الشاعر المجدد في العصر العباسي (ص ٢٧) ... وكرر ذلك في ص ١٠٤ حيث يقول : فله التقديم على طبقته من الشعراء المحدثين .

ويرى أن أبا العتاهية كان شاعر الشعب لأنه أمكنه أن يدنو بالشعر العربي إلى أفهام العامة فوردوا مناهله بعد أن حرموا منها زمنا طويلا ، فكأنهم كانوا من العجماوات التي لاحظ لها في الحكمة والأدب (١٠٥) .. وهذا كلام لا يصح أن يقال في صدر العصر العباسي حيث الملكات كانت لاتزال قريبة من فطرتها

ويرى أن ابتذال الكلام ليس بعيب فيه ، وقد ذكر ذلك في كتابه البلاغة العالية

.. وهذا حقا من ابتكاره أيضا (راجع ص ١٠٧)

ويقول: كان يذهب أبو العتاهية فى غزله مذهب الشعراء العشاق مثل جميل والمجنون (١١٦ المرجع)

ويقول: كان مدح أبى العتاهية تجاريا (١٢٠).. وهذا أسلوب طريف من أساليب النقد ... والكلام فى كتابه على زهديات أبى العتاهية وهو الفن الوحيد الذى امتاز به أبو العتاهية على نظرائه يتلخص فيما يأتى بالحرف: أكثر أشعار أبى العتاهية فى الزهد والحكمة والمثل وهى الاشعار التى بذل فيها كل جهده وأربى فيها على الشعراء السابقين واللاحقين ونظم فيها ما استفاده من اهل العلم من السنن وسير السلف الصالح وما جرى من الحكم على ألسنة هذه الامة وغيرها من الامم (١٤٢ المرجع)، ويلى ذلك بعض مختارات من زهدياته .

ويقول لابى العتاهية ـ نصيحة له لينظم الشعر على نهج هذه الوصية ـ ، مانصه: « والذى اراه فى هذا انه يجب ان يتوسط فى الشعر بين اللغة الدارجة وبين لغته القديمة المتكلفة » (١٥٧ المرجع)

ويقول عن ضعف بعض معانى ابى العتاهية مانصه : ومما انكر على أبى العتاهية قوله:

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لانه جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها والعبارة غير مرضية لانا لم تر من أكل شهدا بسم !!!

وبعد فنكتفى بعرض بعض المسائل التى تمس الذوق الادبى ورأى المؤلف فيها لنعرف ذوقه الادبى ومدى اثره عليه فى فهم البلاغة والحكم على علمائها .

المقامة الشمقمقية فى البلاغة(١)

سيدى الأستاذ الكبير : أصلح الله أمرك ، وعلمك الخير ، وجعلك من أهله .. أى سيدى كلمة تهدى إلى أدبك ، وتحية تقتبس من فضلك . وكيف لا ؟ ونحن لا نزال نذكر مذهبك فنعجب ، ونقرأ تفكيرك المرقص فنطرب ، ولا غرو فسيدى حفظه الله ، فى الذروة العالية من العلم والفن والأدب وعلو الحسب ، ولم لا وقد قال أبو الشمقمق القديم :

قالوا : اقترح شيئا نجد له طبخه قلت : اطبخوا لى جبة وقيصا

وفقته أنت ، فقلت ما لم تقله الأوائل ، وأتيت بما لم تأت به الفطاحل .

يا سيدى : إن سيبويه ليخجل إذا قاس علمه إلى علمك ، أليس هو صاحب النحو القديم وأنت صاحب النحو الجديد ؟ وإن عبد القاهر ليتواضع ويتضع إذا قرأ الناس له ولك ، أو ليس هو الذى اضطرب كلامه فى البلاغة وعجز عن فهم أسرارها ؟ فجئت أنت لحللت المشكلات ، وكتبت الآيات البينات . وإن السكاكى الأعجمى ليتضاءل ، إذا ذكر كتابه المفتاح ، وذكر كتابك « بغية الايضاح » ، إنه صاحب هذه الماحكات اللفظية الساقطة ، المملة المخلة ، السكاكية الأعجمية ، وأنت أيدك الله مبتكر هذا المذهب الاصلاحى الجـــديد فى البلاغة وعلومها .

أى سيدى : لقد عجبت وهذا مكانك فى التفكير ، وتلك آراؤك ومؤلفاتك فى الأدب واللغة والدين ، أن يكون لك ما سطرته فى بغية الايضاح ودبجته فى كتابك « أبو العتاهية الشاعر العالمى » .

أى سيدى وارث الشنقيطى ، والذى نقد محمد عبده والمراغى ، وهدم سيبويه وعبد القاهر ، وحطم آراء العلماء .. سيدى الكبير : كيف نحصى ثناء عليك ؟ وأنت رب القلم والبيان ، وشيخ الأدب واللغة . أى سيدى الذى شك فى كل شىء ، وكفر بكل مذهب ، وأنكر كل واضح معروف ، كيف تحلل وتكتب وتنشر عن أبى العتاهية ، ويقول الناس إننا لم نفهم عنه

(١) من نثر كاتب سجل فى المقامة آراءه فى هذه المعركة العلمية فنشرناها له .

شيئا إلا أنه الشاعر العالمى ؟ وكيف يشكو علماء البلاغة لأنك رميتهم بالبله والقصور والأملال والأخلال والخطأ ، وإنى لمعك يا سيدى ، أومن بأنهم قصروا وأجدت وأخطأوا وأصبت .

يا سيدى : يقول السبكى — شاكيا باكيا — إنك ملأت صفحات بغية الايضاح من كتابه ، ويزعم الأقصرانى أنك نقلت تعليقاته الخطية نقلا ، وعجبت وأيم الله من هؤلاء الشاكين ، يشكونك وأنت أحق منهم بالفضل ، وأسبق فى الذكر ، وأرفع فى المنزلة ، وهم خليقون بأن يتهمهم سيدى بالظلم والقصور ، وأن يهددهم بالويل والثبور ... ولقد ظلمك يا سيدى علماء البلاغة ، إذا اتهموك بأنك حفلت بمن لا شأن لهم فى البلاغة من غير هؤلاء تأخذ عنهم ، وتسلم لهم ، وتنهب منهم ، وتركت المراجع التى لها أهميتها فى التفكير البلاغى . بل رميت أصحابها بالقصور والتقصير والافراط والتفريط والخطأ والبله وقلة الفهم . وأنا معك يا سيدى فى أنهم مخطئون مقصرون . وأنهم لا يفهمون عن البلاغة شيئا ، ولا يعرفون منها قليلا أو كثيرا وأنك بينهم الأوحد الأمجد .. وما قيمة هذا السكاكى الأعجمى ، وما فضل عبد القاهر المتحذلق ، وما أهمية السعد والسيد ؛ وكيف يجرؤ هؤلاء جميعا على اتهام سيدى المذكور حفظه الله .. إنك ياسيدى وأستاذى لجدير بأن تصدر فتوى واحدة وربك تجردهم فيها من ألقابهم وتصور فيها حقيقة حالهم وسوء مآلهم ، فلا يصح أن يتطاولوا على سيدى وهو الذى طبق ذكره الآفاق وطار علمه فأضاء السبع الطباق ؛ ألا ساء مايزعمون :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا — أبشر بطول سلامة يا مربع

لا وربك لا سكوت ولا قرار ، حتى تصدر الفتوى عاجلة بغير انتظار ، يا سيدى وحق الواحد القهار ، إنك لإمامهم وإن لجوا فى الانكار .

أى سيدى العبقرى حفظه الله : إنى لم أجد أحدا يشبهك من الناس ، إلا عباس بن فرناس ، طار وطرت ، طار بجناح مصنوع ، وطرت كالأشباح بذهن مطبوع ، وليس فى ذكائك والله إلا إياس أو أبو نواس ..

والملك أدويب وسوفوكليس وتوفيق الحكيم والمعداوى . وحقك ياسيدى لأتولين بالنيابة عنك ما يستحقون من تأديب وتهذيب ، وضرب وحرب ، وزجر ونهر . . . وربك يا سيدى صاحب الكرامات والافتاءات ، وبحق بغية

الايضاح ، لأمزقن كل ورقة تكتب أو تنشر فى البلاغة ولو كانت لعبد القاهر أو لصاحب المفتاح ، حتى لا تصرف أحدا عن كتب سيدى المعظم .

وأخيرا لك يا سيدى الولاء ، ومذخور الدعاء ، عشت طول الأبد ، ماعاش لبد ، والسلام عليك فى الأولين والآخرين .

بينى وبين زعيم المجددين فى البلاغة

— ١ —

أستاذنا الجليل عبد المتعال الصعيدى صاحب مذهب جديد فى البلاغة ؛ ولماذا لا يكون صاحب مذهب جديد فيها وقد شرح الايضاح فى أربعة أجزاء ، وقرأه طلاب البلاغة وأساتذتها سنين طوالا ، وأعاد طبعه مرات .

وأستاذنا الجليل كتب فى النحو فهدم مذاهب سيبويه ، وكتب فى المنطق والفلسفة فأتى بآراء طريفة جديدة على المنطق والفلسفة ، وكتب فى الميراث فجاء بآراء تخالف ما اتفق عليه الفقهاء ، وكتب مقالات فى الرسالة عن أبى العتاهية الشاعر العالمى ، إلى غير ذلك من آرائه الجديدة ؛ فلم لا يكون والله مع ذلك إمام البلاغة وخاتمة المحققين فيها .

كان الازهر القديم يدرس البلاغة متأثرا بمذاهب علمائها المتأخرين أصحاب الشروح والحواشى والتقارير . وبدأت كلية الآداب تدرسها على نمط جديد يوغل أحيانا فى القديم حتى يصل إلى الجاحظ وقدامة ، ويبعد أحيانا فى الحديث فيستضىء بدراسات الاوربيين للبيان ونقده ، ويقف حينا داعيا إلى وجوب أن يتأثر البيان ودراساته بالمصرية الحديثة . وكان أستاذنا الكبير الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء يدرس البلاغة على نهج يجمع بين الادب والبلاغة والقديم والحديث والعمق والتحليل ودقة الفهم لبحوث البلاغة والموازنة بين شتى الآراء والمذاهب .

وأستاذنا الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، وهو الذى لم يتخصص فى البلاغة ولم يلق فيها درسا واحدا طول حياته يأبى إلا أن يحشر نفسه فى زمرة أئمة البلاغة حشرا ، وإلا أن يدعى أنه صاحب مذهب جديد فيها ، فاذا سألته عن مذهبه فى

البلاغة ودراستها لم تسمع منه جوابا ، ولا تستطيع أن تظفر برأى مقنع إلا إذا درست شرحه للايضاح . وهذا الشرح ممتع حقا ، ففيه ألوان طريفة من الدراسة والبحث والتجديد .

فشواهد الايضاح له مذهب جديد فى فهمها ، فتجده يشرح قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب

فيقول : تلمه تضمه . الشعث فى الاصل انتشار شعر الرأس وتغيره فتكثر أوساخه والمراد به هنا الأوساخ المعنوية على طريق الاستعارة ، ويعلق على بيت المتنبى :

أشد من الرياح الهوج بطشا   وأسرع فى الندى منها هبوبا

فيكتفى بقوله : الهوج جمع هوجاء : الريح التى لا تستوى فى هبوبها وتقلع البيوت من شدتها . وهكذا سائر شواهد الايضاح . ومع ذلك فهو وأيم الله أول من حلل شواهد الايضاح تحليلا أدبيا رائعا ، وأول من سار فى شرح الايضاح على الطريقة الادبية .

ونسبة الشواهد لأصحابها تجد له فيهـــا العجيب الطريف . فبيت حافظ المشهور :

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعبا طاهر الاعراق

ينسبه لشوقى .. وبيت بكر بن النطاح المشهور « له همم لامنتهى لكبارها » ، ينسبه لحسان وبيت الحزين الكنانى الاموى المشهور : « هذا ابن خير عباد الله كلهم» يأبى إلا أن يكون للفرزدق .. وإذا أراد التحقيق فى نسبة بيت قال : قول بعضهم ، وقول الآخر ، وقول الشاعر ، ويذكر بيت لبيد المشهور : وما المال والاهلون الا ودائع ، فيقول قبله : وكذا قول الشاعر ، ويقول فى بيت مشهور لجرير : « ونمت وما ليل المطى بنائم » هو لبعض الشعراء . وســـار على ذلك فى نسبة الآراء البلاغية لأصحابها ، فيقول حين نقل رأيا بلاغيا للأستاذ الجليل « سليمان نوار » : « ويقول بعض كتاب عصرنا » الخ . فلم لا يكون بعد ذلك كله إمام البلاغة وشيخها ، ولم لا يكون أول من سبق بنسبة الشواهد لاصحابها .

وإذا وصل إلى المذاهب والآراء فى مسائل البلاغة ادعى أنها مماحكات لفظية ساقطة ، وأنها إملال لا فائدة منه ، وأنها أمور لا داعى إليها فى عصر الذرة ،

وزعم فوق ذلك أنه لاخلاف بين أصحاب هذه الآراء وأن الخلاف بينهم لفظى، إلى آخر ما ملأ به صفحات شرحه للايضاح . ثم يذهب إلى أكثر من ذلك ، فيزعم أن عبد القاهر قد اضطرب كلامه فى البلاغة وأن آراء السكاكى سكاكية أعجمية ، وأن أبا هلال العسكرى قد اضطرب كلامه فى البلاغة الخ .

فاذا وصل إلى التعريف بالعلماء أتى بالعجب العجيب ، فيقول عن الجاحظ : هو عمر بن بحر الأصفهانى ، ونسى أنه عربى وليس أصفهانيا ولا من الموالى وأنه عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى .. فاذا أتى بأمثلة تطبيقية لمسائل البلاغة حرف وبدل وأتى بالغريب من الكلام والجديد من الفهم ، كما قال فى بيت أبى تمام :

ظعنوا فكان بكاى حولا كاملا ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

إن فيه تعقيدا معنويا ، ولما لفت نظره إلى أنه ليس فيه تعقيد ولا ما يشبه التعقيد عاد يخطئنى ويرد على فى نقده الذى طبعه ويقول إنه ليس هو الذى يقول بذلك وحده ولكن صاحب الصناعتين صرح بذلك ، فاضطررت إلى أن أرجع إلى كلام صاحب الصناعتين فوجدته ذكر هذا البيت ووصله ببيت ثان هو :

أجدر بجمرة لوعة إطفاؤها بالدمع أن تزداد طول وقود

وقال أبو هلال بعد ذلك مباشرة : « هذا خلاف ما يعرفه الناس ، لأنهم قد أجمعوا أن البكاء يطفىء الغليل الخ » . والطالب المبتدىء فى الأدب يفهم أن كلام صاحب الصناعتين إنما هو عن البيت الثانى وحده وأن البيت الأول « ظعنوا الخ » لا حديث له عنه . ولكنه أستاذنا الجليل فهم أن كلام صاحب الصناعتين إنما هو عن البيت الأول « ظعنوا » فذكره واكتفى به وحذف البيت الثانى : أجدر الخ ، الذى يتحدث عنه أبو هلال ، ثم حرف كلام صاحب الصناعتين فأسند إليه القول بأن فيه تعقيدا معنويا . . . وهـذا والله هو التجديد فى بحوث البلاغة ودراستها . وأنا والله فى حيرة من أمر أستاذنا ، إنه مجدد من طراز جديد حقا ، ولماذا وهو عمدة المحققين وزبدة الممحصين وخاتمة المجتهدين ؟

والطريف حقا فى مذهب أستاذنا الجليل أنه يرى أن البلاغة وقف عليه ، وأن إيضـاح القزوينى الذى سبق فشرحه صار ملكا له ، وأنه كان حجرا

محجورا على أحد سواه أن يتناوله بالشرح والتعليق ، وأعاد طبعه أخيرا فحذف اسم الخطيب منه ونسب كل ما فيه إليه وادعى أنه تأليفه ، مما لا نجد له نظيرا فى غرابته .

— ٢ —

وكان لى نصيب متواضع محدود فى دراسات البلاغة وبحوثها ، فقمت بنشر شرح جديد للإيضاح ، توخيت فيه تمحيص المسائل ، وتحقيق الآراء ، وإسناد كل رأى إلى صاحبه ، والموازنة بين القديم والحديث من هذه الآراء ، ثم عمدت فيه إلى بسط الحديث عن بحوث جديدة فى البلاغة تتصل بنشأتها وعلمائها وأوائل المصادر المؤلفة فيها ، وقرأ الناس ما ظهر من هذا الشرح ، فحمدوا لى هذا الجهد وأثنوا على منهج البحث العلمى فيه ، ففزع أستاذنا الجليل فزعا شديدا ، وطبع نقدا صغيرا سماه « التنوير » ثم عكف ستة شهور على قراءة الجزء الأول والثانى من شرحى وأخرج بعدها نقدا جديدا سماه « دراسة لكتاب فى البلاغة » . وإنى والله لأعجب من أستاذنا المجدد ، الذى يدعى أننى عاق لأستاذيته منكر لإمامته ، وأنا وايم الله لا أنكر شيئا من مذهب أستاذنا فى التجديد البلاغى ، ولقد بسطت الكلام على مذهبه بسطا فى أول هذه الكلمة ، ليعلم الناس وليعلم هو أنى أبعد الناس عن إنكار فضله أو جحد بيض أياديه على البلاغة وعلمائها ، ولو تلمذت عليه لكنت شيئا جـــديدا حقا ولأتيت بطرائف العتاهيات ، وبدائع اللوذعيات ، وروائع العبقريات .

وأول ما يطالعك فى نقد الأستاذ الصعيدى هذا الثناء العاطر الذى يضفيه الأستاذ على نفسه ، فهو رجل عقت هذه الشروح والحواشى ويعلم أن غثها أكثر سمينها ، ويقول : وياويل الأزهر فى عصر الذرة إذا علم الناس أنه لايزال يبحث فى « متعلقات الفعل » ألا مها مكسورة أم مفتوحة . وهو رجل يسير فى فهم البلاغة والتأليف فيها على الطريقة الأدبية من حيث عدت أنا فى شرحى إلى الطريقة التقريرية .. وشرحه قد طبع منذ أمد طويل فلم ير فيه الأساتذة كما يقول إلا مؤاخذة أو مؤاخذتين سهلتين ، ولا ينسى أن يشيد بأن ترتيبه كان الأول فى امتحان النقل بالسنة الاولى الابتدائية وأن الاستاذ الكبير العدوى عوذه من حاسديه ، ولا أدل على فضله عندى من أنى قلت فى مقدمة شرحى للإيضاح ما نصه : ولم يتناول الايضاح أحد بالتعليق حتى الآن إلا أستاذنا الشيخ الصعيدى .. وبحال

الموازنة بين شرحه وشرحى فى نظره معدوم : فشرحه مضبوط الشكل كما يقول مرتب ترتيبا حسنا مع جمال الطبع وجودة الورق ، أما شرحى فقد امتاز عنده بعدم حسن الطبع وعدم جودة الورق .

وتفضل أستاذنا فنشر نقده الاول وردى عليه ، وفى آخر نقده الجديد لاينسى أن يرد على ردى عليه ، فيأتى بكلام لا أدرى وجه الصواب فيه ، وكله تأييد لرأيى فى اختلال فهمه للبلاغة ومسائلها ، وهذه بعض أمثلة من رده على نقدى :

زعم أستاذنا أن بيت الحطيئة : « أولئك قوم ان بنوا الخ » قد نسبه السبكى لابن الرومى ، ولما لفت نظره إلى أن السبكى ينسبه للمتنبى لا لابن الرومى ، رد على فى نقده الجديد بأنه نقل ذلك عن السبكى خطأ لوجود ابن الرومى فيه بجوار المتنبى ؟ . وينسب رأيا فى تقديم المسند إليه لابن مالك ، فلفت نظره إلى أنه لحفيده ، فرد على بأن الأب جد أيضا ؟ ويقول إنه كان يؤاخذنى فى تكرار التعليق على بيت أبى نواس : وصيرنى هواك وبى الخ » وإن كان قلمه قد سبق إلى بيت آخر بجواره . وهذا والله هو منتهى التحقيق البلاغى عند أستاذنا الجليل ، ينقد شيئا فيترك ما ينقده ويأتى بغيره لانه بجواره . ومن الطريف أن هذا البيت ليس لابى نواس كما يقول وإنما هو لابن البواب . وخطأته فى رواية بيت فقال إن كثيرا من الابيات لها روايات متعددة ، ولما طالبته بأن يأتى بأى مرجع ينسب البيت : « يا على بن حمزة بن عمارة » لغير الصاحب بن عباد ، رد على بأن كثيرا من الابيات لا يعلم قائلها وهذا البيت لعله منها

وذهبت أنا إلى أن البيت : « إلهى عبدك العاصى أتاكا » لرابعة العدوية فانكر على ذلك دون أن يشير إلى أى مرجع ينفى ذلك . ويؤكد فى رده على أن الذكر كالحذف لا بد له من قرينة دون أن يتواضع ويخطىء نفسه ولو مرة واحدة . ويتحلل من التناقض الذى آخذته به — فى زعمه أن إسناد الخبر إلى المبتدأ مجاز قطعا — بأنه يلزم الخطيب أن يقول ذلك ولا يدعى أنه قال ذلك ؟.. ويرد على بأن الابيات « هذا ابن خير عباد الله كلهم الخ » ليست للفرزدق وإنما هى للحزين الكنانى بما خلاصته أنه وجد القصيدة فى مراجع كثيرة منسوبة للحزين ولم يجد فيها هذا البيت . وقصة بيت أبى تمام : « ظعنوا فكان بكاى حولا كاملا » قصة

ظريفة وقد سبق الاشارة إليها . ويدافع فى صفحة أو أكثر عن صحة عبارته : « وهم المهم أراد إلى مخالفة عبد القاهر فى شىء من ذلك أوصرح بوجود خلاف بينهما فيه يحتاج إلى كل هذا الجدال والحجاج وإنما ترسم فى ذلك خطاه » بكلام طويل لا أدرى معناه ، ويؤكد فى آخر كلامه ماسبق أن قرره فى شرحه من أنه لا خلاف بين عبد القاهر والسكاكى فى تقديم المسند إليه .

وخطأته فى زعمه أن فى سويداواتها تنافرا ، فقال إن ذلك موجود فى سر الفصاحة . وهذا والله جرأة نادرة على العلماء ، فان ابن سنان لم يدع أن فيها تنافرا وأنها مثل مستشزر كما يذكر أستاذنا ، ولكنه ذكر أن الكلمة قد يخل بفصاحتها طولها بكثرة حروفها مثل سويداواتها .. ويأخذ على أنى أثبت فى شرحى أنه يجوز أن يكون الضمير فى قول النابغة : « جزى ربه عنى عدى بن حاتم الخ » عائدا على شخص متقدم ، مع أنى لفت نظره إلى أن ذلك رأى السبكى . ولم يفهم أستاذنا كلام ابن يعقوب الذى رأى أن المقدمة مقـــدمة كتاب حيث قال : « والجواب أن المراد بالمقدمة مقدمة كتاب الخ » ، ثم فرض ابن يعقوب فرضا جدليا أنها ليست مقدمة كتاب وبين مايصح أن يسند ذلك الرأى ، على عاداتهم دائما فى مثل تلك المواقف . ولكن أستاذنا يفهم أن ابن يعقوب لا يرى المقدمة إلا أنها مقدمة علم لا مقدمة كتاب ، وكان يجب أن يبحث أستاذنا هذه المسألة حتى يهتدى فيها إلى الصواب .

وفى شرحى الايضاح بحوث جديدة فى آخر كل جزء ، وفيه أيضا بحوث ضافية خلال الشرح . وقد حنق الناقد على هذه البحوث الجديدة حنقا شديدا ، ورماها بعدم الجدة حينا وبالتكرار حينا آخر وبالخطأ مرة ثالثة وأسبغ عليها من نعوته ما شاء . ولن أناقش الأستاذ فى شىء منذلك لأن الجديد الذى يألفه مجددنا أن يأخذ آراء السبكى كلها وينحلها لنفسه مع مافيها من عدم تمحيص ودقة .. ومن المضحك أن تسمع له يقول : « وكذلك بحثه السابع الذى سينشره فى فى الجزء الثالث ، وأستطيع أن أحكم الآن بأنه لا جديد له فيه وأنه يدور فيه حول رأى معروف للاستاذ طه حسين فى كتاب نقد النثر » . ومن الجميل حقا أن الجزء الثالث لم يكن حين ذاك قد ظهر بعد ولم يكن اطلع على بحوثه أحد .

ويأخذ على الناقد أغلاطا إملائية وأخرى مطبعية وقعت فى الطبعة الأولى من شرحى للايضاح .

كما يأخذ بعض الأغلاط النحوية وهاك بعضها :

١ - قلت فى ص ٢٥ ج ١ : « أعم من أن يكون له مقدمة علم أم لا » ، ومن الطريف أن هذا كلام نقلته فى شرحى عن السعد .

٢ - وقلت فى ص ١١ ج ١ من شرحى : فالبلاغة باعتبارها علما مدروسا ليس من علوم العصر الجاهلى . . . وهذا نص موضوع بين قوسين ومكتوب فى أسفله مانصه : «ص ٤ و ٥ الأدب والفن - من مقـــال للأستاذ جب المستشرق المشهور » . ولكن أستاذنا يحب أن يستند إلى أى شىء ليرمى به .

٣ - وينقد قولى فى ص ٣٠ ج ١ من شرحى : « المعانى المختلفة الغير المشتركة » لدخول أل على غير ، ومن الجدير بالذكر أن دخول أل على غير يجيزه النحويون لتوغلها فى الإبهام وعدم تخصصها بالاضافة إلى مافيه أل ، على أنهم نصوا على أن غير تستعمل استعمال الصفات المشتقة ومن أحكام الصفات المشتقة قرنها بأل مع إضافتها إلى مافيه أل .

٤ - ومن الخطأ النحوى عنده قولى فى ص ٣٩ ج ١ من شرحى : « فلو تقدم المرجع على الضمير لفظا الخ » ، بدعوى تأخير جواب الشرط . وأستاذنا لعله قرأ نص كلامى هنا ، وعلم أنه لاغبار عليه وأن كل الزيادات التى أخرت جواب الشرط كانت موضوعة بين أقواس ، وأنى أعدت ذكر « لو » قبل ذكر الجواب فقلت : نعم لو تقدم المرجع فى كل ذلك جاز ، فهل يحب سيدى أن أذكر الجواب قبل استكمال الشرط .

ويؤاخذنى على تحريف مطبعى جاء فيه « فالخلاصة أن معنا نظم الخ » ، مع أنى سبقت فصححتها بأن الكلام « فالخلاصة انه معنا نظم » ، ومن الطريف أنه يستدل على خطئى هنا بأنى قلت فى موضع آخر « أن معنا تسع صور » ، ولم أقل إنه معنا ومن غلطاتى النحوية عنده قولى : « بشىء من وقوعها ولا وقوعها » .

ويعدد أستاذنا كثيرا من التحريفات التى وقعت فى كتاب الايضاح فى شرحى وهناك بعض نماذج لهذه التحريفات كما قال :

١ - « كما فى قـــول أبى الطيب » ، ذكرت فى شرحى هكذا : كما فى قول أبى الطيب (المتنبى)

٢ - وفيه نظر - ذكرت هكذا : (قال الخطيب) وفيه نظر .

٣ - « أو غير لفظية » .. ذكرت هكذا : أو غير لفظية (معنوية) .
٤ - « ولا بد له من قرينة » .. ذكرت هكذا ولا بد له (أى المجاز العقلى) من قرينة .

٥ - وفيما ذهب اليه (السكاكى) نظر ، وصحتها عنده . وفيما ذهب اليه نظر .
٦ - وقوله (أى الحطيئة) أولئك الخ وصحتها عنده : وقوله أولئك ... وذكر من هذا اللون نحو المائة تحريف مما زدت فيه على الايضاح بعض زيادات ووضعتها بين قوسين مع أنى ذكرت فى مقدمة شرحى أنى زدت على الايضاح [1] بعض زيادات ووضعتها بين قوسين وليست من صلب الكتاب .. ومن نماذج التحريفات عنده ما يأتى .

١ - وضع الأعلام مثل أميم هكذا (أميم) .
٢ - الاخبار إذا خلا ، وصحتها كما يقول : الإخبار الخ .
٣ - وأعلم أن ، وصحتها كما يقول . واعلم أن .
٤ - أفاده الاسناد ، وصحتها كما يقول : أفاده الإسناد .
٥ - فيقال انه ، وصحتها كما يقول : فيقال إنه .
٦ إمرأتين ، وصحتها كما يقول : امرأتين .
٧ - إصفرارى ، وصحتها كما يقول : اصفرارى .

٨ - ويزعم ان « ومهمه مغبرة ارجاؤه » زيادة زدتهـــا انا على الايضاح فى شرحى ولم إضعها بين قوسين . وإذا كانت عند استاذنا إمام البلغاء زيادة فلم وضعها هو فى صلب الايضاح ايضا (ص١٦٢ جـ ١ شرح الايضاح للصعيدى ط ١٩٣٥)

٩ - ومن التحريف عنده ماجاء فى شرحى : « عزير ابن الله » ، وصحتها عنده « عزير بن الله » ، ولعله لا يعرف ان الله هنا ليس ابا ، وإذا كان ابا فى راى اليهود فليس ذلك بصحيح او ذلك ليس على حقيقته عندهم كما فى راى للايضاح .. ومن هذا يتبين أن رسمه هو الخطأ وفيه التحريف .

١٠ - ويأخذ على انى قلت « علقمة بن عبده » وذلك تحريف عنده وراجع

---

(١) ولو حاسبناه على ذلك لكان فى كتابة بغية الايضاح عشرون الف تحريف تقريبا ، لأنه وضع بين كلام الخطيب بعضه والبعض ابياتا من الشعر وآيات من القرآن الكريم بدعوى انها تطبيقات

(١٢٢ ج٢ من شرحى) فتجد نص ذلك «علقمة بن عبده» لا علقة كما يقول ، وإذا كان التحريف فى «عبده» حيث لم ترسم «عبدة» فما اروع ذلك من تحريف

١١ — ومن التحريف عنده «أخى الهيجا» وصحتها عنده : «أخى هيجاء» ولا أدرى لم لم يعتذر بما اعتذر به عن نفسه من تعدد الروايات .

١٢ — ومن التحريف : وادم من تراب ، وصحتها عنده : وآدم من تراب . وأمثال تلك التوافه الصغيرة كثير مما يعتد به الناقد المجدد

١٣ — ومنه «اللذين» وصحتها عنده الذين ، ومن الطريف أنه فى موضع آخر من نقده «دراسة الكتاب فى البلاغة» ص ٦٥ يؤاخذنى على الذين وصحتها عنده اللذين ، ولا أدرى أيهما هو الصواب عنده

١٤ — ومن التحريف عنده : «لو أنك الخ» وصحتها عنده : «لو انك الخ» . ورسمى هو الصحيح ، ولكن مولانا لا يحب أن يجنب نفسه الزلل ، وصدق الشاعر : «وتنكر العين ضوء الشمس من رمد» .

— ٣ —

وعقد الناقد المجدد فصلا بعنوان : «مؤاخذات جديدة» وهاك كثيرا منها : فى شرحى بيت المتنبى بهذا النص :

مثلك يثنى المزن عن صوبه ويسترد الدمع عن غربه

فقال ناقدنا (٥٤ من نقده) ما نصه : روى بيت المتنبى هكذا : «مثلك يثنى المزن الخ» ، ورواية الديوان : يثنى الحزن ، فحرف الناقد روايتى لغرض فى نفسه واحتج على برواية أخرى للبيت مع أن الرواية التى فى شرحى هى نص كلام الايضاح وكلام عبد القاهر فى الدلائل (ص ١٠٦) ، بل هى نص رواية الناقد فى شرحه (١٣٣ ج ١ شرح الايضاح للصعيدى ط ١٩٣٥) . وليس هناك أغرب من ذلك النقد .

وقال ناقدنا : «علق الأستاذ على قول الايضاح : «فنقول له زيد أخوك سواء عرف أن له أخا ولم يعرف أن زيداً أخوه أو لم يعرف أن له أخا أصلا» بقوله : أى مع كونه عالما بكل منهما فى ذاته كما هو أصل المسألة من كون السامع عالما بكل من المسند إليه والمسند .. وهذا لا يصح التعليق به على قول الايضاح «أو لم يعرف أن له أخا أصلا» ، لأنه مناقض صريحا لأصل المسألة .. ولا أدرى كيف

فهم أستاذنا هذه المناقضة وكيف يثبتها ، مع قولى عالما بكل منهما فى ذاته ، وعالما بكل من المسند إليه والمسند .

ومن طريف نقده ما نصه : وذكر — أى خفاجى — أن ضعف التأليف ينفرد عن التعقيد اللفظى فى مثل « جاءنى أحمد » ، مع أن هذا المثال ليس فيه ضعف تأليف . فهل خفى عليه أن يقرأ أحمد بالتنوين فى هذا المقام ، أو خفى عليه أن تنوين الممنوع من الصرف من ضعف التأليف ؟ ولا أدرى إذا كانت المطبعة لا تستطيع شكل أحمد كيف يوجه الأستاذ مثل هذا النقد الظريف ؟ ومن الطريف أنه يطيل جدا فى شرح كل نقد لملأ صفحات من كتاب كامل حتى يكون فى ذلك النصر الأخير على مثلى ، بل إنه يكرر كثيراً من نقده لى أكثر من مرة لتكثر أرقام المؤاخذات فى كتابه .

والتنكير فى « إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » للتهويل أو لخلافه ، فشرحت كلمة « خلافه » بأن المراد منها التقليل . فخطأنى الناقد بدعوى أن المراد منها : التحقير . وأرجو أن يقرأ الآية الكريمة مرة أخرى ليفهم إن التحقير هنا لا يفهم من الآية ولا يقال فيها .

وهاك نقداً آخر رائعا : ذكر — أى خفاجى — بيت الشاعر :

الحمد لله العلى الأجلل (أنت مليك الناس ربا فاقبل)

« فزاد ما وضعه بين قوسين وليس هذا من حقه ، وقد ذكر بعد هذا أن البيت فى الكتاب لسيبويه ، فجعله بيتا وهو بيتان ، لأن كل مصراع من الأراجيز بيت كما هو ظاهر » . !!!

وقال صاحب الايضاح : « أما توكيده فللتقرير كما سيأتى فى باب تقديم الفعل وتأخيره » ، فقلت : أى تقرير المسند إليه أى تحقيق مفهومه ، وقيل المراد تقرير الحكم نحو أنا عرفت الخ . فقال الناقد : تلك الزيادة « كما سيأتى الخ » تقتضى تفسير التقرير فى الايضاح بتقوية الحكم أى تقريره فقط ... ولم يدر الناقد أن هذا ضعيف جدا وقد ضعفته فى شرحى أيضا لأنه على ذلك لا يكون فى المثال تأكيد المسند إليه ، ولكن ما ذنبنا والناقد يأبى إلا أن يكون له جديد .

ونحو زيد أخوك يقال كما فى الايضاح لمن يعرف زيدا بعينه سواء عرف أن له أخا أم لم يعرف ، وظاهر لفظ متن التلخيص أنه يقال لمن يعرف أن له أخا . فذكرت التوفيق بين الرأيين ، فكان ذلك خطأ وحشوا عند ناقدنا الكبير .

ولأنى جعلت المصدر هو المشتق لا الفعل كان ذلك خطأ كبيرا عنده لأن ذلك خلاف المذهب البصرى كما يقول؟ وكذلك من نقده : قولى فى بيت أبى تمام : «كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى الخ» الواو فى الورى للحال ، فكان ذلك خطأ كبيرا .. ومنه قولى فى بيت المتنبى «كريم الجرشى الخ» : الشاهد فى الجرشى فانها لفظ غير فصيح الخ ، فكان ذلك خطأ عنده لأن صاحب الايضاح قال : «كلفظ الجرشى» . ومن الطريف أنى ذكرت الآراء فى فتح لام «متعلقات الفعل» أو كسرها فى آخر الجزء الثانى من شرحى فقال ناقدنا ما نصه : يا ويل الأزهر من التاريخ إذا مكث بعد ألف سنة من إنشائه يردد فى عصر القنبلة الذرية كلام الحواشى فى فتح لام متعلقات الفعل أو كسرها ؟

وقولى فى الانشاء : «هل له نسبة خارجية أولا» ، خطأ عنده لأن ذلك — كما يقول — أسلوب الحواشى القديمة .. وقلت فى بيتى المتلمس «ولا يقيم على ضيم يراد به الخ» .. وهما من شواهد التقسيم فى باب البديع ، فكان ذلك عنده خطأ لأنى ذكرت الشىء فى غير موضعه ... وكرر ما ذكره من أنى زدت : «ومهمه مغبرة أرجاؤه» على كلام الايضاح ، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان أولى بأن يحاسب نفسه على زيادتها فى شرحه للايضاح (١٦٢ / ١ شرح الصعيدى) ... وذكرت رأى السكاكى فى تقديم المسند إليه بتفصيل ثم وضعت عنوانا نصه : «رأى السكاكى فى الميزان» ، فلم يرق ذلك ناقدنا فقال : «على حد قول بعضهم البرلمان فى الميزان» ، وقد خيل للاستاذ فى هذا أنه يكتب فى جريدة أو مجلة فاختار ذلك العنوان ليأتى بجديد فى البلاغة» (ص ٥٤ من نقده) !!!.

وذكرت فى التعليق على الحديث الشريف : «الكريم ابن الكريم الخ» . ما نصه : يسمى هذا اللون فى البديع «الاطراد» ، فكان هذا عيبا عند ناقدنا لأنه ذكر فى غير موضعه ، ونسى أن دراسة البلاغة فى كلية عالية غير دراستها فى معهد ابتدائى .

وهذه الدراسة الواسعة لمذاهب البلاغيين فى تقديم المسند إليه آلمت الأستاذ ، فرمى هذا البحث الطريف بالحشو والتكرار ، ونسى أننا لا نصنع صنيعه فنمر على مسائل البلاغة قائلين : هذه مماحكات لفظية ساقطة ، ونأخذ آراء البلاغيين ونقول : «ويقول بعض كتاب عصرنا» ... ومن الغريب أن نجد رأى

الأستاذ فى كل تحقيق بلاغى واحدا ، ففى كل تحقيق بلاغى يقول : فيه تكرار وحشو وإطالة . ولو كنا نستبيح لأنفسنا مثل ذلك لأرحنا واسترحنا ، ولكنا لانستطيع أن نقول مايقوله هو ، من مثل أنه «لاخلاف بين السكاكى وعبدالقاهر فى تقديم المسند إليه» . ومن الطريف أنه ينقدنى فى موضع بأنى أتابع السعد فى تكلفه (٤٧ من نقده) .

والبيت : «قال لى كيف أنت قلت عليل الخ» ذكرت فيه علة حذف المسند إليه ، ثم قلت : وهو مع هذا شاهد على شبه كمال الاتصال فى باب الوصل فكان ذلك خطأ لا يغتفر .

ومن ملاحظاته الجليلة ما نصه : وروى ـ أى خفاجى ـ بيت الخالدى :

وصيرفى القريض وزان دينار المعانى الدقاق منتقد

فأضاف بعض الشطر الأول إلى الثانى» ؟ ... ومن مثل هذا اللون نقد رائع آخر ، قال ما نصه : «ذكر ـ أى خفاجى ـ هذا العنوان : البلاغة والمحاولات الأولى فيها (هذا تحريف منه وصحة الكلام «فى فهمها» ، كما فى شرحى ص ٤ ج ١)» .

وهذا نقد عجيب حقا يدل على أستاذية مولانا فى البلاغة ، يرى عبد القاهر أن حذف المفعول فى الآية «ولما ورد ماء مدين الخ» للتوفر على إثبات الفعل ، ورأيه هو ما سار عليه السعد والخطيب فقال السعد «للقصد إلى الفعل» ، وقال الخطيب : «لإثبات المعنى فى نفسه للشىء على الاطلاق» ، ولكن السكاكى يجعل الحذف للاختصار ، وقال الخطيب فى رأى عبدالقاهر : وهو ظاهر كلام الزمخشرى ، فقلت فى شرحى : وقد رجح الخطيب رأى الشيخين (عبد القاهر والزمخشرى) على رأى السكاكى .. «فقال ناقدنا : ونسى ـ أى خفاجى ـ ماذكره فى الصفحة السابقة من المخالفة بين رأى عبد القاهر والخطيب ... وكرر الناقد ذلك فقال : مع ثبوت الفرق بينهما باعترافه .

وما أروع هذا الفهم الذى يعقد مخالفة بين أقوال متحدة وينسب إلى أننى مسلم لهذه المخالفة المزعومة ومقرر لها .

وقال الخطيب فى : «يسألونك ماذا ينفقون الخ» أجيبوا ببيان المصرف . فقلت أنا فى شرحى ما نصه : رواية سبب النزول أنهم سألوا عنه وعن المصرف فلا تكون الآية على هذا من تلقى السائل بغير ما يتطلب . فنقدنى الأستاذ بأن

الواجب الأخذ بظاهر الرواية لأن أسباب النزول فيها كلام كثير الخ .

وقلت عن البيتين : « أنت تشتكي عندي مزاولة القرى الخ » مانصه : لعلهما لحاتم ، فقال الناقد : ان طريقة لعل لم تسمع إلا من الأستاذ .. وكنت أريد من ناقدنا أن يقول لا بل هما لغير حاتم ، وإذا كان شراح الشواهد لم يتعرضوا لقائلهما فقلت « لعلهما لحاتم » فما خطأ ذلك ؟ ولست أنا من الذين ينسبون الشواهد لغير قائلها كما يفعل ناقدنا الجليل .

وقال صاحب الايضاح : « واعلم أن الفعل المبنى للفاعل فى المجاز العقلى واجب أن يكون له فاعل فى التقدير إذا أسند إليه صار الإسناد حقيقة » ، فشرحت وحللت كلام العلماء فى هذا كعبد القاهر والرازى والسكاكى . فكان ذلك لا داعى له عنده لأنه كما يقول زيادة للتعقيد والتحريف .

وذكر قولى فى نحو رجل ما نصه : « قيل إنه وضع للفرد المنتشر بنـــاء عليه فلا تعين فى مدلوله » ، وعلق على ذلك بكلام طويل . ولم يرشده رأيه إلى أنه خطأ مطبعى ظاهر ، وصحة الكلام : « وبناء » .

ويقول نقـدا لى فى تعليق على قول امرىء القيس : « تطاول ليلك بالأثمد الخ » ما نصه : وقد قيل إن مذهبهما ـــ أى السكاكى والزمخشرى ـــ فى الالتفات واحد كما ذكر الأستاذ ـــ يريد خفاجى ـــ ، ولكن هـذا لا يؤخذ من رأيهما فى هذه الأبيات لأن السكاكى صرح بأن فى كل بيت منها التفات (نسى صاحب النحو الجديد أن يقول : التفاتا لأنه اسم أن) ، والزمخشرى لم يصرح بذلك الخ ... ولا أدرى معنى هذا الكلام الأجوف الفـــارغ الذى ينطق عن عدم فهم للموضوع .

ومن أخطائى عنده قولى فى شرحى : « فالجملة الاسمية تفيد بأصل وضعها الثبوت .. وقد تفيد الدوام أى بالقرينة ومن حيث العدول عن الفعل إليه » ، لأنه ليس هناك مرجع للضمير ، ولعله لم يفهم أن الضمير عائد إلى الاسم بدلالة « الاسمية » .

ويقول الخطيب فى تنكير المسند : وإما للتنبيه على ارتفاع شأنه أو انحطاطه » . فقلت فى شرحى : « وفى شرح السعد : أو للتفخيم نحو هدى للمتقين أو للتحقير نحو ما زيد شيئا ، وهما عبارتان متقاربتان » . فقال ناقدنا : مثل هذا لا يقبل من الأستاذ لأن النكتتين متحدتان . فلم يفهم مغزى كلامى من تقارب العبارتين ،

ورد على باتحاد النكتتين .

ومن طريف نقده وعجيب مآخذه ما نذكره لك : البيت

إن التى ضربت بيتا مهاجرة بكوفة الجند قد غالت ودها غول

جاء فى الاستدراك المنشور فى آخر الجزء الثانى من شرحى : قد غالت صحتها غالت . فقال ناقدنا : « يشير بهذه الزيادة — قد — إلى تحقيق الخبر وإن كانت مخلة بوزن البيت ولكنه تنبه هنا إلى أنها تخل بالوزن فأشار إلى زيادتها فى التصحيحات وإنى أرجح أنه زاد ذلك عمدا لا سهوا » .!!

وقلت عن قول الخطيب فى تعريف المسند إليه بالاشارة لصحة إحضاره فى ذهن السامع بواسطة الاشارة إليه حسا » : لتمييزه أكمل تمييز لغرض من الأغراض كالمدح وغيره فكان ذلك خطأ كبيرا عند مولانا الكبير . ولم يفهم أن عبارتى شرح لصحة الاحضار أو بيان لغايتها .

وذكرت أن تعريف المسند إليه بالاشارة يبحث عنه فى علم المعانى من جهة غير الجهة اللغوية ، واستشهدت بكلام لعبد القاهر نصه : « علم البلاغة هو على الجملة بحيث يلتقى لك من علم الاعراب خالصه ولبه » . فقال ناقدنا : وفى رأيى أن استعمال اسم الاشارة فى ذلك ليس من خالص علم الاعراب ولبه الخ . ولا أدرى أهذا نقد لكلامى أم لكلام عبد القاهر ؟

ويقول ناقدنا فى ص ٦٥ من نقده : وعلق الأستاذ على قول الايضاح « جاءنى زيد لا عمرو » بقوله : لمن اعتقد أن عمرا جاءك دون زيد الخ مع أن الايضاح قال مثل هذا بعد المثال الذى علق عليه الأستاذ . ونص كلامى لمن اعتقد أن عمرا جاءك دون زيد فيكون قصر قلب أو أنهما جاءاك جميعا فيكون قصر إفراد الخ .. فما الخطأ فى ذلك التوضيح لإجمال الخطيب وفى هذا التنصيص على الفرق بين الوجهين .

ويقول السعد فى المطول ص ٤٦ فى شرح « تنزيل المخاطب العالم بالفائدة ولازمها منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم » ما نصه : « فان من لا يجرى على مقتضى العلم هو والجاهل سواء كما يقال للعالم التارك للصلاة الصلاة واجبة وللسائل العارف بما بين يديك ما هو : « هو الكتاب » ; ومثله : هى عصاى فى جواب « وما تلك بيمينك » ا هـ كلام المطول . فنقلت ذلك فى شرحى ، فقال الناقد

الكبير : فكأن موسى نزل المولى منزلة الجاهل عند الأستاذ ، وأمر ناقدنا الكبير عجيب وكأنه نسى أن المعنى : ومثله في الأسلوب لا في التنزيل ، مثلا .

وملاحظته على كلامى عن ثعلب وابن المعتز ومنزلتهما فى دراسات البلاغة لارد لى عليها ، لأن ناقدنا لايفهم مثل هذا النحو من البحوث .

ومن طريف نقده قوله : وذكر بيت الفرزدق « ان الذى سمك السماء بنى لنا بيتا الخ ، وفسر البيت بالكعبة أو بيت الشرف ، والصحيح أن البيت بيت الشرف لا الكعبة !!!

والمبرد فى الكامل يعرض لأسلوب القلب ، وليس فيه تخصيص جوازه للمتقدمين . ولكن الآمدى يذكر فى الموازنة أن أسلوب القلب قاصر على المتقدمين عند المبرد ، فذكرت كل ذلك فى شرحى فكان ذلك تناقضا كبيرا عند مولانا الناقد ، ولعله لا يعلم أنى أضع النصوص أمام القارىء ليبحث كلام الآمدى ويراجع البحث فى مراجع واسعة غير الكامل لعله يظفر بما يؤيد كلام الآمدى ... وشرحت قول الايضاح : إلا مملكا يعنى هشاما ، بقولى : أى رجل أعطى الملك والمال يعنى هشاما ، فقال : وهو كتفسير الماء بالماء .

والملابسة بين الفاعل الحقيقى والمجازى فى المجاز العقلى وتحقيق معناها أهى المشابهة بينهما كما ارتضاه العلماء أم هى التعلق والارتباط كما هو ظاهر كلام بعضهم . كل ذلك بحث لا يرضى الشيخ ، وهو غير صحيح عنده ، ولم يدر أن اختيارى لأنها هى المشابهة بينهما هو حقيقة كلام عبد القاهر والزمخشرى والسكاكى فهو لا يخطئنى وحدى وإنما يخطىء هؤلاء .. ويقول : السكاكى وحده هو الذى جعل علاقة المجاز العقلى هى المشابهة فى الاستعارة وما وقع من غيره من أن العلاقة فى المجاز العقلى هى المشابهة فى الملابسة فلا يريد بها المشابهة المعتبرة فى الاستعارة .

وقال ما نصه : علق على قول رؤبة : « كأن لون أرضه سماؤه » ، بعد أن زاد عليه فى الإيضاح قوله : ومهمه مغبرة إرجاؤه ، فقال بعد شرح المفردات : والشاهد المصراع الأخير فانه من باب القلب والمعنى كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه ، وهذا هو ما علق به عليه الإيضاح فلا معنى لذكره ، وقد نسى هنا أن يضع ما زاده فى الإيضاح بين قوسين على عادته فصار من الإيضاح بلا اشتباه .. فنجد ناقدنا :

١ ـ ذكر هذا النقد فى التحريفات فكرر .

٢ ـ ادعى أنى زدت ومهمه الخ على الإيضاح . وكان يجب أن يحاسب نفسه على هذه الزيادة إذ وردت فى صلب كلام الإيضاح فى شرحه هو (١٦٢ج١ شرح الصعيدى ١٩٣٥) .. ومن الجدير بالذكر أنه ليست هناك زيادة على الإيضاح ولا شبهها .

٣ـ ونسى الناقد أن الايضاح لم يحدد موضع الشاهد فحددته وذكرت سبب كونه شاهداً وإن اتفق جزء من كلامى مع كلام صاحب الايضاح . ومن الظريف أنى فى شرحى أبسط الكلام على الآراء بسطا كافيا ، فلا يجد ناقدنا مجالا للنقد إلا أن يأتى بعبارات الحواشى التى يقول إنه ينفر منها فيقيسها على عبارتى ليرى ما بين العبارات من زيادات أو نقص ! !

وحين كلامى على إيراد المسند إليه علما للكناية ذكرت رأى الخطيب والسكاكى فى تعريف الكناية فكان ذلك خطأ لا يغتفر . وخصص صفحة لنقد كلامى على قول الإيضاح « فالجمع بينهما بحمل كلامه حيث نفى أنها من صفات اللفظ على نفى أنها من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب » دون أن يفهم شيئا عن الموضوع والخلاف فيه .

ومن الظريف أنه يعلق على قولى : « ويقول عبد القاهر فى الدلائل » بمانصه : يعنى الأستاذ دلائل الاعجاز لا دلائل الخيرات .

وحين أنقل رأيا لعبد القاهر لأعقد الموازنة بين كلامه وكلام الخطيب يكون ذلك تكرارا ..

وبعد فليس هنا بعد ذلك مجال الافاضة فى الرد على أخطاء ناقدنا الكبير ومدى فهمه للبلاغة ومسائلها .

فطنة الشاعر بالمعانى

المعانى التى يصوغها الشاعر الملهم هى المعانى الرفيعة المختارة ، الجديدة المبتكرة ، الخاصية الشريفة ، التى لا يصل إليها عقل العامة وتفكيرهم واستنباطهم ؛ يستمدها من كل شىء فى الحياة ، وكل جديد فى الكون ، وكل مشهد من مشاهد الطبيعة ومنظر من مناظر الوجود .. وفطنة الشاعر بالمعانى لا تقف عند حد ، ولا تنتهى عند غاية ، فهو ينظر إلى الأمور نظرة خاصية ، ولا يكتفى بالنظرة العابرة وما توحى به من أفكار فى بادىء الرأى ، وإنما يدقق ، وينظر إلى التفاصيل ، ويأخذ ما يأخذ ويدع ما يدع فى دقة وحذر بالغين ؛ فإذا نظر إلى الزهرة لا يكتفى بملاحظة ألوانها وإدراك عبيرها ووصف جمالها ، ومتعة المحبين بها ، وإذا نظر إلى البحر الثائر لا يرضى بوصف أمواجه العالية وسعته التى لا تحد ومياهه التى ليس لها نهاية ، وإنما ينظر إلى مصدره ومورده ، وأسرار الأبدية الخالدة التى أودعته إياها ، والحياة المتدفقة التى يفيض بها ، والشباب المتجدد الذى تنطوى عليه قطراته وترتدى به موجاته ، إلى غير ذلك من دقائق فطنة الشاعر بالمعانى ومحاولته الكشف عن كل جديد فى الوجود

وقد لا تكون المعانى الجديدة فى شعر الشاعر كثيرة ، وقد يستمير معانى السالفين ويحاول التجديد فى أسلوبها ، وإضافة شىء إليها ، والتفصيل فى بعض جوانبها ، فيأتى بما يعجب ويروق .

ولا ضير على الشاعر فى أن يستعير من معانى القدماء ما يشاء ، ويحذو حذوهم فى التعبير عما أعجبه من دقائق الآراء والأفكار ، متى كانت المعانى التى استعارها منهم ذائعة مشهورة ، وعامية معروفة . . أما المعانى الخاصية التى تنسب لشاعر بعينه وأنه مبتكرها والذى كشف غوامضها فإن أخذها واستعارتها يعد سرقة شعرية ، لا يكون للشاعر معها فضل ، ولا يخصه النقاد من أجلها بمحمدة ، وقد تغتفر له هذه السرقة متى أضاف إلى المعنى ما يحسنه أو إلى الأسلوب ما يزينه .

فإذا عمد الشاعر إلى المعنى ذى الأسلوب الطويل فصاغه فى إيجاز بليغ رفع ذلك عنه إصر المؤاخذة ، كما فعل شاعر مخضرم حين أخذ بيت طرفة :

أرى قبر نحام بخيل بماله   كقبر غوى فى البطالة مفسد

فصاغه فى شطر بيت لطيف جميل فقال « وسواء قبر مثر ومقل » ، فجاء ببيت طرفة فى عجز بيت بمعنى لائح ولفظ واضح لطيف .

وقد يعمد الشاعر إلى اللفظ المرذول فيهجره ويأتى مكانه بالرشيق الجزل ومن مثل ذلك قول العباس بن الأحنف وأتى بمعنى لطيف دقيق :

زعموا لى أنهـــا باتت تحم ابتلى الله بهـــذا من زعم
اشتكت أكمل ما كانت كما يشتكى البدر إذا ماقيل تم

فالمعنى لطيف ولكن الألفاظ مبتـذلة ، وقد أخذه ابن المعتز فصاغه صياغة جيدة ، أوضح بها معالمه ، وأبان من شرفه ، فقال

طوى عارض الحمى سناه لحالا وألبس ثوبا للسقام هزالا
كذا البدر محتوم عليه إذا انتهى إلى غاية فى الحسن عاد هلالا

ومن مثل ذلك أيضا قول أبى نواس فى أسلوب مبتذل عامى

بح صوت المـال مما منك يشكو ويصيح

فقد أخذه مسلم لجود الصنعة حين قال

تظلم المال والأعداء من يده لازال للمال والأعداء ظلاما

فجمع بين تظلمين كريمين ، ودعا للممدوح بدوام ظلمه للمال والأعداء ، فى أسلوب قوى جل ، عليه رونق البلاغة وسحرها

وقد يولد الشاعر فى المعنى ، ويحاول التجديد فى حواشيه وتفاصيله فيضيف إليه زيادة تحسنه ، أو ينفى عنه عيبا يهجنه مما يدل على فطنته ، كقول أبى نواس

واسقنيهـــا من كميت تدع الليـــل نهـارا

ثم قال أيضا

لا ينزل الليل حيث حلت فـــدهر شرابهـــا نهـار

ثم قال

المبتغى المصباح قلت له اتئد حسبى وحسبك ضوؤها مصباحا

ومن مثل ذلك أيضا قول النابغة :

سقطت النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

أخذه أبو حية النميرى فبهج المعنى وحسنه وأضاف إليه زيادات لطيفة فقال :

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين : كف ومعصم

وأبرزه فى هذا الأسلوب البارع الجميل ، وأبو حية النميرى شاعر أموى محسن مجيد يحفل شعره بالجزالة والروعة والبلاغة ، وهو القائل :

ألا حى من أجل الحبيب المغانيا لبسن البلى مما لبسن اللياليا
إذا ما انقضى للمرء يوم وليلة تقاضاه شىء لايمل التقاضيا

ومن مثل المفاضلة بين المعانى قول امرىء القيس :

ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقول كثير :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

أتى امرؤ القيس بما لايعلم وجوده فى البشر من وجود طيب فيمن لم يمس طيبا ، وجاء بالمعنى فى بيت حسن النظام بارع الأداء ؛ من حيث طول كثير وقصر غاية التقصير ، وأخبر أنها إذا تطيبت كالروضة فى طيبها ، وذلك مما لايعدم فى أقل الناس نظافة وجمالا : ويقول ديك الجن فى الراح :

فتنفست فى البيت إذ مزجت بالماء واستلبت سنا الذهب

فذكره لكلمة الماء مع المزج حشو لافائدة فيه ، وأخذ المعنى من أبى نواس :

سلبوا قناع الشمس عن رمق حى الحياة مشارف الحتف
فتنفست فى البيت إذ مزجت كتنفس الريحان فى الأنف

فخلا شعر أبى نواس من الحشو السابق ، وجود أبو نواس المعنى وحسن الأسلوب
وقال جزء بن ضرار أخو الشماخ :

أتانى فلم أسرر به حين جاءنى حديث بأعلى القبتين عجيب
تصاممته حتى أتانى يقينه وأفرغ منه مخطىء ومصيب

وفى هذا المعنى يقول أبو تمام :

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا فأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

ويقول المتنبى :

طوى الجزيرة لما جاءنى خبر فزعت منه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

فاستبد المتنبى بالمعنى ، وحاز شرف التجديد والتوليد والتحسين فيه .

والتوليد فى المعانى ، ومحاولة التفصيل فيها والاحتراس مما يهجنها ، مظهر من مظاهر فطنة الشاعر ودقة بصره ونفوذ فكره ؛ وهى ما نطالب بها شعراءنا فلا يكفى أن يصوغوا معانيهم عامية مبتذلة سوقية ، ولا أن ينظروا إلى الأشياء نظرة سطحية لا تعمق فيها ، ولا أن يسرقوا من معانى القدماء ما يشاءون ، وإنما نريد أن يكون للشاعر موهبة فنية كاملة تفهم الحياة وتتذوقها وتعبر عنها فى إجادة .

يقول حسان بن ثابت :

إن التى ناولتنى فرددتها قتلت ـ قتلت ـ فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطنى بزجاجة أرخاهما للمفصل

يصف الخمر الممزوجة ، ويريدها صرفا لم تمزج بشىء ، ودعاؤه على الساقى لطيف جميل للغاية .. ونقد الحريرى فى كتابه «درة الغواص» قول حسان «أرخاهما المفصل» وقال القياس أشدهما إرخاء للمفصل ، لأن أصل هذا الفعل أرخى فبناؤه ليس مقيسا ، كما قالوا ما أحوجه إلى كذا فبنوه من حوج وإن كان قياسه ما أشد حاجته . وحدث الانبارى أبو بكر محمد بن القاسم عن أبيه عن الربعى عن السعدى عن ابن ظبيان قال : اجتمع قوم على شراب لهم فغناهم مغنيهم بشعر حسان «إن التى البيتين» فاختلفوا فيهما ، فقال بعضهم سأسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى عن هذا الشعر ، وكيف قال الشاعر «التى» فوحد ثم قال كلتاهما فثنى ، فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه ومضوا يجتازون القبائل والأحياء ، حتى انتهوا إلى بنى شقرة وعبيد الله بن الحسن يصلى ، فلما فرغ من صلاته قالوا : قد جئناك فى أمر قد دعتنا إليه الرغبة ، وشرحوا له خبرهم ، وسألوه الجواب ، فقال «إن التى ناولتنى فرددتها» عنى بها الممزوجة بالماء ، ثم قال فى البيت الثانى «كلتاهما حلب العصير» يريد الخمر المحتلبة من العنب والماء المحتلب من السحاب(١)... ونحن لا نوافق القاضى على فهمه ، ونرى أن الشاعر إنما أراد بقوله كلتاهما الخمر الممزوجة والخمر الصرف التى لم تمزج ، فوصفهما ، ثم آثر الصرف لشرابه لأنها أرخاها للمفصل وأكثرها

---

(١) ٢٠٧ / ٣ شرح مقامات الحريرى للشريشى .

تأثيرا على الانسان ...ودعاء حسان على الساقى بالقتل لأنه مزج الخمر بالماء لطيف للغاية ، بارع جدا ؛ وقد أحسن كل الاحسان فى تجنيس اللفظ «قتلت قتلت» ، وآثر بعد ذلك مالم تقتل ، يعنى الصرف التى لم تمزج ، وقوله «أرخاها المفصل» حمله بعض الأدباء على اللسان وسمى مفصلا(١) لأنه يفصل بين الحق والباطل ، ونحن لا نوافقهم على ذلك ، ونرى أن المراد بالمفصل(٢) ملتقى كل عظمين من عظام جسم الانسان... وأخذ هذا المعنى مسلم بن الوليد فقال :

إذا شئتما أن تسقيانى مدامة فلا تقتلاها كل ميت محرم
خلطنا دما من كرمة بدمائنا فأظهر فى الألوان منا الدم الدم

فزاد على حسان بالبيت الثانى كله ، وبالتعليل اللطيف «كل ميت محرم» ، وإن لم يبلغ مبلغه فى الجزالة والقوة وسحر الأسلوب ، ويقول أبو نواس فى الصرف:

وكميت أرقها وهج الشمـ ـس وصيف يفنى بها وشتاء
لم يشنها الطاهى بطبخ ولا غـيرها عن طبيعـة الدم ماء

ويقول أيضا فى الممزوجة :

ألا داوها بالمـاء حتى تلينها فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

ويقول ابن رشيق القيروانى :

مالى ومزج الراح إلا فى فمى بالريـق من فم غادة حسناء
لى الصرف إن مزج النديم ولم أكن مستأثرا فيها عن النـدماء

فأجاد وأحسن وبلغ الغاية فى بيته الأول وقال أيضا :

لا تسقنى للراح ممزوجـة واشرب فما يمكننى شربها
ماراحتى فى الراح ان غيرت دعنى كما جاء بها ربها

وهؤلاء الشعراء يختلفون فى فطنتهم الذهنية وفى المعرض الذى عرضوا فيه معانيهم اختلافا كبيرا .

إن الشاعر يجب أن يكون رقيق الاحساس ، مرهف الشعور سريع التذوق للجمال وأسراره ، قوى الادراك لكل شىء ، وهذه هى فطنة الشاعر التى نعنيها ونقصدها ونريدها ، ونطالب بها ؛ وهى تنافى السطحية والعامية ، والعموم فى

---

(١) بكسر الميم (٢) بفتح الميم .

الفكرة ، والأجمال فى المعنى ؛ وتأتى وقوف الشاعر عند المشاهد المرئية العامة يصفها وصفا عاديا لاعمق فيه ولا متعة ولا شعور بالجمال .

وفطنة الشاعر أيضا يقوى منها تجربة الشاعر العميقة ، وتصوفه وتبتله فى موضوعه ، ووقوفه موقف المتأمل المفكر فى كل ما يناجيه به خاطره ، ويهجس فى خلده .. ووحدة القصيدة عند الشاعر والتحام معانيها وأغراضها ماهى إلا أثر لهذه الفطنة الشعرية العميقة .

إن الشاعرية الأصيلة تحرم على نفسها التفاهة ، وتأبى إلا أن تكون مجددة مبتكرة تضيف إلى ثروة الشعر فى المعانى جديدا وتبعث اليقظة الذهنية والوعى الفنى فى كل أثر أدبى .

والناقد مهمته أن يكشف عن الموهبة ويجليها ويشيد بها ، ويظهر أدعياء الشعر ومنتحليه وزيف غرورهم ودعاواهم الكاذبة المموهة ، وشعورهم السطحى الذى لا أثر له فى الحياة ولا قيمة له فى التفكير .

استدراك

الصفحة	السطر	الكلمة	صحتها
١٧	١١	قافيته	عروضه
٧٥	٢٥	آذر	آذار
٧٨	٧	إذا	إذ

الكتاب الرابع

دراسة لابن سنان وكتابه سر الفصاحة[1]

تمهيـــد :

سر الفصاحة كتاب جليل ، عظيم الخطر ، كبير الأثر فى بحوث البلاغة والنقد والأدب ، مشهور بين العلماء ، مشهود له بالأهمية والابتكار ، يمتاز بأسلوبه الجميل ، وبحوثه الوافية ، ودراساته العميقة ، وبإحاطته بجميع ألوان البيان ، ودراسته لشتى الأساليب العربية .

مؤلفه علم من أعلام النقد والبلاغة فى القرن الخامس الهجرى ، وهو الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن ســـنان الخفاجى (٤٢٢ — ٤٦٦ هـ) . وقد ألفه ابن سنان عام ٤٥٤ هـ ، ومنه عدة نسخ مأخوذة بالتصوير الشمسى عن النسخة الأصلية المحفوظة بدار الكتب ببرلين ، وعن نسخة أخرى خطية باستامبول وتاريخ كتابتها سنة ٦٦٥ هـ ، وهى محفوظة فى مكتبة « طوب قبو » ، وقد طبع الكتاب بالقاهرة عام ١٩٣٢ ، وأعيد طبعه فى القاهرة عام ١٩٥٣ .

وهو أثر علمى نفيس يعد من أجل المراجع العلمية والأدبية فى النقد والبيان ، ويضعه العلماء والنقاد فى الذروة من كتب البلاغة والموازنة ، وتجىء أهميته فى البلاغة مع كتب عبـــد القاهر الجرجانى شيخ البلاغيين . . . وهذه دراسة للكتاب ولمؤلفه .

البلاغة وسر وضعها :

نريد بالبلاغة علومها الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، لاهذه الملكات العربية السليمة الناطقة بمأثور بلاغات العرب من شعر ونثر .

وليس من شك فى أن فساد الأذواق ، وانحراف الملكات ، وتضاؤل الطبع فى نفوس العرب ، بعد اتساع الفتوح الاسلامية ، وامتزاج العرب بالشعوب المغلوبة ، وظهور أثر هذا الامتزاج فى الألسنة والطباع . ليس من شك فى أن

---

(١) اشترك فى هذا البحث المؤلف والأستاذ حسن جاد .

ذلك كله كان الباعث على تدوين أصول البلاغة العربية ، لتكون ميزانا سليما توزن به بلاغة الكلام ، ولتعصم هذه الأصول الأدباء والمتأدبين من الخطأ فى الأسلوب والبيان . ويضاف إلى ذلك عامل آخر بعيد الأثر فى تدوين البلاغة ، هو الرغبة فى فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم ، وإقامة الأدلة العلمية على هذا الاعجاز .

ولقد أخذ النقاد والأدباء والكتاب يحاولون فهم أسرار بلاغة الكلام ، ووضع أصول موجزة تحدد آراءهم فى جمال الأسلوب ، واشترك فى النهوض بهذا العبء منذ العصر الأموى كثيرون ، فى مقدمتهم أئمة الشعر والخطابة وفحول الكتاب ورواة وعلماء الأدب من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ورجال النقد والأدب الذين جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى ، ونشأت من ذلك آراء كثيرة فى البلاغة وتحديدها ، نجد بعضها فى : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد والرسالة العذراء لابن المدبر وزهر الآداب للحصرى والعقد الفريد لابن عبد ربه والصناعتين للعسكرى وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، وسواها من شتى المراجع .. وأهم ما يروى من ذلك وصية بشر بن المعتمر - من زعماء المعتزلة وتوفى نحو عام ٢١٠ هـ - فى البلاغة ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة ، وتعريف العتابى لها ، ووصية أبى تمام للبحترى تدخل فى هذا الباب ، ويقول البحترى : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل ، واقرأ فى البيان للجاحظ آراء فى البلاغة كما يراها حكيم الهند ، ويقسمها الكندى فيلسوف العرب م ٢٦٠ هـ إلى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ونوع بالعكس ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها(١) ، وذكر بزرجمهر حكيم الفرس فضائل الكلام ورذائله فى كلمة طويلة مترجمة رواها صاحب الموازنة ، إلى آخر هذه الكلمات والآراء .

ثم ألفت كتب تجمع كثيراً من الآراء والدراسات الموجزة حول البلاغة : ومنها : إعجاز القرآن لأبى عبيدة م ٢٠٧ هـ والفصاحة للدينورى م ٢٨٠ هـ ، وصناعة الكلام للجاحظ ، والتمثيل له أيضا ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد ، والبلاغة والخطابة للمروزى ، والمطابق والمجانس لابن الحرون ، وتهذيب الفصاحة لأبى سعيد الأصفهانى ، وإعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه للواسطى المعتزلى م ٣٠٦ هـ ، ومن هذه الكتب أيضا : جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، فى مقدمتها بحوث تتصل

---

(١) ٢١٩ ج ١ العمدة .

بالبلاغة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف فى هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا وتتعرض لتحديد البلاغة وما حولها من آراء كانت ذائعة فى عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البلاغة واصولها

ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال [1] فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان وهى التى أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان . ومن الخطأ التهوين من أثر الجاحظ فى البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وعلى نهج الجاحظ سار المبرد م ٢٨٥ ﻫ فى كتابه الكامل ففيه آراء كثيرة وروايات مدونة تتصل بالبلاغة وموضوعاتها، وكذلك ابن المدبر م ٢٧٩ فى كتابه الرسالة العذراء . وابن عبد ربه فى العقد ، والحصرى فى زهر الآداب ، وسواهم .

بدء التدوين فى البلاغة :

يبدأ هذا العهد بتأليف ابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ ﻫ) كتابه «البديع» وينتهى بظهور ابن سنان م ٤٦٦ ﻫ

وأهم ما ألف فى بحوث البلاغة فى هذا العهد هو :

١ ـ البديع لابن المعتز ، ألف عام ٢٧٤ ﻫ ؛ وقد ذكر فيه مؤلفه ألوان البديع وهى : الاستعارة ـ التشبيه ـ التجنيس ـ المطابقة ـ رد العجز على الصدر ـ المذهب الكلامى ـ الالتفات ـ الاعتراض ـ الرجوع ـ حسن الخروج ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ـ تجاهل العارف ـ حسن التضمين ـ التعريض والكناية ـ الافراط فى الصفة ـ لزوم ما لا يلزم .

وهذه الألوان كلها هى موضوع علم البيان والبديع

---

(١) ٦ و ٧ الصناعتين

٢ ـ نقد الشعر لقدامة وقد تكلم فيه على سر الجمال وأسباب القبح فى الشعر وعناصره: اللفظ والمعنى والوزن والقافية. وعرض بسبب ذلك لكثير مما عرض له ابن المعتز وزاد عليه أنواعا كثيرة.

٣ ـ نقد النثر لقدامة بن جعفر ٣٣٧ هـ. وهذا الكتاب صورة قوية لفهم قدامة للبلاغة وأقسام الكلام وألوان الأساليب مما تأثر فيه بذوقه العربى وثقافته اليونانية معا.

٤ ـ الصناعتين لأبى هلال م ٣٩٥ هـ، ففيها تحديد للبلاغة وأوصافها وشرح الآراء فيها، وفيها ذكر لألوان البديع وللسرقات الشعرية وغيرها. وقد تأثر فيه أبو هلال بالجاحظ وابن المعتز وقدامة إلى حد بعيد.

٥ ـ ومن الكتب التى تتعرض لبحوث البلاغة: الموازنة للآمدى، والوساطة للجرجانى وإعجاز القرآن للباقلانى، والعمدة لابن رشيق وهو أكثرها اتصالا بالبلاغة.

سر الفصاحة لابن سنان:

وبتأليف سر الفصاحة لابن سنان تبدأ البلاغة مرحلة جديدة من حياتها الطويلة الخصبة، مما سنلم به فى البحوث التالية

عبد القاهر شيخ البلاغة العربية:

وجاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية والمتوفى ٤٧١ هـ. فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما:

١ ـ أسرار البلاغة وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع.

٢ ـ دلائل الاعجاز وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى. كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات. وهذه البحوث كلها هى عنده علم البيان.

السكاكى والمفتاح ومدرسته:

بعد عصر الجرجانى بحث الزمخشرى والرازى وابن الأثير صاحب المثل السائر

وبدر الدين ابن ابن مالك صاحب المصباح والتنوخي صاحب « الأقصى القريب » وكثير من العلماء في البلاغة والفصاحة .

ومن أشهر العلماء أبو يعقوب السكاكي م ٦٢٦ هـ تلميذ الحاتمي الذي ألف كتابه المفتاح وجعله أقساما وخص البلاغة بالقسم الثالث منه وقسمها إلى ثلاثة أقسام : المعاني ـ البيان ـ البديع . وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل .

والفلسفة والمنطق تغلب على السكاكي إلى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر

وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها تدوينا كاملا .

ثم جاء الخطيب القزويني م ٧٣٩ فألف في البلاغة كتابيه : تلخيص المفتاح والايضاح . وقد ألف الايضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح .

وهناك مؤلفات جديدة ظهرت في البلاغة في عصر الحواشي، ومن بينها الطراز ليحيى بن حمزة وعقود الجمان للسيوطي . كما ظهرت في العصر الحديث عدة مؤلفات في البلاغة فيها لون من التهذيب والتنسيق وحسن الأخذ والاختيار

وبذلك تنتهي مراحل التأليف في البلاغة منذ نشأتها حتى الآن

هل تأثرت البلاغة العربية بالبلاغات الأخرى ؟

يذكر ابن الاثير أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية ، وينفي أن يكون هو قد تأثر في رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني . ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه، ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا[1]

---

(١) ٢٠ المثل السائر

ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البلاغة العربية[1] .
ويرى آخر أن ارسطو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان [2] ، وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا فى القرن الثانى وأثروا فى البيان وتطوره جلهم أعاجم [3] وأن متكلمى المعتزلة بتضلعهم من الفلسفة اليونانية من مؤسسى البيان العربى وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجد إلا بيان عربى واحد كان لا يزال فى دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربى والفارسى واليونانى، ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربى بحت ويونانى يجهر بالأخذ عن ارسطو [4] ، وحتى العربى البحت تأثر باليونان [5] .

وترجم كتاب الخطابة لارسطو فى النصف الثانى من القرن الثالث . وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربى وكان يجهل كتاب الشعر [6]. وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق على أن تشريع الفلسفة للأدب فى رأى الدكتور طه حسين بك يظهر أول مرة فى « نقد الشعر » ثم فى « نقد النثر » الذى هو مستمد من آراء ارسطو فى الجدل والقياس والخطابة.

ولا شك أيضا أن عقلية السكاكى المنطقية لها أثر فى كتابته فى البلاغة العربية

وأقول إن المشتغلين بالفلسفة اليونانية قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى فى خدمة البلاغة العربية واستعانوا بطرق اليونانيين ومناهجهم فى دراسات البلاغة والتأليف فيها . كما أن للفرس وما ترجم من قواعد بلاغتهم أثرا ما فى البلاغة العربية (٧) كما يؤيده أبو هلال فى الصناعتين وديوان المعانى .

وإذا ففى البلاغة العربية عناصر ثلاثة : عنصر عربى وعنصر فارسى وعنصر يونانى ، ولا شك أن البلاغة العربية حينما بدأ واضعوها فى تدوينها قد أفادوا من هذه العناصر الثلاثة فى هذا التدوين إلى حد كبير. وسنمضى فى دراسة حياة ابن سنان ، ثم أثر كتابه فى دراسات البلاغة ومنزلته فيها ، بتوفيق الله

---

(١) ٢٧٧ ج ١ ضحى الاسلام (٢) ٣١ مقدمة نقد النثر (٣) ٦ المرجع
(٤) ٨ مقدمة نقد النثر (٥) ص ١١ المرجع (٦) ص ٧ المرجع
(٧) يقول أبو هلال : وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى العربى الخ »

الامير ابن سنان الخفاجى [1]

حياته — ثقافته — آثاره العلمية — أدبه

تمهيد :

ابن سنان هو الأمير العالم الشاعر الاديب أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد ابن يحى بن الحسين بن محمود بن الربيع بن سنان بن الربيع الخفاجى .

وكتب على ديوانه عنه : الشاعر المفلق الشهير ، والكاتب النحرير ، والخطيب

(١) راجع ترجمته فى فوات الوفيات ٢٣٢ - ٢٣٥ ج ١ ، وقد نقلت فى مقدمة ديوانه المطبوع بالمطبعة الانسية ببيروت عام ١٣١٦ ه (ص ٢ و ٣ من الديوان) ، ونقلها أيضا مؤلف « أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء ص ٢٠١ — ٢٠٤ ج ٤

وقد ترجم الاستاذ كامل الفقى المدرس بكلية اللغة لابن سنان وحلل كتابه سر الفصاحة ، فى عدة مقالات نشرت بمجلة الازهر عام ١٣٦١ — ١٣٦٢ ه

وقد ترجم له كثير من علماء الأدب كجورجى زيدان وسواه . وورد ذكره فى معجم البلدان عند الكلام على حلب كما ورد استطرادا فى معجم الأدباء ، وفى ص ٣٤٥ من حلبة الكميت للنواجى شعر له

خلاصة لبحث الأستاذ كامل :

١ — حياة ابن سنان كما ذكره صاحب فوات الوفيات ، ومؤلفاته

٢ — تحليل لكتاب سر الفصاحة . وتعليق على نهج المؤلف فيه

٣ — ذوق ابن سنان الفنى ، وتوفيته لما يعرض له من بحوث وفطنته وتواضعه وبعده عن الفخر والزهو ، وأمانته العلمية ، ومن تأثر بهم ابن سنان من المتقدمين كالرمانى وقدامة والمبرد ؛ وشيخ ابن سنان المعرى ، وتأثر ابن الاثير بابن سنان ، وتأثر الخطيب القزوينى به ، وإثبات أن ابن سنان من المتكلمين

المصقع ، البليغ ، الأمير أبي محمد عبد الله بن سعيد بن محمد [١] المشهور بابن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى عام ٤٦٦ هـ

فاذا ما أردنا أن نعرف شيئا عن ابن سنان ، فاننا لا نظفر من كتب الأدب والتاريخ إلا بشيء يسير جدا من حياته ، وهو أنه ولي قلعة عزاز للسلطان محمود ، فشق عصا الطاعة عليه، واستقل بها ، فاحتال السلطان حتى قتله مسموما سنة ٤٦٦ هـ

فاذا ما رجعنا إلى ديوان الشاعر ، وجدنا فيه ما يسد هذا النقص الكبير في معارفنا عن ابن سنان وحياته وشخصيته ، مما نستطيع أن نلخصه لك فيما يلي :

أسرة ابن سنان

ابن سنان من بني خفاجة ، من سلالة بني حزن الخفاجيين أولاد خفاجة بن عمرو بن عقيل ؛ يقول ابن سنان :

وبالشهباء من حزن بن عمرو بيوت ما رفعن على لئيم [٢]

وحلب كانت موطن فرع كبير ضخم من بني خفاجة للعقيليين العامريين، ولا ندري متى استقروا في حلب ، ولعل ذلك قد كان من أول القرن الثالث الهجري

= ٤ — نقد لكتاب سر الفصاحة ، ومن مثل نقده له :

ا — نقده لميله لمذهب الصرفة

ب — نقده لرأيه بأن الفصاحة مقصورة على الألفاظ وأن البلاغة وصف للالفاظ مع المعاني وأن الفصاحة شطر للبلاغة وأحد جزءيها

جـ — التأليف في كتاب سر الفصاحة يجمع بين الأدب والبلاغة والنقد وليس قاصرا على البلاغة

د — ونقده لانكاره على الفصحاء جعلهم الأطناب من الفصاحة .

وسننشر خلاصة وافية لبحثه في آخر هذه الدراسة إن شاء الله

(١) هذا خطأ في ذكر النسبة من ناشر الديوان (راجع ص ١ من الديوان)

(٢) ص ١٠١ من الديوان . والشهباء هي حلب . وحزن بن عمرو هم أجداده الخفاجيون

أو قبله بقليل وكان بنو حزن يقيمون فى العراق والجزيرة الفراتية ولعلهم رحلوا منها واستقروا فى حلب وهى قريبة جدا من هذه البلاد

ويقول ابن سنان أيضا :

يقول بنو حزن طلبنا لك العلا ... فلم أخذت كمالك فى طلب الفقر (١)

ويقول فى الحديث عن رجل :

وأشمت حيينا به غرة الضحى ... وقد نشط التهويم عن غرة الركب

دعا آل حزن والرماح تنوشه ... فياقرب ما لبيعه بالطعن والضرب (٢)

ويقول (٣)

وهل علمت بنو حزن بن عمرو ... إبائى على مشاورة الخطوب

وإذا فأسرة ابن سنان هى من بنى حزن أحد الفروع الكبيرة لقبيلة خفاجة العقيلية العامرية المشهورة ، وهى قبيلة كبيرة لها تاريخها الحافل فى الحياة العربية قبل الاسلام وبعده (٤) . وموطنها حلب الشهباء عاصمة الحمدانيين ومقر العقيليين والخفاجيين ، وإحدى ثغور الاسلام وموطن من مواطن العروبة والثقافة الاسلامية ، وتاريخها حافل بالكثير من أعلام الدين واللغة والأدب والسياسة مما نجده مسطورا فى كتب الأدب والتاريخ

وجد مؤلفنا العالم الأديب الشاعر هو سنان الخفاجى العقيلى العامرى الذى كان له مجده فى قومه مما تغنى به شاعرنا الأمير ابن سنان فى شعره

ووالدته من أسرة مبارك التميمى أعز العرب من بنى تميم ، وفى ذلك يقول ابن سنان يهدد أحد خصومه :

---

(١) ص ٢٧ الديوان

(٢) ص ١٢ من الديوان

(٣) ص ١٠ الديوان

(٤) راجع كتاب « بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى » الجزء الأول تأليف محمد عبد المنعم خفاجى ونشر المطبعة الفاروقية الحديثة عام ١٩٥٠

مهلا فانك ما تعد « مباركا » خالا ولا تحصى سنانا والدا
بيت له النسب الجلى وغيره دعوى تريد أدلة وشواهدا

ويقول له :

ضلالك ما نسبت إلى « سنان » ولا ضربت خؤولك فى تميم

ويقول فى مجـــد جده سنان والربيع وأنه يعيش على الثروة التى خلفها له أجـداده

ميراث قومى كفانى بعد عهدهم فتوى الظنون باحرام واحلال
سقى الربيع ربيع جاد هاطله بسكل اسحم ضا فى الذيل هطال
وخص رمس سنان من مواهبه ببـارد كسلاف الخمر سلسال
فقد أعانا على زهد بميسرة وأغنيـانى عن شـد وترحال

أما محمد والد ابن سنان فلا نعلم عنه شيئا إلا فى قصيدة ذكر الديوان أنه نظمها فى صباه . ويقول فيها :

أنا ابن من لم يدع ذخرا لوارثه إلا الجياد وسمرا ذات زعزع

وابن سنان فى هذه القصيدة يعاتب قومه بنى خفاجة لاهمالهم أمره بعد موت والده[1] .. وإذا فنستطيع أن نقول إن والده توفى وابنه طفل صغير أو بعد أن جاوز عهد الطفولة بقليل .. ولا ينبئنا التاريخ بشىء عن رجال بنى خفاجة فى حلب اللهم إلا ما نراه فى الديوان من هذه الأبيات التى كتبها الى ابن عمه القاضى أبى الحسن على ابن عبد المنعم بن سنان الخفاجى[2] .

وإذا فخلاصة ما نقوله فى أسرة ابن سنان أنها أسر كبيرة من فروع بنى حزن الخفاجيين أقامت بحلب وكان منها شاعرنا الأمير ابن سنان الخفاجى

ميـلاده :

ولا نعـــلم كذلك شيئا عن ميلاد ابن سنان ولكننا نجد فى ديـــوانه

---

(١) راجع القصيدة فى ص ٦٣ من الديوان

(٢) راجع الابيات فى ص ١١ من الديوان

قصيدة (١) لها نظمها عام ٤٤٣ ه كما يقول الديوان وفيها هذه الأبيات :

إذا عامر فرعت فى العــلا ولم يبق من فوقها مرتقى
علقت بأطراف ذاك النجار وجلت بعادية ذاك البنـا
وقورا إذا طرقتنى الخطوب وحل من الخوف عقد النهى
بعشرين أنفقتها فى الصدود وجدت بها فى زمان النوى

يقول : أضعت من عمرى عشرين عاما وأنا أقارع فيها الخطوب المدلهمة وأثر فراق الآباء فى جلد وصبر ووقار

فقد كان عمره عام ٤٤٣ ه عشرين عاما فيكون ميلاده نحو عام ٤٢٣ ه (٢) ويؤيد ذلك هذه الرسالة التى كتبها ابن بطلان الى صديق له عام ٤٤٠ ه تقريبا يصف له فيها حلب، ويقول «إن فيها شابا حدثا يعرف بأبى محمد ابن سنان الخفاجى قد ناهز العشرين وعلا فى الشعر طبقة المحنكين، وقد رواها معجم البلدان فى الكلام على حلب ونقلها عنه مؤلف اعلام النبلاء (٣)

نشأته :

توفى أبوه محمد وهو طفل صغير كما سبق أن ذكرناه . وقد نشأ الأمير نشأة علمية وأدبية كبيرة وكان من تلامذة أبى العــلاء المعرى (٤) الفيلسوف الشاعر م ٤٤٩ ه ، ويذكره الأمير كثيرا فى كتابه سر الفصاحة فيقول عنه : «شيخنا

---

(١) راجعها فى ص ٥ و ٦ من ديوانه

(٢) ويؤيد ذلك قوله فى قصيدة كتبها للهاشمى الشريف محمد سنة ٤٤٠ ه

سبقت وما بلغت عشرا كواملا فكيف وقد جاوزتها بثمان

فيكون عمره عام ٤٤٠ ثمانية عشر عاما فيكون ميلاده عام ٤٢٢ ه وهو قريب من التاريخ السابق

(٣) ٣٣٣ ج ١ اعلام النبلاء

(٤) راجع ١٠٦ ج ٤ أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء

أبو العلاء (١). ولعل ابن سنان قد تتلمذ عليه فى معرة النعمان وهى قرية من حلب وقد أهلته هذه النشأة ليكون فيما بعد العالم الكبير والشاعر البليغ والمؤلف العظيم

حياته :

عاش ابن سنان فى حلب فى ظلال دولة بنى صالح بن مرداس الكلابيين العامريين (٢) ومدح أمراءهم ورجال دولتهم بشعره وتوثقت صلاته بهم طول حياته إلى حد بعيد .

اتصل بالأمير أبى المغيث منقذ بن نصر بن منقذ (٣) ثم رثاه سنة ٤٣٩ وهو فى سن السابعة عشرة من عمره بقصيدة منها بيتان فى الديوان (٤) [راجع ٢٧ من الديوان] .

وفى عام ٤٤٠ هـ وابن سنان فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشر كما أرجح

---

(١) راجع سر الفصاحة ص ٦٧ وسواها من الصفحات .

(٢) ملوك هذه الدولة هم

صالح بن مرداس ٤٠٢ — ٤٢٠

نصر بن صالح ٤٢٠ — ٤٢٩

معز الدولة ثمال بن صالح ٤٣٤ — ٤٤٩

عطية بن صالح ٤٥٢

محمود بن صالح ٤٥٢ ثم من ٤٥٤ — ٤٦٨

نصر بن محمود وقتل فخلفه سابق بن محمود الذى أخذ منه شرف الدولة ملكه عام ٤٧٢ هـ وقد تخلل حكم بنى صالح لحلب فترات أخذها من أيديهم الفاطميون .

(٣) وهو جد أسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ) صاحب كتاب الاعتبار فى التاريخ وكتاب لباب الآداب

(٤) يشير اليها أسامة فى لباب الآداب ص ٣٦٨

أهتقل الشريف محمد الهاشمى فكتب اليه الأمير قصيدة طويلة [ص ١٠٦ ـ ١٠٨ من الديوان) يقول فيها .

سبقت وما بلغت عشرا كواملا　　فكيف وقد جاوزتها بثمانى
ولى فى قراع النائبات عوازم　　تريك بلوغ النجم بالزمـــلان

الى أن يقول :

أخا هاشم كم قدتها هاشمية　　يغص بها من نقعها الملوان

وهذه القصيدة تدل على روح شيعية تميل إلى العلويين وهى تؤكد ماروى عن شيعيته مما ذكره صاحب فوات الوفيات .

واتصل أيضا بشرف أمراء العرب الأمير أبى سلامة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابى من امراء دولة حلب الكلابيين ومدحه عام ٤٤٣ هـ وهو فى سن العشرين أو الحادية والعشرين بقصيدته [١] التى مطلعها

اذا حدت الريح عيس الحيا　　وهتك بالبرق ستر الدجى

ويقول فيها فى هذا الأمير .

فتى وجد العز حيث الحسام　　ومن دوحة المجد يجنى الردى
مدحتك أخطب منك الوداد　　اذا حاول القوم منك الغنى
ولى فى فخـــاركم شــــعبة　　وفى الأفق بدر الدجا والسها
علقت بأطراف ذاك النجار　　وجلت بعادية ذاك البنا

والأمير الشاب يرسم لنا فى قصيدته هذه صورة لنفسه الطموحة الأبية ولمجد قومه وأسرته بنى خفاجة العامريين أبناء أعمام أسرة حلب الحاكمة من بنى كلاب العامريين .

وله قصيدة أخرى [٢] له فى هذا العام أيضا عام ٤٤٣ هـ مطلعها :

يحاربنى فى كل نائبة دهرى　　كأن الرزايا تدرك الفخر فى قسرى
ومن دون ذلى عصبة عامرية　　يلوون أعطاف المثقفة السمر

---

(١) تجدها فى ص ٥ و ٦ من الديوان .
(٢) تجدها فى ص ٣٧ وما بعدها من الديوان .

أو له قصيدة ثالثة مدحه بها في [illegible] ام (١) نفسه وله فيه قصائد كثيرة أخرى سنشير إليها فى هذه الكلمة لنفهم روحه وشخصيته فى كل مرحلة من أطوار حياته الحافلة العظيمة

وفى عام ٤٤٤ هـ وابن سنان فى سن الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين اتصل بمعز الدولة ثمال الكلابى ومدحه بقصيدته (٢) التى يقول فيها :

أرى إبلى شوارع من قنوعى موارد ما يبل بهـا غليل
ولم تعرف لمصعبهـا قيود ولم يملك لشاردها جديل
وآمالى مطوحة بطـاء ينازع دونهـا قدر مطول
وما يسمو الزمان إلى قراعى وظل جنابكم ابدا ظليل

والقصيدة تدل على طموح الشاعر فى هذه الفترة من حياته رغبة فى المجـد السياسى ونخار الولايات لا طمعا فى مال وثروة

وفى عام ٤٤٦ هـ والشاعر فى سن الرابعة والعشرين من عمره توفيت والدته بعد عودتها من الحج فحزن عليها حزنا عميقا ورثاها بقصيدته (٣) التى مطلعها :

ابكيك لو نقعت بحقك أدمع وأقول لو أن النوائب تسمع

وهى قصيدة حافلة بالذكريات الحزينة التى مرت على الأمير ووجد اثرها فى نفسه وفى قومه

وفى هذا العام اتصل بالأمير عز الدولة ثابت ابن معز الدولة الكلابى ومظهر هذه الصداقة قصيدته (٤) التى يقول فى مطلعها

أتظن الورق فى الأيك تغنى أنها تضمر حزنا مثل حزنى
ويقول فيها : قد رضينا بإباء عن غنى وبعز اليأس عن ذل التمنى

---

(١) نجدها فى الديوان ص ٨١ وما بعدها
(٢) نجدها فى الديوان ص ٦١ وما بعدها
(٣) نجدها فى الديوان ص ٣٩ وما بعدها
(٤) راجعها فى الديوان ص ١٠٤ وما بعدها

وله فى هذا الأمير قصيدة [١] أخرى مدحه بها عام ٤٤٨ ﻫ وهو فى سن السادسة والعشرين

وفى عام ٤٤٩ توفى استاذه الفيلسوف أبو العـلاء المعرى فحزن عليه حزنا عميقا وقصائده فى رثائه مفقودة وقصيدته الرائية (٣٥ من الديوان) التى رثى فيها جماعة من أهل واصدقائه فيها حزن عميق على فيلسوف المعرة ابى العلاء . وفى هذا العام ايضا بلغت شهرته الأدبية الى دولة بنى اسد فى الحلة فأرسل ظهير الدولة ابن عبد الرحيم وزير أبى الأغر الأسدى (ملك الحلة وضواحيها من عام ٤٠٨ الى عام ٤٧٤ ﻫ) يسأله أن يرسل له قصائد من شعره فيبعث ابن سنان الخفاجى إليه بعدة قصائد ومنها قصيدة [٢] فى الاشادة به يقول فيها ابن سنان .

قل للأمير أبى الأغر ودونه ... للطالبين سباسب وهجول
يثوى ابن عمك بالعراق وقومه ... كالذود حن وخله معقول
ما صدهم عنك الجفاء وإنما ... مالوا مع الايام حيث تميل

وابن سنان فى هذه القصيدة يريد أن يؤكد للوزير ان قلبه وقلوب قومه الخفاجيين مع ابن عمه الأسدى ملك الحلة

فما الذى حال بين ابن سنان وبين الاخلاص لبنى أعمامه الكلابيين العامريين ملوك حلب الشهباء ؟

والجواب عن ذلك سهل يسير فالأمير طموح متطلع الى المجد السياسى ينشد له دولة وسلطانا وولاية تخفق فيها فوق رأسه الرايات كما يقول فى إحدى قصائده

أرأيتما مثلى يرام قياده ... من بعد ما نشط العقال وجرجرا
ويسام أن يرضى الخمول وقد أبى ... إيماض وجه الصبح أن يتسترا

وكما يقول فى احدى قصائده :

أعنى على نيل الكواكب فى العلا ... فأنت الذى صيرتها من مآربى

---

(١) راجعها فى الديوان ص ٨٤ وما بعدها

(٢) راجعها فى الديوان ص ٧٩ وما بعدها

وفى عام ٤٥٠ ﻫ والشاعر فى سن الثامنة والعشرين من عمره كانت حلب فى يد الفاطميين الذين استولوا عليها فى حرب طاحنة وأخذوها من يد معز الدولة الكلابى عام ٤٤٩ ﻫ وكان أميرها من قبل الفاطميين هو مكين الدولة ابن ملهم فاتصل به الخفاجى ومدحه بقصيدة انشده إياها فى حلب عام ٤٥٠ ﻫ [١] ، ويقول فيها متحدثا عن نفسه

ومشتت العزمات ينفق عمره حيران لاظفر ولا إخفاق
أمل يلوح اليأس فى أثنائه وغنى يشف وراءه الاملاق
يمرى عفافة ثروة لو أنها نوم لما شعرت به الاحداق
وتروقه خدع المنى فكأنها حق وكاذب وعدها ميثاق

وهذه الأبيات تدل على نفسه الطامحة المخفقة فى طمرمها وآمالها فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ حياة الأمير

وفى هذا العام أيضا عام ٤٥٠ ﻫ توفى صديقه ابو المتوج مخلص الدولة مقلد ابن نصر فرثاه بقصيدته [٢] التى يقول فى مطلعها

حبتك السماء بأمطارها وكيف تضن على جارها [٣]

وظل نفوذ الفاطميين فى حلب بين مد وجزر الى عام ٣٥٤ ﻫ حتى استردها الكلابيون من أيديهم

وفى عام ٤٥٣ ﻫ والشاعر فى سن الحادية والثلاثين سافر ابن سنان من حلب الى القسطنطينية ولا ندرى سبب هذه الرحلة ولا ظروفها ، وقد أرسل الأمير الخفاجى من القسطنطينية الى اخوانه فى حلب أربعة قصائد — ربما يكون فى فهمها ما يكشف لنا أسرار هذه الرحلة الغريبة

---

(١) راجعها فى الديوان ص ٧٥ وما بعدها
(٢) راجعها فى الديوان ص ٥٣ وما بعدها
(٣) وكانت بينه وبين الخفاجى صلات وثيقة تجد مظهرها فى قصيدته الحائية التى تجدها فى الديوان ص ١٩ وما بعدها وهى قصيدة رائعة بليغة

ا - وأولى هذه القصائد هي القصيدة التي ذكر الديوان أنه كتبها وهو في القسطنطينية وأرسلها الى ابن ملهم (والى حلب من قبل الفاطميين سنة ٤٥٣) ويقول الشاعر في هذه القصيدة

وا أسفي من رحلة طوحت فيها الى الروم الأعاريب
قادني الدهر إليها ومن يجاذب الأقدار مغلوب

ويقول فيها في مدح بني ملهم:

ذوائب من عامر ضمها بيت على الجوزاء مضروب
لهم إذا أمهم سائل فن من الجود وأسلوب
أبعدني منك زمان له في طلبي وخد وتقريب[1]

ب - والقصيدة الثانية هي قصيدة تائية فيها دعابة ورقة وخفة روح ارسلها من القسطنطينية يداعب بها بعض أبناء أعمامه ويقول فيها:

أأغيب عن حلب ثلاثة أشهر لم تكتبوا فيها إلى بلفظة
قلتم شغلنا بالحصار وصدنا ما كان بعدك من معز الدولة[2]
لو شئت أهرب مرة من عندكم ما كنت أقصد غير قسطنطينية
ولاكتبن اذا شططت اليكم من دير أرمانوس بالروحية
أبلغ أبا الحسن السلام وقل له هذا الجفاء عداوة للشيعة
ولاجلسنك للقضية بيننا في يوم عاشوراء بالشرقية
دع ذا وقل لي أنت يابن محسن وجفاء مثلك من تمام الحرقة
ما كان حقك أن تمل وانما تاريخ وصلك من حصار القلعة
كانت ولايتك التي دبرتني فيها كمثل الخدمة الرجبية

---

(١) راجع القصيدة في ص٩ وما بعدها من الديوان

(٢) هو معز الدولة ثمال بن صالح الكلابي الذي أخذ الفاطميون منه حلب عام ٤٤٩ وسار الى مصر فأقام فيها في ظلال الفاطميين ثم ارسلوه عام ٣٥٢ لأخذ حلب من ابن أخيه محمود فحاصرها سنة ٤٥٢ وأخذها وحكمها الى وفاته عام ٤٥٤ حتى استردها الكلابيون

صاح الغراب بنا ففرق شملنا قدر رمت فيه الخطوب فأصمت [1]

وتدل هذه القصيدة على أن ابن محسن الخفاجى وابن سنان الخفاجى قد انتهزا فرصة الخلافات السياسية على ملك حلب بين الفاطميين والكلابيين فثارا بها أو ببعض ولايات حلب وأقام له هو وابن سنان فيها دولة ثم غلبا على أمرهما ففر الأمير ابن سنان الى القسطنطينية خوفا من أن يفتك به أحد ، والقصيدة تدل بعد ذلك على روح شيعية مؤمنة بشيعيتها

حـ — والقصيدة الثالثة نظمها وهو فى طريقه الى القسطنطينية فى رثاء مؤتمن الدولة أبى طاهر بمصر [2]

د — والقصيدة الرابعة أرسلها من القسطنطينية الى الوزير فخر الدولة ابن جهين بميافارقين [3]

وعلى أى حال فرحلة ابن سنان الى القسطنطينية لم تطل، وعاد منها بعد موت معز الدولة الكلابى سنة ٤٥٤

وفى عام ٤٥٥ والشاعر فى سن الثالثة والثلاثين قلد صديقه الأمير نصير الملك ابن ملهم ولاية طبرية وعكا وجعل أميرا على بنى سليم وفزارة القيسيين فمدحه ابن سنان الخفاجى بقصيدته الرائية (ص ٤٨ وما بعدها من الديوان) فى ربيع الأول من هذا العام ، وفى أواخر هذا العام نفسه عقد حلف بين فزارة وسليم

---

(١) راجع القصيدة فى الديوان ص ١٧ وما بعدها

(٢) راجع القصيدة فى الديوان ص ٦٦ وما بعدها

(٣) ويقول فيها

يا برق طالع من شنية جوشن حلبا وحى كريمة من أهلها
مالى وللأقدار ضاق بصرفها ذرعى وما ظفرت يداى بنيلها

(ص ٨٦ وما بعدها من الديوان)

القيسيين وبين الكلبيين فمدح ابن سنان صديقه الأمير ابن ملهم بقصيدة (١) فى ذى الحجة عام ٣٥٥

ويدل ذلك على ان ابن سنان حين عاد من القسطنطينية لم يقصد حلبا وانما قصد ولاية صديقه الامير ابن ملهم وأقام معه فيها من عام ٤٥٤

وفى عام ٤٥٦ ه توفى صديقه ابو العـــلاء صاعد الكاتب بانطاكية فرثاه ابن سنان الخفاجى بثلاث مراث رائعة

اولاها عينيته التى تراها فى ديوانه ص ٦٤

والاخرى قصيدته القافية التى تراها فى ديوانه ايضا ص ٧٧

والثالثة ابيات ذكرها الديوان فى ص ٩٩

وفى هذه الاثناء كان ابن سنان مقيما فى انطاكية بعد أن فارق ولاية صديقه الامير ابن ملهم وكانت انطاكية حينئذ فى يد الروم

وكان بين ابى العلاء الكاتب وبين الامير ابن سنان الخفاجى صداقة وطيدة من بدء عهد الصبا نجد مظهرها فى قصيدته البائية (٢) التى كتبها فى صباه الى أبى العلاء ويقول فيها

فقل لجناب بالغوير تضوعت	عليك الخزامى وهى تلعب بالقلب
سقاك رسيل الدمع تحسب جوده	أكف الخفاجيين فاضحة السحب

وفى خلال وجود ابن سنان بانطاكية تشوق إلى بلاده حلب الشهباء وضواحيها فأرسل الى صديقه الامير سعد الدولة ابى الحسن على بن منقذ الكنانى وأحد اصدقاء امير حلب محمود الكلابى عدة قصائد منها : قصيدته الدالية (٣) التى ارسلها من انطاكية إليه والتى يقول فيها :

---

(١) راجعها فى الديوان ص ٧١

(٢) ص ١٢ الديوان

(٣) ٢٦ الديوان

عذ يرى من الروم جار الفراق ... على بحكمهم واعتـــدى
دعوتك من أرضهم عاتبـــا ... فنـــاهلتنى ذلك المـوردا
لعل مقالك هـــذا الطويل ... يـكون لحينهم موعـدا
فهل عنـد رأيك من حيلة ... تغيث بهـا هائمـا مفردا
فقد طالمـا أنقذتنى يداك ... وقد علقتنى حبـال الردى

وله اليه قصيدة أخرى (١) يقول فيها .

بينى وبينك حرمة ماغا لهـا ... ولع الخطوب، وذمة لم تخفر
ومودة مزجت بأيام الصبـا ... ورأت تغيره فـلم تتغير
اهون به ما كنت يا ابن مقلد ... عونى عليه وكان قومك معشرى

وكتب اليه الأمير ابن منقذ (٢) :

فما بالـكم لا أوحش الله منكم ... مواطن فيهـا للذمام وفاء
رفعتم منار الغدر بعد هبوطه ... وأخفق منكم مطلب ورجاء
أخصك عبد الله من بينهم فما ... اقول وما عندى عليه غطاء
ومابك الا إن ملـكت فلا تقل ... شؤونى فيهـا دقة وخفاء

وابن منقذ يصرح هنا بكل ما يعرفه عن ابن سنان الخفاجى ويقول له انك لا تريد الا الملك ولا تطمع فى شىء سواه

فأجابه ابن سنان بقصيدة (٣) طويلة يقول منها :

على أى حكم فيك أعجب للغدر ... وما أنت إلا واحد من بنى الدهر
عهدتك مطراق الهوى كل ليلة ... تروح إلى وصل وتعدو إلى هجر
رضاك على سخط وصفوك فى قذى ... وحبك من بغض وحلمك عن غمر
فما لك ترمينى بعتب جهلته ... فلم أر فيه وجه ذنبى ولا عذرى

---

(١) ٣٠ وما بعدها من الديوان
(٢) من قصيدة تراها فى ص ٧ وما بعدها من الديوان
(٣) ص ٥٥ وما بعدها من الديوان

وكيف أضلتني الخطوب وطوحت | بلى حتى صرت أجنى ولا أدرى

وكتب اليه الامير أبو الحسن قصيدتين أخريين أجابه عليهما ابن سنان[1]
ثم كتب ابن سنان اليه قصيدة أخرى[2] يقول فيها :

لو وفيتم واصلتمونا على | عهد وكان التقاؤنا باتفاق
لا بأمر السلطان قسرا اذ | استدعى بنى جعفر إلى الاتفاق
أو بحكم المودعين اذا عن | له أن يسير نحو العراق
ثم ياصاحب الجناية منهم | قد لقينا فى البعد ما لم تلاق

وهى أبيات غامضة لم نهتد بعد إلى سرها التاريخى الذى يفسر لنا مشكلات حياة الخفاجى فى هذه الفترة الحافلة. وعلى أى حال فقد عاد ابن سنان الخفاجى إلى حلب ومدح أميرها محمود بن صالح بن مرداس فى صفر عام ٤٥٧ بقصيدته[3] التى يقول فيها :

أأحبابنا بين الأحص وجوشن | دعاء معنى بالفراق صريعه
مقيم على الحب الذى تعرفونه | وان جهدت أفعالكم فى نزوعه
اذا كان خوف الضيم أبعد داره | فلا تطمعوا فى قربه ورجوعه
فما هى إلا نحوة عامرية | تعلقها من (حزنه) و (ربيعه)[4]
لحى الله من يرضى الدنية واصلا | لهاجره أو حافظا لمضيعه
وأين زميل الارحبية فى الدجى | وأخذ السرى من نيها وهزيعه
ونصرة محمود بن نصر فلم تكن | بعازبة عن تربه وربيعه
نزلت على رحب الفناء مريعه | ولذت بعادى البناء رفيعه

---

(١) راجع الديوان ص ٣٠ و ص ٥٨
(٢) راجع الديوان ص ٧٧ وما بعدها .
(٣) راجع الديوان ص ٦٩ وما بعدها .
(٤) هما من أجداد ابن سنان من قبيلته الخفاجيين

فمذ سمح الدهر البخيل بغربة صفحنا له عما مضى من صنيعه
ولى فيك آمال طوال ترددت بقلب جميل الظن فيك وسيعه

ثم مدحه فى هذا العام نفسه بقصيدته التى مطلعها .

أبى الله ألا يكون لك السعد فليس لما تبغيه منع ولا رد

ومنها .

هنيئا لك النصر الذى نلت حقه بسمر العوالى لاتراث ولا رفد

وابن سنان يهنئه فى هذه القصيدة بانتصاره على الثائرين عليه الذين أخذوا حلب من يده .

وفى عام ٤٥٨ والشاعر فى سن السادسة والثلاثين من عمره مدح محمودا أمير حلب بقصيدته[1] التى يقول فيها :

أحيت سيوفك ميت العز فى مصر وأسفرت بسناها عنهم الظلم

وأقام فى ظله يؤمل أن يقلده ولاية اقليم من الأقاليم التابعة لدولة حلب ولكن محمودا لم يفعل فنظم ابن سنان سنة ٤٥٩ قصيدة[2] مطلعها :

ما على احسانكم لو أحسنا إنما نسأل شيئا هينا

ويقول فيها :

لا أرى عتبك الاظاهرا خبر شكوى عاشق ما أعلنا
انكروا حرصى على السلم وما ادعى أنى أحب الفتنا
كيف يهوى الحرب من ان فزتم لم يكن بالخير منكم قمنا

الى آخر ما يقول ، وتدل هذه القصيدة على أن اعداء الامير ابن سنان حذروا أمير حلب منه وأوهموه أنه سيثور عليه فحاول ابن سنان رد هذه الوشاية

وفى نفس العام عام ٤٥٩ هـ خرج الامير محمود بجيش الى طرابلس وخرج معه الامير ابو الحسن ابن منقذ وقائده ابن ابى الثر ولم يستدع ابن سنان

---

(١) ص ١٠٢ وما بعدها من الديوان .

(٢) ص ١١١ وما بعدها من الديوان .

الخفاجى معه فأرسل ابن سنان الى ابن منقذ قصيدة (١) يعاتبه فيها هو والأمير محمود ويقول منها :

حفظ الله معشرا ضيعوا ... العهد وحالوا فى سائر الأحوال

كان شملى بهم جميعا ولكن ... فرقت بيننا صروف الليالى

أى شىء الى من أمرهم حتى ... يكون ارتحالهم بارتحالى

ومن السخف والرقاعة تطفيلى ... بنفسى عليهم فى القتال

ومسيرى أدب فى ظهر عجفاء ... تبارى أعضاءها بالهزال

عاطلا من جميع ما يصحب الناس ... ويارب عاطل وهو حالى

ليس غير المقام أستر بالجد ... ران ما يعلمون من اقلالى

يا أجل الملوك عما وخالا ... عند ذكر الأعمام والأخوال

ومثير الحرب العوان من المهدى ... الى يوم وقعة الدجال

ليت شعرى بأى شىء أداريك ... فقد قل فى رضاك احتيالى

ليس يغنى جدى ولا ينفع الهزل ... سوى أن أعد فى الجهال

ثقل الناس فى الطلاب وخففت ... بجهدى عليك من أثقالى

ما لخلانى الصغيرة لا تد ... خل معكم فى حجلة الأعدال

أترانى أرضى بهذا وفى الدنيا ... ظهور الفلا وايدى الجبال

افتحوا دونى الطريق وردوا ... لى الى عسقلان بدر الحجال

ودعونى أصيح عند ابن حمدان ... صياحا يشق حلو السلال

ما اتفقنا إلى على صحبة الدهر ... ولكن بدالكم فبدالى

والقصيدة تفيض عاطفة وقوة وتدل على أن روح الوئام قد تغير بين الخفاجى والأمير محمود

---

(١) ١٤ ومابعدها من الديوان .

وعزم ابن سنان الخفاجي على الخروج من حلب الى ولاية ابن حمدان عام ٤٥٩ ﻫ فاهدى اليه قصيدته[١]

أأحبابنا هل تسمعون على النوى ... تحية عان أو شكية عاتب
وما أدعى انى احن اليكم ... ويمنعنى الأعداء من كل جانب
جزى الله عنى العيس خيرا فطالما ... فرقت بها بينى وبين النوائب

الى ان يقول فى ابن حمدان :

يظن العدى انى مدحتك للغنى ... وما الشعر عندى من كريم المكاسب
أعنى على نيل الكواكب فى العلا ... فأنت الذى صيرتها من مطالبى

فهو يطلب منه ان يساعده على بلوغ آماله العظيمة فى مجد الحياة وسلطانها :
ثم أهدى الخفاجي الى ابن حمدان قصيدة[٢] اخرى فى رمضان عام سنة ٤٥٩ يشكره فيها على جميل فعله مع أهله ويقول :

جادت لقومى سحاب منك هاطلة ... ما غيبت منة منها وقد حضروا
شكرت عنهم وان أحسنت عندهم ... فانى ناظم بعض الذى نثروا
وغادرتنى صروف الدهر بعدهم ... كالصل أطرق لا ناب ولا ظفر
فى بلدة تحتوى الأحرار ساحتها ... فما لهم وطن فيها ولا وطر
فهل لرأيك ان ينتاش مطرحا ... له من الفضل ذنب ليس يغتفر

ثم أهدى اليه قصيدة[٣] أخرى فى نفس عام ٤٥٩ يمدحه بها ويذكر إطلاقه حميد بن محمود وحازم بن على بن جراح من الاعتقال ويقول فى هذه القصيدة

ولى همة لو أبعد الله دارها ... عن الشام لم يعرف لمثلى نظيرها
ومنها : أعدتم على طى حميدا وحازما ... فأمرع واديها وفاض غديرها
وما فاتنى خير نداك كفيله ... ولا غبت عن نعمى وقومى حضورها

---

(١) ٩٤ ومابعدها من الديوان
(٢) ٤٣ وما بعدها من الديوان
(٣) ٤٦ وما بعدها من الديوان

ولكن امير حلب عاد فاسترضى ابن سنان الخفاجى سنة ٤٦٠ فعرض أليه بآماله فى قصيدته (١) فيه التى يقول منها :

أهون بشعرى بعد ما سبقت مدحى اليـك ذرائع أخر
فلطالمـا فاضت يداك على قـوم وما نظموا ولا نثروا
ما أخرتنى عنهم قدم لو كان فى وفيهم نظر
لكنه قدر رضيت به قسرا وكيف يغالب القدر
بينى وبين الحظ داجية عمياء لا نجم ولا سحر

وتوسط وزير الامير محمود بينه وبين ابن سنان الخفاجى حتى قلده ولاية قلعة عزاز فى آخر عام ٤٦٠ هـ

واستقر ابن سنان الخفاجى بها . وفى صفر عام ٤٦١ وصل ملك الروم الى ضواحيها ولكنه انصرف عنها فكتب ابن سنان الخفاجى إلى الأمير محمود قصيدة (٢) يذكر له فيها ذلك ويشيد به

وفى منتصف عام ٤٦١ سار الامير محمود الى حصن « اسفونا » بجيش كبير فأرسل اليه الخفاجى قصيدة ينوه فيها بهذا الحادث التاريخى (٣)

وفى عام ٤٦٢ أرسل اليه أيضا قصيدة (٤) شعرية من قلعة عزاز . وفى عام ٤٦٣ دعا الأمير محمود للخليفة العباسى القائم فى حلب فأشاد الخفاجى بهذا فى قصيدة (٥) أرسلها من قلعة عزاز الى حلب

وبعد ذلك شق ابن سنان الخفاجى عصا الطاعة على الأمير محمود واستقل

---

(١) ٤١ وما بعدها من الديوان
(٢) ١٠٣ وما بعدها من الديوان
(٣) ١١٣ وما بعدها من الديوان
(٤) ١١٣ من الديوان
(٥) ٩٦ من الديوان، ١٠/٢٤ ابن الاثير، ١/٣٣٩ أعلام النبلاء

بولاية عزاز فتحايل عليه الامير محمود حتى أرســـل السم إليه بواسطة وزيره ابن النحاس عام ٤٦٦ هـ فمات وحملت جثته الى حلب فدفن بها [١]

وهكذا انتهت حياة حافلة بالطموح والمجد والاباء والعزة احتذى صاحبها حذو الآباء والاجداد ؛ فرحمه الله واكرم مثواه ، وجعل الفردوس مأواه مع الملائكة والشهداء والصالحين

وبعد فهذه الحياة الحافلة للامير ابن سنان الخفاجى كانت مطمورة فى ثنايا التاريخ البعيد المجهول فكشفنا عنها النقاب بدراستنا هذه لعصره وشعره دراسة مستفيضة

ثقافة ابن سنـان

وثقافة ابن سنان ثقافة واسعة متنوعة :

فهو أديب ملم بالأدب متذوق له ، وهو علم من أعلام النقد الأدبى كما يتجلى ذلك من كتابه سر الفصاحة ؛ وهو شاعر مبدع ملهم تتجلى فى شعره سمات اشاعرية المجددة الساحرة ، وهو فوق ذلك كله عالم ملم بشتى العقائد والفلسفات والمذاهب العقلية والدينية كما يتجلى ذلك فى كتابه « سر الفصاحة » وفى كثير من شعره ، وكان ينتصر للرأى القائل بأن سبب اعجاز القرآن هو أن الله عز وجل صرف العرب وسواهم عن معارضته وقد أيد هذا الرأى فى كتابه سر الفصاحة وألف فيه كتابا سماه الصرفة [٢] ، وهو فوق ذلك العلم الفذ فى البلاغة ، وكتابه يعد أول تأليف مفصل فى علوم البلاغة والبيان وأجمع دراسة لشتى ألوان البلاغة وفنونها وصورها وجميع أسبابها من اللفظ والمعنى والتأليف والنظم

وكل هذه الثقافات تدل على عقلية واسعة عميقة ولا شك أن مما نماها فيه تلمذته على أستاذه ابى العلاء وسواه من علماء العربية وأدبائها فوق عكوفه على

---

(١) راجع ٢ و ٣ من الديوان ؛ ٢٣٣ جـ ١ فوات الوفيات

(٢) راجع ١٢٩ جـ ٣ معجم الأدباء وقد نقل عنه ياقوت

للطالعة والقراءة والبحث والتأليف ، وفى أستاذه المعرى يقول من قصيدة رثى بها جماعة من أهله وأصدقائه

ومقيما على المعرة تطويه الليالى وذكره منشور [1]

مؤلفات ابن سنان :

وقد الف ابن سنان الكتب الآتية .

١ – سر الفصاحة .

٢ – كتاب الصرفة ذكر فيه قضية إعجاز القرآن وأن سبب الاعجاز هو صرف الله العرب عن معارضته [2]

ومذهب الصرفة ينسب الى ابراهيم بن سيار النظام المعتزلى وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله من أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلى البغدادى . وكان الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين يقول قولا قريبا من ذلك . وقد رجح هذا المذهب ابن سنان فى كتابه .

٣ – وله ديوان شعر صغير .

الى غير ذلك من كتبه المفقودة.

شعر ابن سنان وشاعريته

وابن سنان شاعر مشهور ، وله ديوان شعر يقع فى ست عشرة ومائة صفحة ، ويمتاز شعره بامتلائه بالمعانى والأفكار العقلية وبقوته وجمال العاطفة فيه وظهور شخصية الشاعر وغلبتها عليه ، وسندرسه دراسة واسعة فى كتاب مستقل اذا وفق الله .

ونشير فى هذا المقام إلى أن الباوودى قد جعل فى مختاراته ابن سنان من الشعراء الذين نقل عنهم من شعرهم .

فذكر له نحو ٧٨٥ بيتا، منها :

---

(١) ص ٢٥ من الديوان

(٢) ١٣٩ جـ ٣ معجم الادباء

١٠ فى الادب
٥٨٧ فى المديح
٥٦ فى الرثاء
١١ فى الصفات
١١٦ فى النسيب
٢ فى الهجاء*
٣ فى الزهد

وكان من الشعراء الذين عاصروا ابن سنان فى حلب: ابو الفتح بن أبى حصينة المتوفى عام ٤٥٦ (راجع ١٨٨ ج ٤ أعلام النبلاء)

ومنهم أبو العباس الملقب بالمشكور (راجع ٣٣٣ و ٣٣٤ ج ١ أعلام النبلاء) وسواهما من الشعراء

ومن ديوانه نسخة خطية بدار الكتب وطبع الديوان ببيروت فى ١١٦ صفحة

وشعر ابن سنان الخفاجى كله مختار جيد لا سيما ما نظمه من بعد عصر صباه وهو مظهره لشخصيته فى يأسه وأمله وفقره وغناه وظفره وفشله وفى فضائله الخلقية الكريمة وفى طموحه البعيد الوثاب وفى نظراته الفلسفية التى استمدها من أستاذه ابى العلاء

وهو فى رثائه وفى عتابه وفى غزله وفى مدحه وفى وصفه وفى التعبير عن وجداناته وعواطفه رائع بالغ حدود الجمال الفنى والعاطفى

ولا مانع من ان نعرض هنا عدة نماذج لشعر ابن سنان:

قال الخفاجى

ايها النوام ويحكم قد حملنا عنكم السهرا
نحن فى ظلماء داجية مالها صبح فينتظر
فجرها والصبر بعدهم ما سمعنا عنهما خبرا

وقال من قصيدة رثى بها جماعة من أهله وأصدقائه

طلب الأمن فى الزمان عسير … وحديث المنى خداع وزور

لاتظن الفقيد أفرده البين … فقــد أعجل المقيم المسير

ان فى جانب المقطم مهجورا … ومن أجله تزار القبــور

ومقيما على المعرة[1] تطويه … الليالى وذكره منشور

وضريحين بالعواصم مبذولين … والصبر عنها محظور

وغريبا بالدير بان له العيش … وغاض الندى ومات السرور

صارم فلت النوائب حديه … وغصن تحت الثرى مهجور

أيها الظاعنون لا زال … للغيث رواح عليكم وبكور

لست أرضى بالدمع فيكم فهل … يملك رى البحور الا البحور

قد رأينا دياركم وعليها … أثر من عفاتكم مهجور

وسألنــا أطلالها فأجابت … ومن الصمت واعظ ونذير

عرصات كأنهن ليــال … فارقتها عند الكمال البدور

يا ديار الاحباب غيرك الدهر … فكانت بعد الامور أمور

اين أيامنا بظلك والشمل … جميع والعيش غض نضير

(١) هو استاذه المعرى الفيلسوف الشاعر م ٤٤٩ ه

نشوة أعقبت خمـــارا من الهم ولـكن قـــد يفرق المخمور
يا نجوم العلى غربتم وما فى الليل من بعدكم نجوم تغور
حال عما عهد تموه ولم يجر على رسمه الصباح المنير
وعفا الجود فالـكريم بخيـــل فى الملمات والغنى فقـــير
لا يجاوركم الصعيد بسوء فهو للنازلين بئس المجير
وسقاكم من السحاب صناع الـكف يسدى فى روضكم وينير
ما أرى الشعر كافيا فى مراثيكم ولـكن قد ينفث المصدور

وقال

ياخجلتى للطيف لما سرى فى خطر الليل الى ســـاهر
زيارة ضـــاعت ولـكنها جنـــاية الشوق على الزائر

وقال :

لى راحة يفرق منهـــا الغنى لأن ما ينزلهـــا يستباح
لا بد ان أعمرها بالقنا فطالما أقفرتها بالسماح

وقال :

تجاهلت حتى أنكرتنى خفاجة وقالت : وهل ضل الأعز المشيع ؟

وقال فى صباه

وحى من خفاجة رحت فيه على جرداء حالية الاديم
اباح الخمر فيه حمى همومى فأشربها وتفتك بالنديم

وقال : فى مقامه بديار بكر من قصيدة طويلة :

سقى الهضبة الأدماء من ارض جوشن سحائب تسدى روضه وتنير
وحل عقود المزن فى حجراته نسيم بأدواء القلوب خبير
فما ذكرته النفس الا تبادرت مدامع لا يخفى بهن ضمير

سر الفصاحة

دراسة وتحليل الكتاب وأثره فى دراسات البلاغة

— ١ —

سر الفصاحة كتاب جليل، عظيم الخطر، كبير الأثر فى بحوث النقد والبلاغة، مشهور بين العلماء، مشهود له بالأهمية والابتكار والخلق

مؤلفه علم من أعلام النقد والبلاغة فى القرن الخامس الهجرى، هو ابن سنان الخفاجى ٤٢٢ — ٤٦٦ ﻫ

— ٢ —

و « سر الفصاحة » بحث مفصل فى أسرار الفصاحة والبلاغة

تكلم فيه الخفاجى على اللغة ثم على الحروف ثم على الالفاظ المفردة وصفاتها وأسباب الفصاحة فيها ثم على الالفاظ المؤلفة وأسرار فصاحتها ثم على المعانى المفردة وما يجب أن تكون عليه فى التأليف ليكون الكلام مواتيا للعقل والتفكير

بدأه الخفاجى بمقدمة أبان فيها ان الغرض من كتابه معرفة حقيقة الفصاحة وسرها لما للبلاغة والفصاحة ومعرفتهما من تأثير بعيد فى العلوم الادبية ولأنهما اللذان يكشفان عن سر الاعجاز فى الذكر الحكيم

لذلك بدأ بحثه فى الكلام على الصوت وتحديد معناه وخصائصه وأنه يخرج مستطيلا ساذجا حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده فيسمى المقطع أينما وجد حرفا

ثم تكلم على الحروف ومعناها وأن عدد الحروف العربية تسعة وعشرون حرفا وأن المبرد يجعلها ثمانية وعشرين لأنه لا يعتد بالهمزة، وأن هذه الحروف

يحسن استعمال بعضها فى الكلام الفصيح ولا يحسن استعمال البعض الآخر؛ وأبان مقاطع الحروف وصفاتها

ثم حدد معنى الكلام وأنه ما انتظم من حرفين فصاعدا من الحروف المعقولة إذا وقع ممن تصح منه الافادة ؛ ذاهبا الى أنه يشمل المفيد وغيره ، مخالفا لمن رأى قصره على المفيد ، وأبان فساد رأى الجبائى من أن جنس الكلام يخالف جنس الصوت كما أبان فساد رأى المجبرة التى تزعم أن الكلام معنى فى النفس ، ثم ذكر أقسام الكلام ، وان المفيد من الكلام منه حقيقة ومجاز ، وأنه كله يرجع الى معنى الخبر ، كما أبان ان المتكلم من وقع منه الكلام قصـــدا ، وأن الحكاية هى المحكى عند قوم، فالتالى للقرآن يسمع منه كلام الله على الحقيقة ، وهى غير المحكى عند قوم آخرين وإن كانت مثله وانتصر لهذا الرأى

ثم ذكر اللغة ومعناها وأصلها أمواضعة ام توقيف وانتصر للرأى القائل إن أساس اللغة مواضعة واصطلاح ، وأن العقلاء استعانوا على هذه المواضعة بالحروف لسهولتها وتكلم على فضل اللغة العربية وميزاتها وخصائصها ، وذكر أقسام تأليف الحروف وأن منه ما هو تأليف من الحروف المتباعدة مخرجا وهو الاحسن ومنه ما هو تأليف من الحروف المتقاربة وهو قليل أو منبوذ .

ثم تكلم على الفصاحة وانها مقصورة على الالفاظ بعكس البلاغة فهى وصف للالفاظ مع المعانى ، وأبان عن شرف الفصاحة وأنها صفة للالفاظ متى ما استكملت عناصر عدة ؛ وأنه متى تكاملت تلك العناصر فلا مزيد على فصاحة الالفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ نصيبها من الوصف ، وبوجود أضدادها تستحق الذم بأنها غير فصيحة ، وذكر أن تلك العناصر والشروط قسمان :

١ — ما يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها

٢ — وما يوجد فى الالفاظ المنظومة

ا — فأما ما يجب ان يوجد فى اللفظة المفردة فثمانية عناصر :

١ — ان يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج

٢ — ان يكون لتأليفها فى السمع حسن ومزية على غيرها

٣ ــ ان تكون الكلمة غير متوعرة وحشية ، ونقدهنا رأى من مدح المعرى بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الادباء

٤ - ان تكون الكلمة غير ساقطة عامية

٥ - ان تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح

٦ ــ ان لا تكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره

٧ - ان تكون الكلمة غير كثيرة الحروف

٨ - ان تكون مصغرة فى موضع عبر بها فيه عن شىء لطيف أو خفى

ب ــ وأما عناصر الفصاحة فى الألفاظ المؤلفة :

ا ــ فنها ما تشترك فيه مع الالفاظ المفردة وهى [١] :

١ ــ اجتناب تكرار الحروف المتقاربة فى تأليف الكلام ويرى ابن سنان ان التأليف على ضربين فقط : متلائم ومتنافر، والمتلائم درجات ولا فرق بين القرآن وغيره فى ذلك ؛ وأبان أن وجه الاعجاز هو صرف الله العرب عن الاتيان بمثله وناقش رأى الرمانى الذى ذهب فيه الى أن تباعد الحروف فى المخرج تباعدا شديدا مدعاة للتنافر كتقارب الحروف ، وذهب الخفاجى الى الثانى فقط

٢ - ان يكون التأليف جاريا على العرف العربى الصحيح

٣ - ان لا يكون التأليف قد عبر به عن أمر آخر يكره ذكره

ب ــ ومنها ما يختص به التأليف مما يرجع الى الألفاظ بانفرادها أو اشتراكها مع المعانى

---

(١) وقبل ان يذكر الخفاجى ذلك يوضح أن تأليف الكلام صناعة موضوعها هو الكلام مخالفا لقدامة الذى ذهب الى ان موضوعها المعانى ، وان الفصاحة عبارة عن حسن التأليف فى الموضوع المختار ، ولذلك بدأ يتكلم على التأليف ووجوه حسنه او قبحه ليبين أمر الفصاحة

فن أصول حسن التأليف :

ا ـ وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازا :

١ بأن لا يكون فى الكلام تأخير أو تقديم يفسد المعنى أو الاعراب ،

٢ ـ وبأن لا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى .

٣ ـ ومن وضع الألفاظ موضعها حسن الاستعارة ، وهنا يشرح الاستعارة ويذكر خصائصها والفرق بينها وبين التشبيه وينقد رأى الرمانى الذى جعل من الفروق بينهما عدم ذكر أداة التشبيه فى الاستعارة وذكرها فى التشبيه ، ثم ذكر أثر الاستعارة فى الفصاحة ، وأقسامها ، وأنها قليلة فى شعر المتقدمين كثيرة فى شعر المحدثين وخاصة أبا تمام .

٤ ـ ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا تكون الكلمة حشوا وهنا يتحدث عن الحشو والغرض المنشود منه وما عيب منه وما استحسن ؛ وأدخل فى الحشو الايغال ، وكلام الخفاجى فى الحشو له صلة وثيقة برأى قدامة فيه .

٥ ـ ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون فيها معاظلة وهنا يتحدث عن المعاظلة والفرق بينها وبين مشاكلة النظم بعضه لبعض ودلالة البيت على قافيته (مما يسمى تسهيما أو توشيحا) . والخفاجى فى هذا متأثر بقدامة والآمدى جد التأثر .

٦ ـ ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا يعبر عن المدح بألفاظ الذم ولا العكس .

٧ ـ ومنه حسن الكناية فى الحال الذى يستدعى عدم التصريح .

٨ ـ وعدم استعمال الالفاظ العلمية والاصطلاحية ، وهو هنا متأثر برأى الجاحظ فى ذلك .

ب ـ ومن شروط الفصاحة المناسبة بين الالفاظ : من طريق الصيغة ، أو من طريق المعنى :

فأما المناسبة بينها من طريق الصيغة فأثرها فى الفصاحة ظاهر ، ومن هـــذه المناسبة :

١ ـ السجع والازدواج وهنا يذكر الخفاجى مذاهب العلماء فى قبول السجع

والازدواج وفى كراهتهما ويستحسن السجع المطبوع، وهو هنا متأثر بالجاحظ وبنقد النثر، وينقل هنا كلمة بشر بن المعتمر — التى ذكرها الجاحظ فى البيان — فى قلق الالفاظ فى مكانها، ثم يبين معنى السجع وأقسامه، وينقد الرمانى فيما رآه من ذم السجع وفصاحة الفواصل، ويتكلم عن منهج القرآن فى اسلوبه وأنه لم يكن كله مسجوعا لان ذلك من أمارات التكلف والاستكراه، كما انه لم يخل من السجع لان السجع من صفات الفصاحة، ويذكر الكتاب المحدثين الذين أكثروا من السجع والذين أقلوا منه والذين كانوا بين هؤلاء وهؤلاء. كما ذكر أن جعل الرسالة كلها مسجوعة قبيح

٢ — القوافى فى الشعر ويذكر الخفاجى انها تجرى مجرى السجع وان المختار منها ما كان متمكنا يدل الكلام عليه، وان الحطيئة وحسان التزما فى بعض قصائدهما ما لا يلتزم فى القافية، وكذلك كثير وابن الرومى والمعرى ويتكلم على شروط حسن القافية ويلم بكثير من عيوبها

٣ — التصريع ويفيض فى الكلام فيه

٤ — الترصيع وهو ان تكون الجمل التى يشتمل عليها البيت أو الفصل المنثور مسجوعة، ويستحسن الخفاجى من ذلك ما قل دون ما كثر. وهو فى ذلك يحتذ حذو قدامة فى نقد الشعر وان كان يخالفه فيه فان قدامة يستحسن الكثير منه والخفاجى يستحسن القليل دون الكثير

٥ — اللف والنشر المرتب

٦ — عدم كثرة الزحاف فى الشعر، وتساوى الفصول او ان يكون الفصل الثانى اطول من الاول دون العكس فى النثر

٧ — التجانس وهنا يفيض الخفاجى فى الكلام عليه وفى تحديد معناه وذكر اقسامه وفى استحسان القليل الغير المتكلف منه، والخفاجى متأثر فيما كتبه عن الجناس بقدامة والآمدى

وأما المناسبة بين الالفاظ من طريق المعنى فعلى وجهين :

١ - تقارب معنى اللفظين

٢ - تضاد معنيهما أو تقارب المعنى من التضاد. وهذا هو المطابقة عند العلماء ويسميها قدامة تكافؤا وأنكر عليه ذلك الآمدى والأخفش، وأبان الخفاجى ان علماء الشعر يسمون ما كان قريبا من التضاد «المخالف»، ثم يذكر الخفاجى اقسام الطباق واسم كل قسم عند العلماء ويختار تسمية الجميع بالمطابق، ثم يذكر حقيقة الطباق وما يستحسن منه ومثلا لجيده ورديئه؛ ويجعل التقديم والتأخير فى الاسلوب مما يجرى مجرى الطباق

حـ - ومن شروط الفصاحة والبلاغة: الايجاز؛ وهنا يذكر مقام الايجاز ومقام الاطناب، متأثرا فى ذلك بنقد النثر، ومناقشا لمن يجعل الاطناب بلاغة، ويشترط فى الايجاز وضوح المعنى وعدم خفائه والا كان قبيحا مذموما، ويتبع هذا بالكلام على المساواة والتذييل والاشارة والمقام الذى يستوجب كل واحد منها، ويؤثر منها الايجاز ويذكر رأى علماء الأدب فيه، ويوضح أقسامه، ويناقش تعريف الرمانى للايجاز، ويشرح معنى الاطناب والتطويل والمساواة والتذييل والحشو الى آخر هذه البحوث القيمة

د - ومن شروط الفصاحة والبلاغة الوضوح فى الأسلوب شعرا أو نثرا، وهنا ينقد رأى الصابى الذى ذهب الى استحسان الوضوح فى النثر دون الشعر، ويشرح الخفاجى أسباب غموض الكلام، ويؤكد أن سر الا عجاز هو صرف الله تعالى الناس عن معارضته، ويمثل للكلام الواضح والمغلق، ويذكر وصية بشر ابن المعتمر التى ذكرها الجاحظ من قبل والتى توصى بعدم التوعر، كما يذكر كلمة للجاحظ فى ذلك

هـ - ومن اوصاف الفصاحة والبلاغة الكناية التى تكلم عليها الخفاجى متأثرا فى ذلك بقدامة فى نقد الشعر

و - ومنها التمثيل

جـ - وأما أسباب الفصاحة فى المعانى التى تستعمل فى صناعة تأليف الكلام فهى:

١ - صحة التقسيم.

٢ - تجنب الاستحالة والتناقض.

٣ — الايضع الجائز موضع الممتنع .
٤ — صحة التشبيه .
٥ — صحة الأوصاف فى الأغراض .
٦ — صحة المقابلة فى المعانى .
٧ — صحة النسق والنظم وحسن التخلص .
٨ — صحة التفسير .
٩ — وأما المبالغة والغلو فى المعنى فنقاد الأدب مختلفون فيهما : مدحا وذما .. والخفاجى يستحسن الغلو مع استعمال ما يقربه إلى الصحة .
١٠ — الاستدلال بالتمثيل .
١١ — الاستدلال بالتعليل .

والخفاجى فى هذا الباب كله متأثر بخطى قدامة فى نقد الشعر إلى حد بعيد .

وبعد ذلك كله يذكر الخفاجى الآراء الفاسدة فى نقد الشعر وفى نقد الكلام :

١ — فيخطىء من يفضل أشعار المتقدمين على شعر المحدثين ، ويناقش هذا الرأى فى تفصيل وقوة

٢ — ويبين أن مذهب النقاد والمنهج فى نقد الشعر هو ما قدمه من نعوت الألفاظ والمعانى ، دون التفات إلى تقدم الزمن أو تأخره فذلك لا تأثير له ، وهذا مذهب الجاحظ والمبرد والمعرى .

٣ — ويبين أن المعنى الفاحش (من المجون ووصف الخمر وسواهما) لا يعيب الشعر — كما ذهب إليه بعض النقاد — ما دام تأليفه جيلا .

٤ — ويبين المناهج الخاطئة لبعض النقاد فى النقد ، من اختيار ما يوافق ذوق طبع الناقد وحده ، ومن إيثار الوحشى دون المشهور ، ومن عكس ذلك ، ومن استحسان الشعر لأجل قائله .

وأخيرا يتكلم الخفاجى على النثر والشعر ومكانة كل منهما .

ويذكر ما يحتاج إليه البليغ من العلوم اللغوية والأدبية وسواها .

وكل هذه البحوث يذكرها الخفاجى فى إفاضة وجمال شرح وقوة حجة وعفة مناقشة وطهارة نقد وسداد غرض وصواب غاية وأعدل منهج .

وأخيرا وبعد ذلك كله ينتهى الكتاب .

- ٣ -

فهذا الكتاب إذا بحث مفصل فى أسرار الفصاحة والبلاغة وأوصافهما فى اللفظ وفى النظم وفى المعنى .

وهو فى ذلك كله وبما فيه من كثير من الآراء الحافلة فى الأدب والنقد والبيان ذو أثر كبير خالد على الثقافة الأدبية والبيانية ، وقد نوه ابن الأثير م ٦٣٧ ه فى أول مثله السائر بالكتاب وبمؤلفه وأشاد به أعظم إشادة وتأثر به فى بحوث كتابه المثل السائر ، ونقد بعض آرائه فى بعض الأحايين ، وكتب البلاغة المؤلفة فى العصور الأخيرة وخاصة الإيضاح للخطيب م ٧٣٩ ه قد تأثرت بسر الفصاحة وآرائه إلى حد بعيد ، فهو المصدر الأول للبلاغيين كما هو أهم مصدر من مصادر الأدب والنقد .

- ٤ -

ومع ذلك كله فيمكننا أن نقول إن مصادر ابن سنان الأولى التى اعتمد عليها فى تاليف كتابه الحافل هى :

١ - البيان والتبيين للجاحظ م ٢٥٥ حيث احتذى حذوه فى كثير من الآراء البيانية والأدبية التى تضمنها الكتاب .

٢ - الشعر والشعراء لابن قتيبة م ٢٧٦ حيث اعتمد على مقدمته اعتمادا كبيرا .

٣ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر م ٣٣٧ وقد وضعه الخفاجى موضع العناية حين الف كتابه وسار على نهجه فى التاليف واحتذى حذو مؤلفه فى كثير من الآراء .

٤ - نقد النثر حيث اعتمد عليه فى بعض فصول الكتاب وخاصة حينما كتب على مقامات الايجاز والاطناب

٥ - الموازنة للآمدى م ٣٧١ فقد اعتمد عليها الخفاجى اعتمادا كبيرا وحفل

بآرائها ونقد الكثير منها ناهجا فى ذلك منهج المرتضى فى نقده للآمدى فى كتابه « الشيب والشباب » .

٦ ـ الوساطة للجرجانى م ٣٩٢ فقد ركن اليهـا فى بعض الآراء ونقل عنها الكثير من مباحث الاستعارة ونقدها

٧ ـ كتاب الرمانى م ٣٨٤ فى البلاغة فقد أخذ منه الخفاجى بعض آرائه ونقد ما هو فى حاجة الى النقد

٨ ـ اعجاز القرآن للباقلانى م ٤٠٦ فهو كذلك يظهر أثره فى سر الفصاحة وخاصة فى مباحث السجع والفواصل فى القرآن

ومع ذلك كله فشخصية الخفاجى قوية جدا فى كتابه بنقده لما يستحق النقد من هذه الآراء وبحسن عرضه وجمـال تنسيقه وقوة حجته وحسن ذوقه فى النقد والتحليل

— ٥ —

وابن سنان كما يبدو من كتابه رجل ذو ثقافة واسعة درس كتب الادب والنقد واللغة، وكانت من خصائص وميزات ثقافته هذه الناحية الكلامية التى مهر فيها، وأسلوبه فى الجدل أسلوب قوى من اساليب المتكلمين، وهو ينتصر لهم حتى يرى كلامهم دون ما سواه هو الحجة الدامغة

وهو فوق ذلك كله منصف فى حكمه معتدل فى نقده يعتمد على الحجة والدليل قبل كل شىء ويختبر كل شىء بميزان العقل والتفكير ويرتب كل شىء على أساس حكم العقل واستنتاجه

— ٦ —

ومع ذلك كله فاننا نأخذ على ابن سنان الخفاجى بعض المآخذ :

١ ـ فقد عاب قول ابى تمام :

يضحكن من أسف الشباب المدبر ... وزعم أن المدبر مثل الادبار

وهذا لا أراه الا نتيجة التفكير البعيد الذى امتاز به ابن سنان والذى لا يصل إليه تفكير الجمهور ولا يقبله ذوقهم

٢ ـ ونقده ابن الأثير فى عيبه للكلمات الطويلة مثل المستنشدين

٣ ـ كما نقده فى جعل الاستعارة المبنية على غيرها قبيحة . واقول ان ذلك مذهب ارسطو فى « الخطابة » احتذى حذوه قدامه فى كتابه نقد الشعر ، ثم احتذى حذوهما الخفاجي فى هذا الكتاب ، وقد شرحت ذلك شرحا وافيا فى كلمة نشرتها عن الموازنة .

— ٧ —

وبعد فقد عاصر الخفاجي ٤٦٦ شيخ البلاغة والبيان عبد القاهر الجرجانى م ٤٧١ ه كما عاصر ابن رشيق صاحب العمدة المتوفى سنة ٤٥٦

ويغلب على ظنى أن بعد مواطن هذه الشخصيات الفذة عن بعض كان سببا فى عدم تأثر كل شخصية منها بالأخرى فى تفكيرها فى النقد واحكام البلاغة

فعبد القاهر عاش فى جرجان والخفاجي فى حلب وابن رشيق فى القيروان ، وألف الأول اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز من حيث الف الثانى كتابه سر الفصاحة ، ومن حيث ألف الثالث العمدة فى صناعة الشعر ونقده

فأما الصلة الباقية بين ابن رشيق وابن سنان فصدرها اعتماد الرجلين فى تأليفهما على مصدر واحد له أهميته وهو نقد الشعر، فكان كتاب العمدة وكان كتاب سر الفصاحة تجديدا يسير حول منهج قدامة فى النقد وفى التأليف

وللان لا تتجلى صلة واضحة بين الخفاجى والجرجانى ولا يظهر أى أثر للشبه أو التأثر بين الرجلين اللهم الا فى مواضع قليلة :

فقد ذكر ابن سنان ـ كما ذكر عبد القاهر ـ شبهة الذين زعموا أن الحكاية هى المحكى ، ودليلهم عليها أن الحكاية لو كانت غير المحكى بل مثله لكان من قرأ القرآن آتيا بمثله على الحقيقة، وأجاب الخفاجى عن هذه الشبهة كما أجاب عبد القاهر فى دلائله بأن التحدى انما وقع بفعل مثل القرآن على الابتداء دون الاحتذاء والتالى للقرآن قد أتى بمثله محتذيا فلا يكون بذلك معارضا وعلى هذا أيضا كان يقع التحدى بين العرب بالشعر على سبيل الابتداء [سر الفصاحة والدلائل ص ٢٧٠] .

وأرى أن ذلك مصدره هو التشابه بين الثقافة العامة فى عصر الرجلين لا غير وعلى ذلك فلم يتأثر الخفاجى بالجرجانى ولم يتأثر الجرجانى بالخفاجى، ولو أن الرجلين اطلع أحدهما على جهود الآخر فى دراسة البلاغة لكان لذلك أثره الخطير فى تحويل مناهج البحث البلاغى.

ومن الجدير بالذكر أن نشير الى أن مؤلف الخفاجى أعمق تفكيرا وأشمل فكرة وأوسع مدى وأبلغ بيانا من كتابى الجرجانى: الأسرار والدلائل.

ولا يفوتنا أن نذكر أن ابن الأثير فى كتابه «المثل السائر» أشاد بسر الفصاحة وأيد الكثير من آرائه ونقد بعضها.

— ٨ —

ابن الأثير وسر الفصاحة:

ا ـ أشـــاد ابن الأثير فى مطلعه كتابه بكتاب سر الفصاحة ونوه بمنزلته فى علم البلاغة،

ب ـ وتعقب آراءه بكثير من النقد:

١ ـ فهو فى أول الكتاب يأخذ عليه إكثاره فى ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها.

٢ ـ وذكر فى [ص ٩٢ ـ ٩٥] ما ذكره ابن سنان من بعد مخارج الحروف وأثره فى فصاحة الكلمة وينقد رأيه فى جعل ذلك شرطا فى اختيـــار الألفاظ وينقد رأيه أيضـا فيما ذكره ابن سنـان من جريان اللفظة على العرف العربى، وفى تصغير اللفظة فيما يعبر عن شىء لطيف أو خفى أو ما جرى مجراه.

٣ ـ وقد أيد رأيه فى نقد بيت الشريف الرضى:

أعز على بان أراك وقد خلا عن جانبيك مقاعد العواد

[ص ١١٠ المثل السائر].

٤ ـ وينقد رأيه فى جعله من أوصاف فصاحة الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً [١١١ المثل السائر]،

٥ ـ ويأخذ صاحب المثل السائر على ابن سنان وسواه أنهم لم يفرقوا بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة، ويجعل ابن الأثير بيت إمرىء القيس «فقلت

له لما تمطى بصلبه ، من التشبيه المضمر الأداة لا من الاستعارة كما يذهب إليه ابن سنان ، ويأخذ عليه جعله البيت من الاستعارة الوسطى التى ليست بجيدة ولا رديئة . [ص ٢٣٠ المثل السائر)

٦ ـ ويأخذ على ابن سنان وسواء عدم فرقهم بين الكناية والتعريض .

٧ ـ وينقد رأى ابن سنان فى ترك ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم (ص ٤٦٣ المثل السائر) .

وأخيرا فهذا هو خاتمة ذلك البحث الجديد عن كتاب ,, سر الفصاحة ،، وأثره ومنزلته فى البلاغة

صور لابن سنان من شعره

قال ابن سنان :

هل تسمعون شكاية من عاتب ... أو تقبلون إنابة من تائب
ام كل ما يتلو الصديق عليكم ... فى جانب وقلوبكم فى جانب
أما الوشاة فقد أصابوا عندكم ... سوقا تنفق كل قول كاذب
فمللتم من صابر ، ورقدتم ... عن ساهر وزهدتم فى راغب

وقال على مذهب لزوم ما لا يلزم

مضى الصبا وأناس فى الصبا عرفوا ... أستودع الله أطرابى وأترابى
ولو عقلت لما عنيت بعدهم ... نفسى وأتعبت آرابى بآرابى
وكنت فى جانب الغبراء معتزلا ... عزى قنوعى وحصنى ظل محرابى
لا أطلب الرزق من سيف ومن قلم ... ولا أفكر فى روم وأعراب
اقول حقا ولكنى أخالفه ... ولو عقلت لكان الصمت أحرى بى

وقال :

من مبلغ اللوام أن مطامعى ... صارت حديثا بينهم وقصائدا
ركضت على اعراضهم وهى التى ... تطوى البلاد شواردا ورواكدا

مالى أجاذب كل وقت معرضا ... منهم وأصلح كل يوم فاسدا
وأقيم سوق المجـد فى ناديهم ... حتى أنفق فيه فضلا كاسدا
أرأيت أضيع من كريم راغب ... يدعو لخلقه لئيما زاهـدا
ومعرس بركابه فى منزل ... يلقى الصديق به عدوا حاسدا
عكس الأنام فان سمعت بناقص ... فاعلم بأن لديه حظا زائدا
وتفاوت الارزاق ار جب فيهم ... ان يجعلوه مصالحا ومفاسدا
ومعدد فى الفخر طارف ماله ... حتى تلوت عليه مجدا تالدا
طوقته بأوابدى ولطالما ... اهديت أغلالا بها وقلائدا
مهلا فانك ما تعد مباركا ... خالا ولا تحصى سنانا والدا
يبت له النسب الجلى وغيره ... دعوى تريد أدلة وشواهدا

وقال

أستغفر الله لا فخر ولا شرف ... ولا وفاء ولا دين ولا أنف
كأنما نحن فى ظلماء داجية ... فليس ترفع عن أبصارنا السجف
تزيد بالبحث جهلا ان طلبت هدى ... وهل يضىء لعين المدلج السدف
وفى الفلاسفة الماضين معتبر ... فطالما قصدوا فيها وما عسفوا
وقد أتوك بمين من حديثهم ... يكاد يضحك منه الحبر والصحف
ظن بعيد وأقوال ملفقة ... تخفى على الغمر أحيانا وتنكشف
الأمر أكبر من فكر يحيط به ... والعمر أقصر أن يلقى له طرف
فاعظم بدائك ان حاولت واضحة ... ومت به فعلى هذا مضى السلف
جاءت أحاديث عن قوم أظنهم ... عاشوا طويلا وقالوا بعد ما خرفوا
يدين قوم بأن الشهب خالدة ... وعند قوم لها وقت ومنصرف
وما رضيت بعقلى فى جدالهم ... ولا توهمت إلا غير ما وصفوا
ورب قوم أضاعونى وقد فهموا ... قدرى فما أنكروا فضلى ولا اعترفوا

وقال على طريق الشعر المعروف باستغفر واستغفرى :

استغفر الله القديم وعـذبه ... من شرها فى الحطام منافس

وافعل جميلا لا يضع لك صنعه ... واسمح بقوتك للضعيف البائس
واقنع ففى عيش القناعة نعمة ... لا تتقى كف الزمان الخالس
لا تركنن إلى المراء فانه ... سبب لكل تنافر وتشامس
عاذت بنو حواء من إبليس فى الدنيا م ... وكم فيهم فنون أبالس
درسوا العلوم ليملأوا بجدالهم ... فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة ... فى أخذ مال مساجد وكنائس [1]
إيوان كسرى صار مرتع ثلة ... ودياره باتت مناخ عرائس
والحيرة البيضاء بدل أنسها ... قدر أطاعته مدائن فارس
ياعقل مالك فى اللطائف منهج ... فاذا عثرت فلالعا للتاعس
عندى لقد ذهب الذين تفكروا ... فيها وما ظفروا بغير وساوس
ما قول بطليموس عنها حجة ... عندى ولا المروى من وسطالس
جار الأنام فلا دلالة ناظر ... تشفى العقول ولا إمارة قابس
لاتحفلن بما حوته صحائف ... لهم وإن وجدت بخط دارس
عجبا لهام ينازع خصمه ... فى آل يربوع وأسرة حابس
هيهات ما شرف الأصول بنافع ... حتى يكون ذوائب كمغارس
لا تفخرن وإن فضلت فبالتقى ... ناضل وفى بذل المكارم نافس

---

(١) وينسب هذا البيت والذى قبله لابن خفاجة الأندلسى (راجع ديوان ابن خفاجه شاعر الأندلس م ٥٣٣ طبعة سنة ١٢٦٦ بمصر ص ٧٨) .

ترجمة فوات الوفيات لابن سنان

عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان ، أبو محمد الخفاجي الشاعر الأديب ، كان يرى رأي الشيعة ، وكان قد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب ، وكان بينه وبين أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس الوزير لمحمود بن صالح مودة مؤكدة ، فأمر محمود أبا نصر بن النحاس ان يكتب إلى الخفاجي كتابا يستعطفه ويؤنسه ، وقال لا يأمن إلا إليك ، ولا يثق إلا بك ، فكتب إليه كتابا ، فلما فرغ منه وكتب إن شاء الله تعالى شدد النون من إن ، فلما قرأه الخفاجي خرج من عزاز قاصدا حلب ، فلما كان في الطريق أعاد النظر في الكتاب ، فلما رأى التشديد على النون أمسك رأس فرسه ، وفكر في نفسه ؛ وأن ابن النحاس لم يكتب هذا عبثا ، فلاح له انه أراد ، إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فعاد إلى عزاز ، وكتب الجواب : أنا الخادم المعترف بالانعام ، وكسر الألف من أنا وشدد النون وفتحها ، فلما وقف أبو نصر على ذلك سر وعلم أنه قصد به ، إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، وكتب الجواب يستصوب رأيه ، فكتب إليه الخفاجي

خف من أمنت ولا تركن إلى أحد فما نصحتك إلا بعد تجريب
إن كانت الترك فيهم غير وافية فما تزيد على غدر الأعاريب
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم وكاد أن يدرسوها في المحاريب

واستدعى محمود أبا نصر بن النحاس ، وقال : أنت أشرت على بتولية الخفاجي ، وما أعرفه إلا منك ، ومتى لم يفرغ بالي منه قتلتك ، وألحقت بك جميع من بينك وبينه صلة وحرمة ، فقال له :

مرني بأمر أمتثله ، قال : تمضي إليه وفي صحبتك ثلاثون فارسا ، فاذا قاربته عرفه بحضورك ، فانه يلتقيك ، فاذا حضر سالك النزول عنده والأكل معه ،

فامتنع ؟ وقل له : إنى حلفتك أن لا تأكل زاده ، ولا تحضر مجلسه حتى يطيعك فى الحضور عندى ؛ وطاوله فى الحديث ، وأخرج هذه الخشكانجتين فكل أنت هذه ، وأطعمه هذه ، فاذا استوفى أكلها عجل الحضور إلى ، فان منيته فيها ، ففعل ما أمره به ، ولما أكلها الخفاجى رجع أبو نصر إلى حلب ورجع الخفاجى إلى عزاز ، ولما استقر بها وجد مغصا شديدا ، ورعدة شديدة ، فقال : قتلنى والله أخى أبو نصر ، ثم أمر بالركوب خلفه ورده ، ففاتهم ؛ ووصل إلى حلب وصبح من الغد محموم، فجاءه من عزاز[1] من أخبره أن الخفاجى فى الرمق الأخير ، ومات

وكانت وفاته فى سنة ٤٦٦ هـ ، وحمل إلى حلب[2].

ويلى ذلك عدة مختارات صغيرة من شعره

(٢٩٧ – ٣٠٠ / ١ فوات الوفيات لابن شاكر ط ١٢٨٣ هـ) .

وما توفيقنا الا بالله ، منه نستمد العون والهداية والتوفيق

---

(١) بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب ، بينهما يوم ، وهى طيبة الهواء ، عذبة الماء ، صحيحة لا يوجد فيها عقرب وليس بها شىء من الهوام (١٦٧/ ٦ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦) .

(٢) جاء فى معجم البلدان لياقوت عند ذكر حلب من رسالة لابن بطلان كتبها سنة ٤٤٠ هـ ما نصه : وفيها حدث يعرف بابى محمد بن سنان قد ناهز العشرين ، وعلا فى الشعر طبقة المحنكين ، فمن قوله :

إذا هجوتكم لم أخش صولتكم	وإذ مدحت فكيف الرى باللهب
فحين لم ألق لا خوفا ولا طمعا	رغبت فى الهجو اشفاقا من الكذب

(٣١٣ جـ ٣ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦ م) .